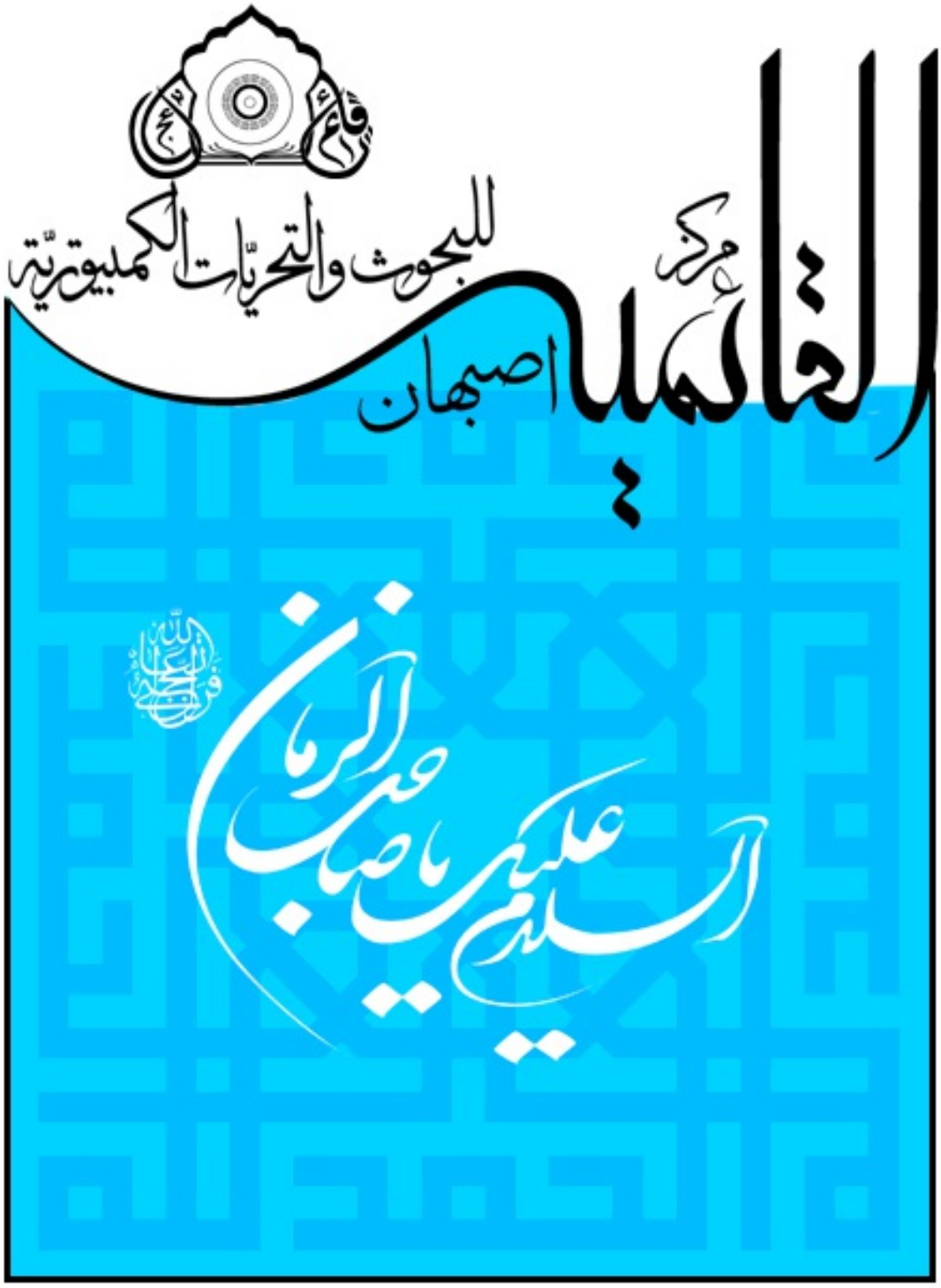

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

زکی مبارک

عبقریۃ الشریف الرضی

جلد ۲-۱

دار الجیل
بیروت

بسم الله الرحمن الرحيم

عبقرية الشريف الرضى

كاتب:

زكى مبارک، محمد

نشرت فى الطباعة:

دارالجيل

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

الفهرس ----- ۵
عبقریة الشریف الرضی ----- ۷
اشارة ----- ۷
الجزء الأول ----- ۷
مقدمة الطبعة الأولی ----- ۷
مقدمة الطبعة الثانیة ----- ۱۰
عبقریة الجندی المجهول ----- ۱۱
الشاعر المثقف ----- ۲۸
مقام الشریف الرضی بین شعراء القرن الرابع ----- ۳۹
أعوام البؤس فی حیاة الشریف ----- ۴۹
صلات الشریف الرضی بخلفاء بنی العباس ----- ۶۷
صلات الشریف الرضی بالوزراء و الامراء و الملوک ----- ۷۹
العلا و المعالی فی قصائد الشریف ----- ۹۰
الشریف کاتبا و مؤلفا ----- ۱۰۳
نهج البلاغة و الشریف ----- ۱۱۰
الجزء الثانی ----- ۱۱۳
الاصدقاء و الاعداء فی حیاة الشریف الرضی ----- ۱۱۳
اسرار العلائق بین الرضی و الصابی ----- ۱۲۷
غرائب الوفاء عند الشریف الرضی ----- ۱۳۸
غرامیات الشریف الرضی ----- ۱۴۶
وصف السود الملاح ----- ۱۵۵
عفاف الشریف ----- ۱۵۷
بکاء الشباب بکاء الشباب بکاء الشباب ----- ۱۶۱

بکاء الشباب بکاء الشباب بکاء الشباب ----- ۱۷۹
الشاعر الوصاف ----- ۱۹۱
مراثی الشریف ----- ۱۹۸
قصیدة الوداع ----- ۲۰۴
تعریف مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة ----- ۲۰۷

عبقرية الشريف الرضى

اشارة

سرشناسه : مبارک، زکی

نام کتاب: عبقرية الشريف الرضى

نویسنده: زکی مبارک، محمد

تاریخ وفات مؤلف: ۱۳۷۱ ه. ق

مشخصات نشر : بیروت: دارالجیل، ۱۹۸۸م = ۱۴۰۸ق=۱۳۶۷.

مشخصات ظاهری : ۲ ج. (در یک‌مجلد)

یادداشت : کتابنامه

یادداشت : نمایه

موضوع : شریف‌الرضی، محمدبن‌حسین، ۳۵۹ - ۴۰۶ ق.-- نقد و تفسیر.

موضوع : شعرعربی -- قرن ۴ ق.-- تاریخ و نقد.

رده بندی کنگره : BP۵۵/۳۳/م۲ع۲

شماره کتابشناسی ملی : ۱۰۳۸۱۱۸

موضوع: شعر عربی- نقد و تفسیر

زبان: عربی

تعداد جلد: ۱

ناشر: دار الجیل

مکان چاپ: بیروت

سال چاپ: ۱۴۰۸ ه. ق

نوبت چاپ: اول

الجزء الأول

مقدمة الطبعة الأولى

بسم اللّه الرحمن الرحيم الحمد للّه رب العالمين، و الصلاة و السلام على جميع الأنبياء و المرسلين.

اما بعد فهذا كتاب «عبقرية الشريف الرضى» و ما أقول انى شغلت به نفسى سنة كما قلت يوم اخرجت شرح «الرسالة العذراء» و لا سبع سنين كما قلت يوم اخرجت كتاب «النثر الفنى» و لا تسع سنين كما سأقول بإذن اللّه يوم أخرج كتاب «التصوف الإسلامى».

فما شغلت نفسى بكتابى هذا غير خمسة اشهر، و لكنها من اشهر بغداد، لا اشهر القاهرة و لا باريس، و ما كان لى فى بغداد لهو و لا فتون، فكانت الليلة فى بغداد كليلة القدر خيرا من ألف شهر. و التوفيق من اشرف الارزاق.

و كتابى هذا هو مجموعة المحاضرات التى القيتها فى قاعة كلية الحقوق، و كانت تلك المحاضرات من اشهر المواسم فى حياتى، فقد كان اصدقائى يخشون أن يملّ الجمهور بعد اسبوع او اسبوعين، و لكن الجمهور كان يزداد إقباله من اسبوع الى اسبوع، و لم ينقذنى

منه غير التصريح بأنى انفقت كل ما كنت املك، و لم يبق إلا ان استريح! و محاضراتى بكلية الحقوق فى بغداد هى الموسم الثانى بعد محاضراتى عن «المدائح النبوية» و هى المحاضرات التى القيتها باسم الجامعة المصرية فى قاعة الجمعية الجغرافية بالقاهرة، فهل يتسع العمر لموسم ثالث فى القاهرة او فى بغداد؟

لا تسألونى كيف ظلمت نفسى فأعددت هذه المحاضرات و أنشأت معها

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۶

مقالات كثيرة جدا نشرتها صحف مصر و لبنان و العراق، و رججت الحياة الأدبية فى بغداد رجا عنيفا، فذلك كان أقلّ ما يجب أن أصنع فى مقابل الثقة التى شرفتنى بها حكومة العراق، و ذلك كان أقل ما يجب أن أصنع لأحفظ لنفسى مكانا بين المصريين الذين تشرفوا بخدمة العلم فى العراق من أمثال الأساتذة محمد عبد العزيز سعيد و أحمد حسن الزيات و عبد الرزاق السنهورى و عبد الوهاب عزام و محمود عزمى، و ذلك كان أقلّ ما يجب أن أصنع فى خدمة تلاميذى و تلميذاتى فى بغداد، و قد رأيت فى وجوههم وجوه أبنائى و بناتى فكلفت نفسى فى خدمتهم فوق ما أطيق.

لا- تسألونى كيف ظلمت نفسى فأنفقت من العافية ما أنفقت، فقد ساءنى أن أعرف أن «دار المعلمين العالية» لها فى بغداد تاريخ: فكانت تفتح ثم تغلق، و تفتح ثم تغلق، فاستعنت اللّه و انتفعت بعطف معالى وزير المعارف الأستاذ محمد رضا الشبيبى و أريحية الأستاذ طه الراوى و مودة الدكتور فاضل الجمالى، و عولت على همة زميلى و صديقى الدكتور فؤاد عقراوى، و أقمنا لدار المعلمين العالية أساسا من متين التقاليد الجامعية، فأغنينا مكتبتها بالمؤلفات القديمة و الحديثة، و علّمنا طلابها كيف يبحثون و يراجعون، و غرسنا فيهم الشوق إلى التحقيق و الاستقصاء.

و رأيت أن يكون من تقاليد هذا المعهد العالى أن يخرج فى كل سنة كتابا عن شاعر أو أديب أو مفكر لم يدرسه أحد من قبل، فألفت كتابى هذا عن الشريف الرضى، فإن ترفقت شواغلى بمصر و أذنت لى بالرجوع إلى بغداد فسأخرج فى كل سنة كتابا جديدا، و إن أبت تلك الشواغل أن أتمتع مرة ثانية بالاستصباح بظلام الليل فى بغداد فسيذكر من يخلفنى أنى طوقت عنقه بطوق من حديد، و أن لا مفر له من أن يشقى فى سبيل «دار المعلمين العالية» كما شقيت.

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۷

و إنما نصصت على هذه المعانى فى مقدمة هذا الكتاب لأجتدى العطف على «دار المعلمين العالية» و ممن أجتديه؟ من حكومة العراق، فما يجوز أن يغلق هذا المعهد، و إنما يجب أن تبذل الجهود ليصبح منافسا قويا لكلية الآداب بالجامعة المصرية.

قد يقول قوم من خلق اللّه: و لماذا ابتدأت بالشريف الرضى؟

إن قالوا ذلك فالجواب عند الاستاذ عباس محمود العقاد، فهو يذكر جيدا أننى قد قلت له يوم أخرج كتابه عن ابن الرومى: كان الأفضل يا أستاذ أن تنفق هذا الجهد فى دراسة أشعار الشريف الرضى.

إن قالوا ذلك فالجواب عند الاستاذ الدكتور طه حسين فهو يذكر جيدا أنى نبهته إلى أن الاهتمام بدراسة شعر الشريف الرضى كان أولى من الاهتمام بدراسة شعراء القرن الثالث، لأن له خصائص ذاتية لا نجدها عند أولئك الشعراء.

إن قالوا ذلك فالجواب عند نادى الموظفين بالقاهرة فقد طلب فى سنة ۱۹۳۲ أن ألقى محاضرة عن أعظم شاعر فى اللغة العربية فكانت محاضرتى عن الشريف الرضى.

ابتدأت بالشريف الرضى على غير موعد، فقد رأيتنى فجأة بين دجلة و الفرات، فتذكرت أن قد جاء الاوان لدراسة هذا الشاعر الذى تعصبت له منذ أعوام طوال.

و يشهد اللّه- و هو خير الحاكمين- أنى لم أفكر فى إنصاف الشريف الرضى يوم قدم لى الدكتور شريف عسيران نسخة من كتاب الاستاذ انيس المقدسى عن أمراء الشعر فى العصر العباسى، فأزعجنى أن يهتم بأبى العتاهية و ينسى الرضىّ، مع أن ديوان أبى العتاهية

لا يساوى قصيدة واحدة من قصائد الشريف.

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۸

فمن شاء له هواه أن يزعم أن لى غاية فى التعصب للشريف الرضى فليتق اللّه فى نفسه، و ليذكر ان الدكتور زكى مبارك لو كان أنفق نشاطه فى الاتجار بالتراب لأصبح من كبار الأغنياء و لكنه- بلا أسف- سيموت فقيرا لأنه أنفق نشاطه فى خدمة الأدب العربى.

و الأدب العربى خليق بأن يكون له شهداء، و أنا فى طليعة أولئك الشهداء.

سيرى قراء هذا الكتاب أنى قد جعلت الشريف أفحل شاعر عرفته اللغة العربية، و قد سمع بذلك ناس فذهبوا يقولون فى جرائد بغداد: أيكون الشريف أشعر من المتنبى؟

و أستطيع أن أجيب بأن الشريف فى كتابى أشعر من المتنبى فى أى كتاب، و لن يكون المتنبى أشعر من الشريف إلا يوم أؤلف عنه كتابا مثل هذا الكتاب! و القول الفصل فى هذه القضية أن المتنبى فى بابه أشعر من الشريف، و الشريف فى بابه أشعر من المتنبى، و كل عبقرىّ هو فى ذاته أعظم الناس لأن ميدانه لا يجاريه فيه أحد سواه، و الشريف بهذا المعنى أفحل الشعراء لأنه جرى فى ميادين سيظل فارسها السبّاق على مدى الاجيال.

و ما الذى يضرّ أنصار المتنبى حين أقدّم عليه الشريف؟

هل فيهم من يحفظ ديوان المتنبى كما أحفظ ديوان المتنبى؟

إن سجلات كلية الآداب بالجامعة المصرية تشهد بأننى كنت أول من دعا إلى الاحتفال بمرور ألف سنة على وفاة المتنبى، ولى على ذلك شهود! منهم الشيخ أحمد السكندرى و الاستاذ عباس محمود و الدكتور منصور فهمى.

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۹

و ما الذى يضر أهل العراق من ان أهتم بشاعر لا يعرف العراقيون موضع قبره على التحقيق؟ أليس من العجائب أن يعرف العراقيون قبر معروف الكرخى و يجهلوا قبر الشريف الرضى؟

إن هذا هو الشاهد على أن العوامّ أحفظ للجميل من الخواصّ! إن كان خصومى فى بغداد دهشوا من أن أتعصب لشاعر رضى عنه ناس و غضب عليه ناس فليذكروا أننى كنت كذلك طول حياتى فوضعت بالنقد قوما و رفعت آخرين، وفقا للحق لا طوعا للأهواء.

و أنا و اللّه راض بأن يغضب علىّ أهل بغداد، فقد غضبوا على أبى طالب المكى فمنحوه الخلود.

أنا أحب الخصومات لأنها تذكى عزيمتى، و من أجل هذا أنظر نظر الجزع على مصير خصوماتى فى بغداد، فلن يكون لى فى بغداد خصوم بعد ظهور هذا الكتاب، و إنه لقادر على أن يفجّر العطف فى القلوب المنحوتة من الجلاميد.

سيذكر ادباء بغداد أننى أحييت شاعرا هو من ثروة العروبة و ثروة العراق، سيذكر أدباء بغداد أننى وفيت لمدينتهم السحرية حين اهتممت بشاعر كان أصدق من عرف النعيم و البؤس فوق ثرى بغداد.

و كتابى هذا تطبيق لما شرعت من قواعد النقد الادبى، القواعد التى اذعتها فى كتاب «الموازنة بين الشعراء» و هو من أجل هذا لون جديد فى اللغة العربية، و سيكون له تأثير شديد فى توجيه الدراسات الادبية، و قد يصلح ما أفسد الزمان من عقول الباحثين.

و بيان ذلك أنى لم أقف من الشاعر الذى أدرسه موقف الاستاذ من

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۰

التلميذ، كما يفعل المتحذلقون، و إنما وقفت منه موقف الصديق من الصديق، و التشابه بينى و بين الشريف الرضى عظيم جدا، و لو خرج من قبره لعانقنى معانقة الشقيق للشقيق، فقد عانى فى حياته ما عانيت فى حياتى: كافح فى سبيل المجد ما كافح و جهله قومه و زمانه، و كافحت فى سبيل المجد ما كافحت و جهلنى قومى و زمانى.

و هذا الترفق فى معاملة الشريف ليس نزوة شخصية، و إنما هو وثبة علمية، فما كان يمكن ان أكون وفيا للبحث إلا إن سايرت الشاعر

الذى أعرض عقله و روحه على تلاميذى، و هذه هى المزية التى انفرد بها بين أساتذة الادب العربى.

سايرت الشريف مسايرة الصديق للصديق: فان آمن آمنت، و إن كفر كفرت، و إن جدّ الشريف جددت، و إن لعب لعبت، إن عقل الشريف عقلت و إن جنّ جننت، إن قال الشريف إن غاية الرجل العظيم هى الحرب قلت صدقت، و إن قال: إن الحياة هى الحب، قلت: و الحب حياة! و لكنى مع هذا عاملته معاملة الصديق الامين فنبهته إلى عيوبه بتلطف و ترفق، نبهته تنبيها دقيقا جدا لا يفطن اليه إلا الاذكياء- و فى بنى آدم اذكياء نبهته إلى عيوبه اكثر من ستين مرة، و ما أظنه يحقد علىّ لأن الصديق الذى فى مثل حالى تغفر له جميع الذنوب.

و الشواهد فى هذا الكتاب كثيرة جدا، و ذلك هو اسلوبى فى البحث فأنا اشغل القارىء بالشاعر الذى أدرسه اكثر مما اشغله بنفسى، و هذه إشارة ارجو ان ينتفع بها المتحذلقون.

اعتمدت على طبعة بيروت و صححت ما صادفنى فيها من اغلاط، و شرحت

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۱

ما يجب شرحه من الاشعار خدمة للقارىء الجاحد الذى لا يفهم قيمة الوقت الذى ينفقه الشارح فى تحديد المعانى، و صححت الكتاب كله بنفسى تصحيحا دقيقا، فان رأى فيه القارىء أغلاطا فذلك ذنب العجلة لا ذنبى، و أدخلت فنونا من الذوق على الطباعة فى بغداد سيذكرها من عاملت من اصحاب المطابع.

بغداد هذا كتابى، أقدمه بيمينى فى تهيّب و استحياء، فان رضيت عنه فذلك لطف و رفق، و إن غضبت عليه فلست أول حسناء تجحد الجميل! اصنعى فى ودادى من التنكر و التقلب ما شاء لك الدلال، أما أنا فأشهد أنك صنعت بقلبى و عقلى ما عجزت عنه القاهرة و باريس.

أنت مظلومة يا بغداد، و انا مظلوم يا بغداد، و الظلم يجمع بين القلوب.

نصرك اللّه و نصرنى، و رعاك و رعانى، إنه سميع مجيب! و عليك منى السلام! ۳۱ آذار سنة ۱۹۳۸ زكى مبارك

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۲

بسم اللّه الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

باسم اللّه الذى أمدّنى بالصبر على مكاره الحياة الأدبية، باسم اللّه الذى حبب إلىّ الأنس بعناء البحث و الدرس فى غفوات الليل، باسم اللّه اقدم الطبعة الثانية من كتاب «عبقرية الشريف الرضى» مصحوبة بزيادات و تحقيقات رجوت بها أن يكون كتابى هو الفيصل فى قضاء حق الشريف.

و هذا الكتاب هو صورة من صور النشاط الذى بذلته حين تشرفت بخدمة العلم و الأدب بدار المعلمين الغالية فى بغداد، و هو عزيز على جدا: لأنه جعل لى مقام صدق فى الأقطار العربية و الإسلامية، و لأنه من كرائم الذكريات التى خلفتها فى ديار الرافدين، و لأن القلم جرى فيه بأسلوب ما أحسبنى سبقت اليه فى شرح اغراض الشعراء، حتى كدت اتوهم أنى طفت بأودية لم تعرفها الملائكة و لا الشياطين! و ما تذكرت عهدى بدار المعلمين العالية فى بغداد إلا ذكرت بالخير تلامذتى و زملائى هناك: فقد كانت أيامى فى صحبتهم من أخصب العهود فى حياتى.

حفظ اللّه عليهم نعمة العافية، و جعلهم من ذخائر الأدب الرفيع! هذا، و قد كان قيل إنى احتفلت بالأسلوب فى هذا الكتاب، و اقول إنى لم أتعمد ذلك، فقد كانت المطابع تأخذ الموادّ ورقة ورقة بحيث لم أستطع مراجعة ما كنت أكتب من أفانين البحوث، و كنت حينذاك اغذّى مطبعتين فى وقت واحد، مع الاشتغال بأصول كتاب «وحى بغداد» و كتاب «ليلى المريضة فى العراق» و كتاب ثالث

سيعلم القراء أنباءه بعد حين، و تلك جهود لا يتسع معها الوقت للزّخرف و التنميق.

و إنما فتن بأسلوبى فى هذا الكتاب من فتن لأنه رآنى اقبس من النار التى

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۳

قبس منها الشريف، و من هنا جاز لأحد الفضلاء أن يقول فى إحدى مجلات بغداد «إن نثر زكى مبارك له روعة تفوق روعة شعر الشريف فى بعض الأحيان» فان صح ذلك القول فهو شاهد على قوة الصلة بينى و بين الشريف، و هو ايضا من علائم التوفيق، فما كان يجوز ان نلقى الشريف إلا بنثر يماثل شعره فى القوة و العذوبة و الصفاء.

أيها الشريف! لقد قضيت حقك و انصفتك، و أيدت مركزك فى عالم الخلود، بلا منّ عليك، و هذا كتابى أقدمه هديّة اليك بمناسبة مرور الف سنة على ميلادك، و انا أحمد اللّه الذى وصل جناحى بوطنك لأحلق فى الجوّ الذى عشت فيه فأرى اسرار قلبك و سرائر روحك، و القاك وجها لوجه بين مدارج الرشد و الغى فى ضمائر «الزّوراء».

و أرجو- ايها الشريف- أن تنسى بعض ما قدمت اليك من إساءة فى هذا الكتاب، فمن واجب الصديق ان ينسى هفوات الصديق، إذا صدرت عن إخلاص للأدب و غيرة على التاريخ.

مصر الجديدة محمد زكى عبد السلام مبارك

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۴

عبقرية الجندى المجهول

أيها السادة:

من طرائف ما اصطلح الناس عليه فى العصر الحديث إقامة ضريح يحج إليه المشغوفون بتقديس البطولة و الأبطال، و هو الذى يسمونه قبر الجندى المجهول، و ذلك القبر يضم عظاما لا يعرف صاحبها على التحقيق، و لكنها فى أذهان الناس رمز التضحية و الاخلاص.

قد يكون ذلك الجندى أشجع الجنود، و قد يكون أجبن الجنود، و لكنه فى جميع حالاته أسعد الأموات، لأن النار المقدسة تظل مشبوبة فوق قبره صباح مساء، و لأن قبره يظل كعبة تقدم إليها أطيب القرابين، من الازهار و الرياحين، فهو إن كان فى حقيقة أمره من أشجع الجنود حمد الطالع السعيد الذى قضى بأن ينال حقه فيكون رمز الوفاء، و إن كان من الضعفاء الجبناء شكر اللّه على ستر حاله فأضافه إلى الشهداء.

و إقامة الضريح للجندى المجهول هى أعظم تعزية لأرواح الأبطال الذين جهلت أقدارهم بعد الموت، فكلهم يرجو أن يكون الصورة التى يتمثلها من يزور قبر الجندى المجهول، و كلهم يرجو أن يكون له حظ من الذكرى و من الدموع يوم يحج الناس إلى ذلك القبر فى المواسم و الأعياد.

و لكن حدثونى، أيها السادة، كيف يكون شعور الروح، روح الجندى المعروف لا المجهول، حين يمر الناس على قبره فلا تلوح لهم من وجهه صورة، و لا يعترضهم من روحه مثال؟

كيف يكون شعور الروح، روح القائد المغوار الذى يمر الناس على قبره فلا يذكرون كيف صارع النوائب و صاول الخطوب؟

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۵

حدثونى كيف يكون شعور ذلك الروح، و كان فى دنياه أرقّ من الزهر، و أقسى من الزمان؟

و لو كان ذلك الروح يعرف أن عظامه دفنت فى أرض موات لهان عليه خطب النسيان! و لكنه يعرف أن عظامه دفنت فى أرض تخرج أطيب الثمرات، و تختال بمن يمشى فوقها من أقطاب الرجال، كيف يكون شعور ذلك الروح فى تلك الأرض: الروح الذى اسمه «الشريف الرضى» فى الوطن الذى اسمه «العراق»؟

و لكن مهلا فلن ينسى الشريف الرضى بعد اليوم، فستنشر ذكراه فى جميع الأقطار العربية، و سيذكر فى أكثر اللغات الاجنبية، و سيحيا شعره على الالسنة و القلوب فيما سيأتى من الأجيال، قد تسألون؟ و كيف تحكم على الشريف الرضى بالخمول و هو جدّ معروف؟

و أجيب بأن الشريف الرضى لقى فى دنيا الأدب أعنف ضروب العقوق: فهو أفحل شاعر عرفته اللغة العربية، و أعظم شاعر تنسم هواء العراق، و مع ذلك سكت عنه النقد الأدبى فلم يؤلف عنه كتاب و لا فصل جيد من كتاب، و لو كان ديوان الشريف الرضى فى لغة الفرنسيس أو الانجليز او الالمان لصنّفت فى شعره مئات المصنفات و أقيمت له عشرات التماثيل:

أليس من العجيب أن يطبع ديوان الشريف الرضى منذ ثلاثين سنة فى وطن غير وطنه، ثم لا يعاد طبعه بعد ذلك الحين.

أليس من العجيب أن لا يعرف قبر الشريف الرضى على التحقيق فيقام له ضريح فى الكاظمية، مع ان مترجميه ينصون على أنه دفن فى كربلاء؟

أليس من العجيب أن يسألنا الاستاذ على الجارم بك المفتش الاول للغة

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۶

العربية بوزارة المعارف المصرية عن المصدر الذى يرجع اليه فى أبيات الشريف:

و لقد وقفت على ديارهمو طلولها بيد البلى نهب

فبكيت حتى ضج من لغبنضوى و لجّ بعذلى الركب

و تلفتت عينى فمذ خفيتعنى الطلول تلفت القلب

و أن يجزم بأنه لم يرها فى ديوان الشريف مع أنها مثبتة فى الديوان و كان ذلك دليلا على أن الشريف منسى لا يعرف ديوانه رجل فى منزلة الجارم و هو شاعر مجيد؟! على أن هذه الأبيات لم يعرفها الادباء إلا لأنها اتصلت بحادثة وجدانية تناقلها المؤلفون، و لو لا ذلك لظلت مطمورة لا يرويها سامر و لا يتمثل بها خطيب.

قد يكون فيكم من ينكر أن يكون الشريف الرضى من الخاملين.

و أنا أيضا أنكر ذلك الخمول.

و لكن حدثونى فى أى ميدان كانت نباهة الشريف عند المؤلفين و الناقدين لقد تكررت الإشارة إلى اسمه عند القدماء من المؤلفين بالعربية، و عند المحدثين من المستشرقين الذين نوهوا باسمه فى اللغات الأوربية.

و لكن كيف وقع ذلك؟ لقد وقع فى معرضين: الأوّل فى التاريخ السياسى حين تحدث المؤرخون عن النضال بين الفاطميين فى مصر و العباسيين فى العراق، فقد حدثوا أن الشريف الرضى قال فى التعريض بحكومة الخليفة القادر باللّه.

ما مقامى على الهوان و عندىمقول صارم و أنف حمىّ

و إباء محلّق بى عن الضّيم كما راغ طائر وحشىّ

أىّ عذر له إلى المجد إن ذلّغلام فى غمده المشرفىّ

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۷ ألبس الذل فى ديار الأعادىو بمصر الخليفة العلوىّ

من أبوه أبى و مولاه مولاى إذا ضامنى البعيد القصىّ

لفّ عرقى بعرقه سيدا الناس جميعا محمد و علىّ

إن ذلى بذلك الجوّ عزو أوامى بذلك النقع ريّ

قد يذل العزيز ما لم يشمّرلانطلاق و قد يضام الأبىّ

إن شرا علىّ إسراع عزمىفى طلاب العلا و حظّى بطىّ

أرتضى بالأذى و لم يقف العزم قصورا و لم تعزّ المطىّ

تاركا أسرتى رجوعا إلى حيث عذيرى قدّ ورعى وبى

كالذى يخبط الظلام و قد أقمر من خلفه النهار المضىّ

و لهذه الابيات قصة أشار اليها ابن أبى الحديد، و لو لا صلتها بالتاريخ السياسى لسكت عنها الكاتبون، و للسبب عينه تحدث المؤرخون عن أبياته فى خطاب القادر باللّه:

عطفا أمير المؤمنين فاننافى دوحة العلياء لا نتفرق

ما بيننا يوم الفخار تفاوتأبدا كلانا فى المعالى معرق

إلا الخلافة ميزتك فانىأنا عاطل منها و أنت مطوّق

أما المعرض الثانى الذى أثير فيه اسم الشريف الرضى فهو الكلام عن صحة النسب، نسب كتاب نهج البلاغة الذى جمع فيه الشريف ما أوثر عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم اللّه وجهه من الخطب و الحكم و العهود، فقد ارتاب بعض الناقدين فى نسب ذلك الكتاب و رجحوا أنه من إنشاء الشريف. و المقام لا يسمح بتحقيق هذه القضية، و قد أشرت اليها فى كتاب النثر الفنى فلا أعود اليها الآن، و إنما يهمنى أن أسجل أن الثورة

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۸

على نهج البلاغة كانت السبب الثانى فى نباهة الشريف، و إنما كانت كذلك لأن الكتاب منسوب إلى على بن ابى طالب، و هو فى جوهره يؤرخ أخطر المعارك القلمية و الخطابية فى العصر الاسلامى، و تصحيحه أو تزييفه يعدّ من المواقف الحاسمة فى ذلك التاريخ.

فتصوروا كيف يكون الحال لو لم تشأ المقادير أن يقرن اسم الشريف الرضى باسم على بن أبى طالب، تصوروا كيف كانت تحمل ذكراه و هو كاتب مبدع لا يعرف التاريخ الادبى له أثرا فى النثر الفنى إلا حين يدّعى أنه المنشىء لتلك الخطب و الحكم و العهود.

كان من حظ الشريف الكاتب أن يقرن اسمه باسم على بن ابى طالب، و إلا فحدثونى أين رسائله الطوال التى كانت تقع فى ثلاث مجلدات؟

تقولون: إن التاريخ تحامل على الشريف بسبب التشيع، إن صح ذلك فحدثونى كيف سكت عنه ادباء مصر و الشام و الحجاز و المغرب و الاندلس و هم لا يعرفون العصبية ضد التشيع؟ بل حدثونى كيف سكت الشيعة أنفسهم عن رسائل ذلك الكاتب البليغ.

تقولون: إن للشريف الرضى قبة تزار بالكاظمية؟

أهلا و سهلا، و لكن هل تعرفون لأى معنى يزور الناس قبته بالكاظمية؟

أعيذكم ان تقولوا إنهم يزورونها باسم الادب و البيان.

إنهم يزورونها لمعنى دينى صرف، كما يزور المصريون قبة عمر بن الفارض، و لو لا ما شاع و ذاع من أن ابن الفارض من الاولياء لما عرف المصريون ان له ضريحا يزار و تلتمس به البركات و هل عرف المصريون قبر ابن هشام الانصارى الذى رفع القاهرة مكانا عليا و جعل هامتها فى النحو مساوية لهامة بغداد؟

هل عرف المصريون قبر ابن خلدون الذى يعدّ أشرف و أعلم من

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۹

درسوا بالازهر الشريف؟

هل عرف المصريون قبر القلقشندى الذى دان اللغة العربية بأفضل كتاب فى تاريخ الإنشاء و هو «صبح الأعشى»؟

هل عرف المصريون قبر النويرى أول مؤلف فى الموسوعات العربية؟

هل عرف المصريون قبر ابن منظور صاحب المعجم الباقى على الزمان، صاحب لسان العرب الذى ألفه و هو جالس على الحصير

الممزق بحى الحسينية؟

و كيف تقولون ان الشريف الرضى خمل بفضل التشيع و هو مذهب له قواعد و أصول، مع أن المجون كان من أسباب شهرة أبى نواس، و مع أن الزندقة كانت من أسباب شهرة أبى العلاء؟

أ فى الحق ان الرجل لا يشتهر إلا إن أصبح على وفاق مع جميع الناس؟

أ فى الحق أن الفضل وحده يسمو بالرجل إلى أرفع الدرجات؟

إن قلتم ذلك فقد تحدثكم شواهد العصر الحاضر بضد ما تقولون، ألسنا فى هذا العصر فرائس للتيارات الاجتماعية و السياسية؟

ما هى الاسباب التى قضت بشهرة محمد عبده و قاسم أمين؟

هل يعرف أحد اليوم ان محمد عبده كان فى حقيقة أمره من العلماء المحققين الذين يدركون أسرار العلوم العقلية و النقلية؟ هيهات، إنه لا يعرف إلا بفضل نضاله الدموى فى إصلاح المناهج الازهرية و الثورة العرابية، و لو رفع هذان الحادثان من حياته لما عرف له تاريخ.

هل يفهم أحد اليوم أن قاسم أمين كان من أقطاب التشريع؟ هيهات هيهات، إنه لا يعرف إلا بفضل ثباته فى الدعوة إلى السفور و حرب الحجاب.

آمنتم الآن بأن الشريف الرضى لم ينل الشهرة إلا بفضل المشكلات السياسية و الدينية، ثم تسألون: و لكن كيف كتب على الشريف الرضى

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۲۰

أن يرزأ فى عالم الشعر بذلك الخمول؟

و نجيب بأن الامر كان كذلك لأن أدباء اللغة العربية ندر عندهم أن يكون الفن وحده هو مرجع النباهة و الشهرة و بعد الصيت: فامرؤ القيس لم تكن شاعريته سبب شهرته، و لو لا انتقاله من أرض إلى أرض و موته مسموما فى سبيل الثأر لابيه لما ذكره الذاكرون، و طرفة بن العبد لم يسر ذكره إلا لموته قتيلا و هو فى سن العشرين، و حسان لم يشتهر إلا لانه كان شاعر الرسول، و الشاعر المفلق أبو نواس لم تكن شاعريته سبب شهرته و إنما اشتهر بفضل اشتراكه و هو راغم فى فتنة الامين و المأمون، و أبو تمام لم يشتهر بفضل شاعريته، و إنما اشتهر لانه سجل فى شعره حادثة رجّت الارض و هى فتح عمّورية، و البحترى لم يشتهر بفضل شعره، و إنما اشتهر لانه حضر مأساة دوّنها التاريخ: و هى شهوده قتل المتوكل و الفتح بن خاقان، و المتنبى لم يكن شعره سبب شهرته، و إنما اشتهر بفضل حادثتين ظاهرتين:

الاولى: رحلته إلى مصر فى سبيل المجد، و الثانية: موته قتيلا بالبيداء.

و لم يتفق للشريف الرضى شىء من ذلك، فقد كان يطلب الخلافة سرا لا علانية، و لو تمّ له ما أراد من الملك لعرف الناس شاعريته و سطروا فى الثناء عليه مئات التآليف، و لكنه مات ميتة عادية، فلم يذكر الناس يوم موته إلا أنه رجل شريف ينبغى أن يدفن بجانب جده الحسين فى كربلاء.

و لست بهذا أتجنّى على أسلافنا من أدباء اللغة العربية، و إنما أذكر حقائق مؤلمة كانت السبب الاصيل فى انحراف الموازين.

فإن لم يكن ذلك صحيحا فحدثونى عن المشهور من قصائد الشريف؟

أليست قصيدته فى رثاء أبى إسحاق الصابى أشهر شعره؟ بلى، هى كذلك، فهل تعرفون أن تلك القصيدة لم تشتهر إلا بفضل ما اتصل بها من

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۲۱

الشذوذ، إذ كانت فى رجل صابىء يرثيه سيد شريف؟

فان تخطيتم هذه القصيدة لم تجدوا من يعرف عيون القصائد فى ديوان ذلكم الشاعر العظيم.

أين من يعرف الدالية:

جرّى النسيم على ماء العناقيدو عللى بالأمانى كل معمود

يا نفحة هزت الأحشاء شائقةفذكّرت نفحات الخرّد الغيد

أين من يعرف العينية:

منابت العشب لا حام و لا راعمضى الردى بطويل الرمح و الباع

أين من يعرف اللامية:

أمل من مثانيها فهذا مقيلهاو هذى مغانى دورهم و طلولها

و لو كان أسلافنا من أدباء اللغة العربية تستهويهم المعانى مجردة عن الحوادث الدامية لوجدوا فى أشعار الشريف أوسع مجال: فسترون عنده كرائم الطيبات، سترون أن ذلك الرجل عانى فى حياته أعنف أزمات الوجدان، سترون كيف كان الرجل يشغل أعظم وظيفة دينية و هى نقابة الأشراف ثم يكون فى الوقت نفسه أعظم شاعر يتغنى بالحب و الجمال، سترون أن الشريف الرضى تفرد بوصف مواسم العيون و القلوب فى الحجازيات، سترون أنه قال فى الصداقة و الأصدقاء ما لم يسبقه اليه سابق، و ما يعسر أن يلحقه فيه لاحق، سترون أن كلمة (العلا) و كلمة (المعالى) لم يهتف بهما خاطر أشرف من ذلك الخاطر، و لم يلهج بهما لسان أفصح من ذلك اللسان، سترون أن العفاف لم يجد شاعرا يجعله أظرف من الفسق و أعذب من المجون غير ذلك الشاعر العفيف الشريف، سترون أن الأحباب الذاهبين لم يجدوا من يبكيهم بأندى من ذلك الدمع و أصدق من ذلك الفؤاد، سترون أن لئام الناس لم توسم جباههم و جنوبهم بميسم أقوى و أعنف من

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۲۲

قصائد ذلك الفاتك الصوال.

سترون أيها السادة أن الشريف الرضى كان شاعر القلب و العقل و الذكاء، سترون شاعر الانسانية يفصح عما تعانى من شهوات و أهواء و آلام و أرزاء، و أمان و آمال.

سترون انه يحس ما تحسون اليوم، و يشعر بما تشعرون، مع أنه سبقكم إلى تنسّم هواء العراق بنحو ألف سنة، و سيظل يشارك الناس فى أحلامهم و أحقادهم آلاف السنين.

أفما كان فى تلك الجوانب النفسية و الذوقية و العقلية ما يلفت أنظار النقاد إلى ذلك الرجل لو كانوا يفهمون أقدار المعانى؟

ألم تكن هموم المجد فى أشعار الشريف الرضى أولى بعناية النقاد من البحث عن شرقات المتنبى؟

أ لم يكن الحرص على تدوين أو ابده فى نقد المجتمع أولى من الحرص على تدوين قصائد ابن الرومى فى شتم الناس؟

ألم يكن فيهم من سمع الشريف و هو يصرخ فيقول:

أنا النّضار الذى يضنّ بهلو قلّبتنى يمين منقد

ألم يكن فيهم من يدفعه التطلع إلى شكواه من طول الليل فى بغداد إذ يقول:

ليلى ببغداد لا أقرّ بهكأننى فيه ناظر الرمد

ينفر نومى كأن مقلتهتشرج أجفانها على ضمد

أما كان فيهم من يسأل كيف ضجر الرجل من أهل بغداد فقال يخاطب الثلج الذى رآه أهلها أول مرة فى شهر ربيع الآخر سنة ۳۹۸.

أقول له و قد أمسى مكباعلى الأقطار يضعف أو يزيد

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۲۳ وراءك فالخواطر باردات‌على الإحسان و الأيدى جمود

و إنك لو تروم مزيد بردعلى برد لأعوزك المزيد

إن النقاد سكتوا عن ضجر الشريف من العراق، و لكنهم لم يسكتوا عن ضجر المتنبى من مصر، لأن ضجر الشريف من العراق لم تشهره الحوادث، أما ضجر المتنبى من مصر فقد صحبته خطوب تحدث بها الركبان، فكأنّ الرواة و النقاد لا يلتفون إلى الشعر إلا أن دقّت من حوله الطبول.

ألا ترونهم يذكرون ما قال بشار فى التعريض بخلفاء بنى أمية و لا يذكرون ما قال الرضى فى التعريض بخلفاء بنى العباس؟

انهم يذكرون أبيات بشار لأنها جرّت عليه القتل، و لا يذكرون أبيات الرضى لأنه خرج منها بعافية، و إلا فأى شعر أخطر من شعره و هو يقول فى التعريض بخلفاء بنى العباس:

أما تحرّك للأقدار نابضةأما يغيّر سلطان و لا ملك

قد هادن الدهر حتى لا قراع لهو أطرق الخطب حتى مابه حرك

كلّ يفوت الرزايا أن يقعن بهأما لأيدى المنايا فيهم درك

قد قصّر الدهر عجزا عن لحاقهمفأين أين ذميل الدهر و الرتك

أخلّت السبعة العليا طرائقها؟أم أخطأت نهجها أم سمّر الفلك؟

لقد غفل النقاد عن المعانى الانسانية و الشخصية فى أشعار الشريف الرضى، و لم يتحدثوا عن عيون القصائد فى ديوان ذلك الشاعر القليل النظائر و الأشباه، فهل ترونهم قيدوا ما فى أشعاره من الحكم و الأمثال؟

هل سمعتم أن أديبا جاد من وقته بأسبوعين أو ثلاثة أسابيع فى الغوص على

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۲۴

ما فى ديوان الشريف من اللؤلؤ المكنون؟

أعيذكم أن تظنوا أن ذلك الشاعر خلا ديوانه من الأبيات النوادر التى تفصح عن بصره بخلائق المجتمع و سرائر الناس، فقد أستطيع أن أجزم بأنه فى هذه الناحية أشعر من المتنبى: لأن المتنبى كان يقصد إلى الحكمة قصدا، و يتعمدها و هو متكلف، أما الرضى فكانت الحكمة تسبق إلى خاطره من فيض السجية و الطبع، فيرسلها عفوا بلا تصنع و لا اعتساف.

ما رأيكم فى هذا البيت:

إذا قلّ مالى قلّ صحبى و إن نمافلى من جميع الناس أهل و مرحب

و هذا البيت:

يغرّ الفتى ما طال من حبل عمرهو ترخى المنايا برهة ثم تجذب

و هذا البيت:

و آمل أن تقى الأيام نفسىو فى جنبى لها ظفر و ناب

و هذا البيت:

تفدى الفتى فى عيشه ألسنو ما له من حتفه فاد

و هذا البيت:

كل حبس يهون عند الليالىبعد حبس الأرواح فى الأجساد

و هذا البيت:

علامة العز أن حسدت بهإن المعالى قرائن الحسد

و هذا البيت:

ينال الفتى من دهره قدر نفسهو تأتى على قدر الرجال المكايد

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۲۵

و هذا البيت:

يعرفك الاخوان كل بنفسهو خير أخ من عرّفتك الشدائد

و هذا البيت:

ليس الغريب الذى تنأى الديار بهإن الغريب قريب غير مودود

و هذا البيت:

ما الفقر عار و إن كشفت عورتهو إنما العار مال غير محمود

و هذا البيت:

إذا بزّنى مالى عطاء تركتهحميدا و طالبت القواضب بالردّ

و هذا البيت:

إذا الشمس غاضت كل عين صحيحةفكيف بها فى هذه المقل الرّمد

و هذا البيت:

كلّ جواد كاذب فى الوعدو كل خلّ خائن فى الودّ

و هذا البيت:

واها لنفس حبست فى جلدىإن الأسير غرض بالقدّ

و هذا البيت:

و عتاب الزمان مثل عتاب العينتنهى و دمعها بازدياد

و هذا البيت:

و ما هذه الدنيا لنا بمطيعةو ليس لخلق من مداراتها بدّ

و هذا البيت:

و المال أهون مطلبا من أن أرىضرعا أرامى دونه و أدارى

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۲۶

و هذا البيت:

نالوا على قدر الرجاء و إنمايروى على قدر الأوام الصادى

و هذا البيت:

ما أنصف الفاسق فى لحظهلما أرانا عفة العابد

و هذا البيت:

كنت أداوى كبدىلو تركوا لى كبدا

و هذا البيت:

و إن حديث النفس بالشىء دونهرمال النّقا من عالج لشديد

و هذا البيت:

وجدوا و ما جادوا و محتقبللوم من أثرى و لم يجد

و هذا البيت:

أما كان فيكم مجمل أو مجامل‌إذا لم يكن فيكم أغرّ جواد

و هذا البيت:

ما مقامى على الجداول أرجوها لنيل و قد رأيت البحارا

و هذا البيت:

إذا قيّد الليل خطو المنى‌مشى النوم فى مقلة الساهر

و هذا البيت:

لحا اللّه دهرا كثير العدوّحتى الظلام يعادى النهارا

و هذا البيت:

و كيف يتمّ فى بلد صلاةو جلّ بقاعه قبل الفجور

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۲۷

و هذا البيت:

و ما فخر العفيف الجسم إن فسقت سرائره

و هذا البيت:

من يعشق العزّ لا يرنو لغانيةفى رونق الصفو ما يغنى عن الكدر

و هذا البيت:

و الليث لا ترهب الأقران طلعتهحتى يصمّم منه الناب و الظّفر

و هذا البيت:

ما كل نسل الفتى تزكوا مغارسهقد يفجع العود بالأوراق و الثمر

و هذا البيت:

كم حاطب خانه حبل فأقعصهذلّا و شرّ الحبال الحية الذكر

و هذا البيت:

سالم تصاريف الزمان فمن يرمحرب الزمان يعد قليل الناصر

و هذا البيت:

لو كان حفظ النفس ينفعناكان الطبيب أحق بالعمر

و هذا البيت:

كلّ يوم نذمّ للدهر عهداخان فيه و نشتكى منه غدرا

و هذا البيت:

إنما المرء كالقضيب تراهيكتسى الأخضر الرطيب ليعرى

و هذا البيت:

إذا تناءت بنا قلوبفلا تدانت بنا ديار

و هذا البيت:

و من قيّد الألفاظ عند نزاعهابقيد النهى أغنته عن طلب العذر

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۲۸

و هذا البيت:

و الحر تنهضه إما شجاعتهإلى الملمّ و إما خشية العار

و هذا البيت:

و هل نافعى يوم أقضى صدّىإذا صاب وادى قومى المطر

و هذا البيت:

و الناس أسد تحامى عن فرائسهاإما عقرت و إما كنت معقورا

و هذا البيت:

و ليس كل ظلام دام غيهبهيسرّ خابطه أن يطلع القمر

و هذا البيت:

ما كل مثمرة تحلو لذائقهاإن السياط لها من مثلها ثمر

و هذا البيت:

و هبك اتقيت السهم من حيث يتقىفمن ليد ترميك من حيث لا تدرى

و هذين البيتين:

يقولون نم فى هدأة الدهر آمنافقلت و من لى أن يهادننى الدهر

هل الحرب إلا ما ترون نقيضةمن العمر أو عدم من المال أو عسر

و هذا البيت:

و هل نافع يوما و جدّك راجلإذا قيل يوم الروع انك فارس

و هذين البيتين:

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۲۹ ان زدتهم فلقد نقصتهمان الزيادة بالشّغا نقص و من المخازى عند لابسها

ما لا توارى الأزر و القمص و هذا البيت:

يقدم الباسل الأبىّ على الحيفو فيه الهوان نكوص

و هذا البيت:

و كيف وفور العرض و المال وافرو من يخزن الأموال ينفق من العرض

و هذا البيت:

و السيف إن مرّ على هامةزوّعها إن هو لم يقطع

و هذا البيت:

ألا ان رمحا لا يصول لنبعةو ان حساما لا يقدّ قطيع

و هذا البيت:

و بعض مقال القائلين مكذبو بعض وداد الاقربين خدوع

و هذا البيت:

ما لبث من يمسى مجازا للردىو معرّج القدر المغذّ المسرع

و هذا البيت:

رأى بارقا لم يرونى و هو حاضرفكيف أرجّى ريّه و هو شاسع

و هذين البيتين:

الناس حولك غربان على جيفبله عن المجد إن طاروا و إن وقعوا

فما لنا فيهم ان أقبلوا طمعو لا عليهم إذا ما أدبروا جزع

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۳۰

و هذين البيتين:

يقولون ماش الدهر من حيث ما مشىفكيف بماش يستقيم و أظلع

و ما واثق بالدهر إلا كراقدعلى فضل ثوب الظل و الظل يسرع

و هذا البيت:

لقد عاف أمواله من يجودو قد طلّق النفس من يشجع

و هذا البيت:

بالجدّ لا بالمساعى يبلغ الشرفتمشى الجدود بأقوام و إن وقفوا

و هذا البيت:

و من يشرب بصاف غير رنقيرد يوما برنق غير صافى

و هذا البيت:

كأن الليالى كن آلين حلفةبأن لا يرى فيهن شمل مؤلّف

و هذا البيت:

كيف يرجو الكثير من راضه الشوقإلى ان رضى ببذل الطفيف

و هذا البيت:

و ضيوف الهموم مذكنّ لاينزلن إلا على العظيم الشريف

و هذا البيت:

و الحظوظ البلهاء من ذى الليالىأنكحت بنت عامر من ثقيف

و هذا البيت:

إنما نلبس الدروع ثقالالرجوع إلى خفاف الشفوف

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۳۱

و هذا البيت:

إذا أنت فتشت القلوب وجدتهاقلوب الاعادى فى جسوم الاصادق

و هذا البيت:

و ما جمعى الأموال إلا غنيمةلمن عاش بعدى و اتهام لرازقى

و هذا البيت:

كم لسان دنا إليك بقلب منافق و هذا البيت:

و لا دار إلا سوف يجلى قطينهاعلى نعق غربان الخطوب النواعق

و هذا البيت:

و ما العيش إلا غمهٔ و ارتياحهٔو مفترق بعد الدنوّ و ملتقى

و هذا البيت:

أراك تجزع للقوم الذين مضوافهل أمنت على القوم الذين بقوا

و هذا البيت:

و إذا الحليم رمى بسر صديقهعمدا فأولى بالوداد الأحمق

و هذا البيت:

كفى بقوم هجاء أن مادحهميهدى الثناء إلى أعراضهم فرقا

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۳۲

و هذا البيت:

سابق فليس تنال أغراض المنى إلا سباقا و هذا البيت:

و ليس ينال الامر إلا بحازممن القوم أحمى ميسما ثم ألصقا

و هذا البيت:

و لا تزرعوا شوك القتاد فانكمجديرون أن تدموا به و تشاكوا

و هذا البيت:

أبتغى عدل زمان قاسط إنما الناس على دين الملك

و هذا البيت:

و للنفس من عجز الفتى و زماعهزمام إلى ما يشتهى و عقال

و هذا البيت:

و لا تسمعن من حاسد ما يقولهفأكثر أقوال العداهٔ محال

و هذا البيت:

و ليس يأتلف الإحسان فى ملكحتى يؤلّف بين القول و العمل

و هذا البيت:

كل حبيب أبداأيامه قلائل

و هذا البيت:

و من دواء الداء إنما طل كىّ عاجل

و هذا البيت:

و ما طلب البذل من باخلبميسوره غير داء عضال

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۳۳

و هذا البيت:

و إن طراد النفس عما ترومهأشدّ عناء من طراد قبيل

و هذا البيت:

و أول لؤم المرء لؤم أصولهو أول غدر المرء غدر خليل

و هذا البيت:

ألا إنما الدنيا إذا ما نظرتهابقلبك أمّ للبنين أكول

و هذا البيت:

و إنى رأيت غنىّ الانامإذا لم يكن ذا علاء مقلّا

و هذا البيت:

النفس أدنى عدوّ أنت حاذرهو القلب أعظم ما يبلى به الرجل

و هذه الأبيات:

عادة الزمان فى كل يومبتناءى خل و تبكى طلول

فالليالى عون عليك مع البين كما ساعد الذوابل طول

هى دنيا إن واصلت ذا جفت هذاملالا كأنها عطبول

كلّ باك يبكى عليه و أن طال بقاء و الثاكل المثكول

و هذا البيت:

نؤمل أن نروى من العيش و الردىشروب لأعمار الرجال أكول

و هذا البيت:

و موت الفتى خير له من حياتهإذا جاور الأيام و هو ذليل

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۳۴

و هذا البيت:

و من مات لم يعلم و قد عانق الثرىبكاه خليل أم سلاه خليل

و هذا البيت:

نغالب ثم تغلبنا الليالىو كم يبقى الرمىّ على النبال

و هذا البيت:

سلّى عن العيش أنّا لا ندوم لهو هوّن الموت ما نلقى من العلل

و هذا البيت:

هل نافع نفسك أذللتهاكرامة البيت و عزّ القبيل

و هذا البيت:

و سيان عندى من طوانى على جوىيعذّب قلبى أو طوانى على دخل

و هذا البيت:

و كل فتى لا يطلب المجد أعزلو كل عزيز لا يجود ذليل

و هذا البيت:

و ما المكرهون السمهرية فى الطلىبأشجع ممن يكره المال فى البذل

و هذه الأبيات:

اشتر العزّ بما بيع فما العزّ بغال بالقصار الصّفر إن شئ

ت أو السّمر الطوال ليس بالمغبون عقلامن شرى عزا بمال إنما يدّخر الما

ل لحاجات الرجال و الفتى من جعل الأموال أثمان المعالى

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۳۵

و هذا البيت:

إذا ما نفع الجهل‌فان الضائر العقل

و هذا البيت:

و ما شرر تطاوح عن زنادبمفتقد إذا بقى الضرام

و هذا البيت:

و كيف نوم المرء من تحته‌دون الكرى مضطرب الارقم

و هذا البيت:

إذا العضو لم يؤلمك إلا قطعته‌على مضض لم تبق لحما و لا دما

و هذا البيت:

كالغيث يخلفه الربيع و بعضهم‌كالنار يخلفها الرماد المظلم

و هذا البيت:

هبّوا فقد تتيقظالأجداد للقوم النيام

و هذا البيت:

ما الذنب للمزن جازتنى مواطره‌و إنما الذنب للأرزاق و القسم

و هذا البيت:

إن من خاضت النواظر فيه‌لحر أن تخوضه الأقدام

و هذا البيت:

و ما الليث الا من يدلّ بنفسه‌و يمضى اذا ما بادهته العظائم

و هذا البيت:

لا تصفحنّ عن المليم اذا جنى‌و اذا المضارب أمكنتك فصمّم

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۳۶

و هذا البيت:

لا يذخر الضيغم من قوته‌ما يذخر النمل من المطعم

و هذا البيت:

قد يبلغ الرجل الجبان بماله‌ما ليس يبلغه الشجاع المعدم

و هذا البيت:

قد يقدع المرء و ان كان ابن عمّ‌و يقطع العضو الكريم للألم

و هذا البيت:

و ما كل ليث يغنم القوم زاده‌اذا خفقت تحت الظلام الضراغم

و هذا البيت:

اذا العدوّ عصانى خاف حدّ يدى‌و عرضه آمن من هاجرات فمى

و هذا البيت:

و لو أمن الجبان من المنايالأغمد سيفه البطل المحامى

و هذا البيت:

من أضمر الصد عمن ليس يضمرهبغيا مشى فى نواحى سره الندم

و هذا البيت:

و غير بعيد منك ناء تزورهو غير قريب قاطن لا تؤمّه

و هذا البيت:

أضعت الهوى حفظا لحزمى و إنمايصان الهوى فى قلب من ضاع حزمه

و هذا البيت:

تشفّ خلال المرء لى قبل نطقهو قبل سؤالى عنه فى القوم ما اسمه

و هذا البيت:

و لا تيأسن من عفو حرّ فإنماتحلمه باق اذا ضاع حلمه

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۳۷

و هذا البيت:

فلا عار أن تستنجد الكأس راحةأضرّ بها حمل الجزار المصمّم

و هذا البيت:

تمضى الزمان و لا نحس كأنهريح تمر و لا يشمّ نسيمها

و هذا البيت:

كم ذاهب أبكى النواظر مدةو مضى و طاب لمقلة تهويمها

و هذا البيت:

و نلقى قبل لقيان المنايارماح الداء تطعن فى الجسوم

و هذا البيت:

فليت كريم قوم نال عرضىو لم يدنس بحمد من لئيم

و هذا البيت:

تملى المقادير أعمارا و ننسخهاو يضرب الدهر أياما بأيام

و هذا البيت:

نصف عيش المرء نوم و الذىيعقل العاقل منه كالحلم

و هذين البيتين:

و الحرّ من حذر الهوان يزايل الأمر الجسيما

و الضيم أروح منه مطرورالظّبا بلغ الصميما

و هذا البيت:

و خاطر على الجلّى خطار ابن حرةو إن زاحم الأمر العظيم فزاحم

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۳۸

و هذا البيت:

لا تصحبنّ دهرك إلا خائفافراق إلف و نبوّا عن وطن

و هذين البيتين:

و منظر كان بالسّراء يضحكنىيا قرب ما عاد بالضراء يبكينى

هيهات أغتر بالسلطان ثانيةقد ضل ولّاج أبواب السلاطين

و هذا البيت:

لا تأمننّ عدوا لان جانبهخشونة الصّل عقبى ذلك اللين

و هذا البيت:

لا تخلدنّ إلى أرض تهون بهابالدار دار و بالجيران جيران

و هذا البيت:

إذا الفتى كان فى أفعاله شوهلم يغن أن قيل إن الوجه حسان

و هذا البيت:

يا قوم إن طويل الحلم مفسدةو ربما ضرّ إبقاء و إحسان

و هذا البيت:

ما ينفع الماضين أن بقيت لهمخطط معمّرة بعمر فان

و هذا البيت:

و ما خير عين خبا نورهاو يمنى يد جذّ منها البنان

و هذا البيت:

و ما كل أصل كريم العروق تأبى على الغمز عيدانه

و هذا البيت:

إذا منزل راب سكانهمن الأرض حرّم إيطانه

و هذا البيت:

و ما الحب إلا فرقة بعد ألفةو إلا حذار بعد طول أمان

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۳۹

و هذا البيت:

إذا المرء لم يحفظ ذماما لقومهفأحج به أن لا يفى بضمان

و هذا البيت:

تعرّفنى بأنفسها الليالىو آنف أن أعرفها مكانى

و هذه الأبيات:

فكم صاحب تدمى علىّ بنانهو يظهر أن العز لثم بنانى

يضم حشا البغضاء عند تغيّبىو يجلو جبين الود حين يرانى

مسحت بحلمى ضغنه عن جنانهفلما أبى مسّحته بسنانى

سبقت برميى قلبه فأصبتهو لو لم أصبه عاجلا لرمانى

و هذين البيتين:

أشكو النوائب ثم أشكر فعلهالعظيم ما ألقى من الخلّان

و إذا أمنت من الزمان فلا تكنإلا على حذر من الإخوان

و هذا البيت:

و ما تنفع المرء الشّمال وحيدةإذا فارقتها بالمنون يمين

و هذا البيت:

وسعت أيامى و لم تسعنىأفضل عنها و تضيق عنى

و هذا البيت:

و ليس على زهر الكواكب سبّةإذا غضّ من أنوارها زبرقانها

و هذا البيت:

أكرر فى الإخوان عينا صحيحةعلى أعين مرضى من الشّنئان

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۴۰

و هذا البيت:

لا تجعلنّ دليل المرء صورتهكم مخبر سمج عن منظر حسن

و هذا البيت:

و ربّ وفاح الوجه يحمل كفّهأنامل لم يعرق بهنّ عنان

و هذين البيتين:

و شرّ الأذى ما جاء من غير حسبةو كيد المبادى دون كيد المداهن

و إنّ بلوغ الخوف من قلب خائفلدون بلوغ الخوف من قلب آمن

و هذين البيتين:

قصور الجد مع طول المساعىو قول الناس لم ينجح فلان

أحبّ إلىّ من سعى هجينو إن بلغ العلا جد هجان

و هذين البيتين:

و من عجب صدود الحظ عناإلى المتعممين على الخزايا

أسفّ بمن يطير الى المعالىو طار بمن يسفّ الى الدنايا

و هذين البيتين:

و تفرّق البعداء بعد مودةصعب فكيف تفرّق القرباء

و خلائق الدنيا خلائق مومسللمنع آونة و للأعطاء

و هذا البيت:

اذا ما الحرّ أجدب فى زمانفعفته له زاد و ماء

و هذا البيت:

هيهات يا دنيا و برقك صادقأرجو، فكيف اذا و برقك كاذب

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۴۱

و هذا البيت:

و أعظم ما ألاقى أن دهرى يعدّ محاسنى لى من ذنوبى

و هذا البيت:

و للحلم أوقات و للجهل مثلهاو لكن أوقاتى الى الحلم أقرب

و هذين البيتين:

تجاذبنى يد الأيام نفسىو يوشك أن يكون لها الغلاب

و تغدر بى الاقارب و الادانىفلا عجب اذا غدر الصّحاب

و هذين البيتين:

فمالى طول الدهر أمشى كأننىلفضلى فى هذا الزمان غريب

اذا قلت قد علقت كفى بصاحبتعود عواد بيننا و خطوب

فما رأيكم فيما سمعتم يا أدباء بغداد! ألا ترون أن الثروة الشعرية كانت خليقة بعناية الدارسين و الناقدين؟ ألا ترون أن الشريف كان أهلا لأن يتعقبه أحد النقاد فيدرس ما فى شعره من الحكم و الامثال ثم يبين ما فيها من المبتكر و المنقول؟ أما كان أهلا لان يشغل به النقاد فيقولون انه ابتكر كيت أو سرق زيت؟

لقد رأيناهم يتعقبون المتنبى فيردون حكمه و أمثاله الى الادب المأثور عن قدماء اليونان فما بالهم سكتوا عن الرضى ذلك السكوت؟ أتريدون الحق أيها الادباء؟ الحق ان النقاد شغلوا أنفسهم بالمتنبى طاعة لبعض الرؤساء، و لم يشغلوا انفسهم به حبا فى الوقوف على اصائل المعانى. ان حقد الصاحب بن عباد على المتنبى هو الذى وجّه الشعراء إلى نقد شعره، و كان ذلك النقد على ما فيه من ظلام الهوى و الغرض أساس الشهرة التى تمتع بها المتنبى فى الحياة و بعد الممات، و لو لا التحامل على المتنبى

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۴۲

فى الحياة و بعد الممات، و لو لا التحامل على المتنبى لما وجد له أنصار يرفعون اسمه فوق الاسماء.

و قد حرم الشريف الرضى أسباب الشهرة من هذه الناحية، فقد حمله التجمل و التعفف على هجر ابواب الملوك و الوزراء، فلم يكن يمدح حين يمدح الا عن حب او مداراة، و لم يره أحد يزاحم الشعراء و الادباء على أبواب السلاطين فكان من أثر ذلك أن قلّ حاسدوه و الحاقدون عليه، فلم يشق فى ثلبه قلم و لا لسان، و لم يكن الادب فى تلك العصور يعرف الحياة الا بفضل المماراة و الضجيج.

أ فلا ترون معى أيها السادة، أن الادب كان حظه حظ التاريخ لا لا يرفع فيه علم الا بفضل الدماء؟

لقد ولى مصر فى العهد الاسلامى كثير من المتحكمين، و كان كافور أقربهم الى الاذهان لانه أزال الغشاوة عن أمانى المتنبى، و تولى الوزارة فى بغداد كثير من الرجال، و كان أقربهم الى الاذهان اقطاب البرامكة لان سلطانهم ختم بالفجائع.

فيا ليت شعرى متى يجىء العهد الذهبى الذى تسمو فيه الآراء بفضل ما فيها من قوة الصدق، لا بفضل من يحرسها من الجنود.

ان هذه البلية لا تزال تسيطر على العقول و الأذواق، ففى عصرنا الحاضر نجد لأهل الأدب وسائل و أساليب لا تعرف المنطق و لا العدل، و تلك الوسائل و الاساليب ستصنع فى الادب الحديث أمثال ما صنعت الاساليب القديمة فى الادب القديم، و قد شكا النقاد فى فرنسا هذه البلية،

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۴۳

إذ تبين لهم أن الكتاب و النقاد انقسموا إلى جماعات تتقارض التلطف و الثناء، و هم يسمّون ذلك بالكمارادرىCamaraderie و تلك الكمارادرى معروفة فى مصر و لعلها أيضا معروفة فى الشام و العراق.

و قد شكوت هذه البلية، و اتفق لى أن أكون من ضحاياها فى كثير من الأحيان، و ما شكوته أنا شكاه سواى، فالنقاد اليوم يعرفون

أصدقاءهم قبل سائر الناس، و الجرائد و المجلات قد تعامل الكتاب و الشعراء و المؤلفين وفقا لصلاتهم بمختلف الاحزاب.

أما بعد فقد بينت لكم بعض الاسباب التى قضت على الشريف الرضى بالخمول، فهل تحبون أن أحدثكم كيف عرفت ذلك الشاعر العظيم؟

لا تظنوا أنى تلقيت الاعجاب به عن الاساتذة و الادباء، فقد كان أهل الأدب فى عهد حداثتى لا يختلفون إلا حول أبى تمام و البحترى و المتنبى من بين القدماء، و شوقى و حافظ من المحدثين، ثم اتفق ان شرعت فى سنة ۱۹۱۷ أؤلف كتاب «مدامع العشاق» فحملنى ذلك على استقراء المأثور من الشعر الوجدانى فى مختلف العصور، و كانت فرصة ذهبية عرفت فيها الشريف الرضى شاعر القلب و الوجدان.

و منذ ذلك اليوم و أنا أحدث الناس عن القائد المعروف لا الجندى المجهول، حتى أصبح له فى مصر أشياع يقدمونه على سائر الشعراء، و أصبحتم تسمعون رنين شعره من حنجرة «أم كلثوم».

و ها نحن أولاء نعود فندعو أهل بغداد إلى إحياء ذكراه، ها نحن أولاء نعود فنتحدث عنه فى المدينة السحرية التى عرف فيها كيف تندى عبقرية الشريف الرضى ؛ ج ۱ ؛ ص۴۴

عبقرية الشريف الرضى، ج ۱، ص: ۴۴

الأزهار، و كيف تقعقع الرعود، و كيف تصطخب القلوب ها نحن أولاء نتحدث عنه فى خشوع و قنوت، كما يتحدث المؤمن و هو فى حرم المحراب.

فيا أيها الشريف: أنا فى وطنك و فى ضيافتك، فارفع الحجب عن أسرار قلبك و سرائر عبقريتك، فبى إلى فهم روحك ظمأ لا ترويه دجلة، و لا يرويه النيل. و سلام عليك بين المصطفين الابرار من أقطاب الشعراء ...

عبقرية الشريف الرضى، ج ۱، ص: ۴۵

الشاعر المثقف

أيها السادة:

حديث الليلة عن ثقافة الشريف الرضى و بصره بالبلاغة و إحساسه قوة الكلام البليغ.

و لا يمكن تصور هذا الجانب من حياة الشريف إلا بتصور ما كانت عليه الحياة العقلية فى القرن الرابع، ذلك العهد الذى رأى كيف تتصاول العقول، و كيف تصطرع الأقلام، و كيف يكون الحول و الطول مقرونين بسلاح المنطق و براعة البيان.

ففى ذلك العصر عرفت اللغة العربية نهضة أدبية لا- تزال تسيطر على الأقلام و العقول إلى اليوم، فى ذلك العصر نبغ أبو الحسن الجرجانى صاحب الوساطة بين المتنبى و خصومه. و فى ذلك العصر نبغ أبو بكر الباقلّانى صاحب إعجاز القرآن. و فيه نبغ أبو القاسم الآمدى صاحب الموازنة بين الطائيين أبى تمام و البحترى. و فيه ظهر أبو على الحاتمى الذى سنّ المذاهب للهجوم على المتنبى. و فيه تفجرت فصاحة أبى هلال العسكرى صاحب الصناعتين.

و فى ذلك العصر ظهر إخوان الصفاء الذين دانوا اللغة العربية برسائلهم العميقة التى وعت معارف العرب و الفرس و اليونان. و فيه نبغ أبو حيان التوحيدى و ابن مسكويه. و فيه عرف النثر الفنى أقطابا عظاما لا يزالون أعلام الفصاحة و فرسان البيان، و كيف تنسى لغة العرب آثار ابن العميد و ابن عباد و الهمذانى و الخوارزمى و التنوخى و ابن و شمكير و ابن شهيد.

عبقرية الشريف الرضى، ج ۱، ص: ۴۶

و من هذه الإشارات ترون القرن الرابع تميز بمزايا ثلاث: النقد الادبى و الجدل العقلى، و النثر الفنى، و هى مزايا كانت تفترق ما شاء لها الزمن الجائر، فيرى بعضها فى الشام، و بعضها فى مصر، و بعضها فى الاندلس، و لكنها كانت تجتمع فى بغداد، و كانت بغداد

وطن الشريف كما تعلمون.

و صورة بغداد فى القرن الرابع تتمثل فى قول الصاحب بن عباد فى خطابه إلى ابن العميد: «بغداد فى البلاد، كالاستاذ فى العباد» و تتمثل ايضا فى الجزع على فراقها، الجزع الذى أحسه أبو العلاء و أبو العلاء كما تعرفون كان يرى الدنيا بأذنيه لا بعينيه، فلما قدم بغداد رأت أذناه ما لم ترياه من قبل، و صارت المجالس و المساجد هى الزهر و الماء فى إحساس ذلك الأديب الفيلسوف.

و من ثقافة القرن الرابع و معارف بغداد تكونت عقلية أبى العلاء الذى دان الأدب برسالة الغفران و بقصائده اللزوميات.

و قد شاءت الظروف أن يعيش الشريف الرضى فى القرن الرابع، و بعقل القرن الرابع، و شاءت الظروف أيضا أن يكون من أسرة لها فى العلم و الأدب ماض جميل، بل و شاءت الظروف أن يكون له أخ من الأئمة فى العلوم العقلية و النقلية، ثم قضت بأن يكون الشريف الرضى نقيب الاشراف فى زمن لم يكن فيه للاشراف عرش و لا تاج، و إنما كان لهم مجد العلم و الادب و البيان.

و قد وفى الشريف الرضى لعصره و اسرته أصدق الوفاء، فأقبل على الحياة العلمية و الأدبية إقبال الرجال، و شارك فى التأليف مشاركة الفحول، فألف كتاب «حقائق التأويل فى متشابه التنزيل» و كتاب:

«مجازات الآثار النبوية» و كتاب: «تلخيص البيان عن مجازات القرآن»

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۴۷

و كتاب: «الخصائص» و «أخبار قضاة بغداد».

و ما أزعم أنى اطلعت على جميع هذه المؤلفات، فقد ضاع أكثرها مع الأسف، و إنما اطلعت على مجازات الآثار النبوية، و هو كتاب ممتع، يمثل ثقافة الشريف أصدق تمثيل، و يدل على بصره باللغة و الادب و مذاهب البيان.

و لم تكن ثقافة الشريف مقصورة على الجوانب الجافية التى وقف عندها بعض الاعلام فى ذلك الزمان، و إنما رق الشريف و ظرف، فمشى به ذوقه اللطيف إلى دراسة شعر ابن حجاج أظرف شعراء القرن الرابع و أبرعهم فى وصف اللهو و المجون، و قد تخير الشريف طائفة من شعره سماها: (الحسن من شعر الحسين) و لعله بهذه التسمية كان صاحب الفضل على أبى العلاء الذى سمى كتابه عن المتنبى: (معجز أحمد) و كتابه عن البحترى: (عبث الوليد) و كتابه عن أبى تمام: (ذكرى حبيب).

و لم تكن ثقافة الشريف موقوفة على ما وعت الكتب و المصنفات، و إنما امتد بصره فدرس الدنيا و خبر الناس، و ساقه إلى ذلك أسباب خطيرة ترجع فى جملتها إلى اثنتين: الاول تطلعه إلى الخلافة و حرصه على الاتصال بأقطاب الزعماء فى الحواضر الاسلامية، و الثانى تشوفه الى ما أجنّ الوجود من غرائب الصباحة، و عجائب الجمال، و سترون فى الليالى المقبلات كيف كان الشريف يعيش موزّع القلب و العقل بين الحب و بين المجد، و كيف كان فريسة للدسائس فى عالم المجد و عالم الوجدان.

فالشريف الرضى أيها السادة عاش شعره كله، كما يعبر الفرنسيون، و هو لم يصف أزمات الحياة كما يفعل اللاهون و العابثون، و إنما وصف حياة رآها بعينيه، و أحسها بقلبه، و ذاق من شهدها و صابها ما يذوق أحرار الرجال.

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۴۸

و نحن بهذه الاحكام لا نتعصب لشاعر أحببناه، و إنما نطوف حول نفس روحانية لم يعرف نظيرها العلم، و لم يشهد مثيلها الخيال.

نطوف حول نفس مظلومة مهيضة كافحت فى الحياة اصدق كفاح، و ناضلت فى سبيل المجد أشرف نضال.

لقد كان الناس نى عهد الشريف يتفقهون ليعيشوا، اما هو فكان يتفقه ليسود.

كان الشعراء فى عهد الشريف ينظمون الشعر ليحظوا بأعطيات الخلفاء، أما هو فكان ينظم الشعر ليزلزل الرواسى من عروش الخلفاء.

كان الشعراء يتغزلون لاهين لاعبين، أما الشريف فكان له فى كل أرض صبابة، و كان له فى كل بقعة غرام ما حق مبيد.

و كان ذلك مزاجا بين طغيان العقل و عدوان القلب، كان مزاجا بين العقل المثقف و القلب الحساس.

و جملة القول ان الرضى لم يكن من طراز شعراء الجاهلية، الشعراء العوام الذين لم يعرفوا غير ما كان يعرف سكان البيداء، و لم يكن

من طراز شعراء العصر الاموى الذين وقفوا عند المعارف الجاهلية بعد أن أنارتها بعض المعارف الدينية، و لم يكن من طراز الشعراء الذين شهدوا صباح العصر العباسى، اولئك الشعراء الذين وقفوا عند عربدة الكؤوس الكؤوس، و لم يعرفوا الخلفاء إلا فى طلب الرزق الحرام او الحلال، و إنما كان شاعرا مثقفا يدرك تمام الادراك كيف تصطرع العقول و المذاهب و الاهواء، و يفهم ان الدنيا فى عصره نهب مقسّم بين الديلم و أحفاد بنى العباس، و يتمنى لو أقام على شواطىء دجلة حاضرة تساوى الحاضرة التى اقامها الفاطميون على شواطىء النيل.

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۴۹

فالشريف الرضى كان يرى الدنيا بعين الرجل المثقف، المثقف الشريف لا المثقف الصّعلوك، و كانت أحاسيسه فى دنياه لا تقدّر بالاوهام، و إنما كان ينصب لها دقيق الموازين، و يسعى فى تحقيقها سعى الفحول.

كان الشريف فى حرب شعواء بين القلب و العقل، و كان يطمح فى أن يجمع لنفسه جميع أقطار المجد، فيكون من أئمة الفقهاء، و أقطاب الشعراء، و أعيان الخلفاء.

و قد ضاعت أمانيه ضياع الزهر فى الوادى الجديب، و لم يبق منها الإمامة فى الشعر و البيان.

أيها السادة:

قد تقولون: و أين الشواهد على بصره بالمذاهب اللغوية و الادبية؟

إن قلتم ذلك فنحن نحدثكم عن فهمه لأصول الكلام البليغ، و حجتنا فى ذلك ما وصف به شعره و ما تحدث به عن البلاغة و هو يتحدث عن اللغويين و الشعراء.

و أول ما ننص عليه: إحساس الشريف بالصلة بين المعانى و بين الأوزان، يدل على ذلك ما جاء فى ص ۹۴۵ من الديوان، فقد أرسل اليه أبو إسحاق الصابى قصيدة مدح نثبت منها هذا المطلع:

أبا كلّ شىء قيل فى وصفه حسنإلى ذاك ينحو من كناك أبا الحسن

قال جامع الديوان: «فأجابه عن هذه القصيدة و جعل الجواب على رويّها دون وزنها، لأن ذلك الوزن المقيد لا يجىء فى الكلام إلا مقلقلا و لا النظم إلا مختلّا».

فالشريف كان يشعر بالصلة بين الوزن و بين المعنى، و هذا الاتجاه كان

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۵۰

معروفا عند أدباء القرن الرابع، فقد حدثنا الصاحب بن عباد انه لم يجد فيمن صحبهم من الادباء من يفهم الشعر كما كان يفهمه أبو الفضل ابن العميد «فإنه كان يتجاوز نقد الأبيات إلى نقد الحروف و الكلمات، و لا يرضى بتهذيب المعنى حتى يطالب بتخير الوزن و القافية» و حدثنا ان ابن العميد كان يقول «إن أكثر الشعراء ليس يدرون كيف يجب ان يوضع الشعر و يبتدأ النسج لأن حق الشاعر أن يتأمل الغرض الذى قصده، و المعنى الذى اعتمده، و ينظر فى أى الاوزان يكون أحسن استمرارا و مع أى القوافى يحصل أجمل إطراد» فما كان ابن العميد يراه من الوجهة النظرية كان الشريف يحققه من الوجهة العملية، و ما كان الشريف شاعرا فحسب، و إنما كان كذلك من أقطاب الناقدين.

و يتصل بهذا حرصه على تحبير القصائد، و قد كان ذلك الحرص يوقعه أحيانا فى المضحكات، فقد احتفل بنظم قصيدة يهنىء بها أخاه المرتضى بمولود، و لكن شاء الحظ أن تلد امرأة أخيه بنتا، فصرف القصيدة إلى غيره من الاصدقاء. و قد وقع له هذا الحادث المضحك مرتين .

و قيمة هذا الشاهد ترجع إلى دلالته على احتفال الشريف بقرض القصائد، فقد كان يتخير المناسبات و يستعد لها أتم استعداد.

و هناك وجه آخر من وجوه البصر بالتاريخ الادبى، فقد تفرد بميزة لم نجدها إلا قليلا عند غيره من الشعراء، و تلك عنايته بتاريخ

قصائده، فهو الشاعر الوحيد الذى نجد جميع قصائده مؤرخة من بين سائر القدماء، و لهذا التاريخ نفع من وجهتين: فهو أو لا شاهد على شعور الشريف بأن

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۵۱

البلاغة من المواد الوصفية فى حياة المجتمع، و انها لذلك خليقة بالتاريخ و هو ثانيا يسعف من يهمهم ان يعرفوا كيف تطورت عقلية الشاعر من حال إلى حال.

و لقد تظنون أن هذا العمل النافع قام به جامع الديوان، و لم يقم به الشريف و نجيب بأن ديوان الشريف رتّب بعنايته و هو حيّ، و قد طلبت منه «تقية» بنت سيف الدولة نسخة و هى بمصر، و طلبه كذلك الصاحب بن عباد، و لا يطلب الديوان إلا و هو عند صاحبه حاضر عتيد.

و قد كان الشريف ينظر إلى الشعر نظر الفنّان، فنراه يقول فى وصف قصائده الجياد:

منتصبات كالقنا لا ترىعيّا من القول و لا أفنا

لا يفضل المعنى على لفظهشيئا و لا اللفظ على المعنى

فمثل الشريف فى نظم شعره مثل الصيدلى البارع الذى يحسن تركيب الدواء، فهو شخص مسئول يركّب الدواء بمقادير معينة محددة يؤخذ بعضها بالقطارة و بعضها بالميزان، و هو يعلم ان الدواء لو نقص منه جزء أو زيد عليه جزء لأصبح ضارّا أو غير مفيد و كان يشعر بأن اهم عناصر البلاغة قوة الذاتية، نعرف ذلك من كلامه فى تجريح من يسرقون شعره و ينتحلونه فى بعض البلاد، فقد هددهم بالفضيحة و أعلنهم ان شعره سينمّ عليه و سيبوؤن بالخيبة و الاخفاق، و ذلك إذ يقول:

ألا من عذيرى من رجال تواعدوالحربى من رامى عقوق و رامح

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۵۲ و غرهم منى اصطبار على الأذىو قد يكظم المرء الأذى غير صافح

فما الجارم الجانى عقوق بسالمو لا الماطل اللّاوى ديونى برابح

أغار على ذود من الشعر آمنتقادم عندى من نتاج القرائح

فياليتهم أدّوه فى الحىّ خالصاو لم يخلطوه بالرذايا الطلائح

و إنك لو موّهت كل هجينة على ناظر ما عدّدت فى الصرائح

أرى كل يوم و العجائب جمةعلى وبر الجربى وسوم الصحائح

إذا طاردوها خالفت برقابهارجوعا إلى أوطانها و المسارح

و إن أوردوها غير مائى حايدتحياد عيوف ينكر الماء قامح

إذا انجفلت فى غارة بتّ ناظراًأراقب منها روحة فى الروائح

كأن بنى غبراء اذ ينهبونهاأحالوا على مال بذى الدوح سارح

يرجّون منها و الأمانىّ ضلةرجاء نتاج الحمل من غير لاقح

أباغث أضرتها السفاهة فاغتدتتخطّف هذا القول خطف الجوارح

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۵۳ هبوها اليكم من يدىّ منيحةلقد آن يا للقوم ردّ المنائح

دعوا و ردماء لستم من حلاله و حلوا الروابى قبل سيل الاباطح

و لا تستهبّوا العاصفات و أصلكمنجيل رمت فيه الليالى بقادح

فما أنتم من مالىء ذلك الحباو لا فيكم أكفاء تلك المناكح

و لم تحسنوا رعى السوامخ قبلهافكيف تعاطيتم ركوب الجوامح

و لا تطلبوها سمعة فى معرّةتحدّث عنكم كل غاد و رائح

خمول الفتى خير من الذكر بالخناو جر ذيول المنديات الفواضح

فهذا الشاعر يصور قصائده المسروقة حين تضاف الى قصائد غيره بصور الصحاح من الابل و الخيل حين تضاف الى المراض، و يتمثلها تلوى رقابها نزاعا الى وطنها الاصيل، و تأبى ورود الماء الغريب ثم يرمى سارقى شعره بأنهم ليسوا أكفاء للزواج من تلك القصائد، و انهم لم يحسنوا رعى البقل فكيف يخاطرون بركوب الجياد الجوامح؟

و وصف قصائده المسروقة فى مكان آخر فقال:

تصغى لها الأسماع و القلوبمثل السهام كلها مصيب

لطيمة نمّ عليها الطيّب تودعها الأردان و الجيوب

يتعب ذو البراعة الاديبو يغنم الهلباجة المعيب

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۵۴ فى كل هجمة تلوب هاج عليها الكلأ الرطيب

يطلبن أرضى و الهوى طلوبلا أمم منى و لا قريب

عند الأعادى و سمها غريبيرصدهن الحارب المريب

فأنتم ترون أن الشريف يؤمن بأن سرقة شعره عناء فى عناء و هى نظرة لا تقع إلا من رجل مثقّف العقل، و هى دليل على قوة الذاتية التى تعدّ من أهم العناصر فى مقومات الآداب و الفنون، فالشاعر الوسط، أو الكاتب الوسط، أو الموسيقار الوسط، تضاف آثاره إلى آثار غيره فلا يحس أحد أنها نقلت من أرض إلى أرض. و من الأدباء و الفنانين من تصبح آثارهم كالدنانير التى يتميز بها جيل عن جيل، و لا يمكن تزييفها إلا بجهد عنيف، و أنتم تجدون شواهد ذلك عند كثير من أدباء اليوم، فشوقى ينمّ شعره عليه، و البارودى ينمّ شعره عليه، و كذلك ينمّ الأسلوب عن أمثال إبراهيم المازنى و طه حسين، و لو نشروا رسائلهم بدون إمضاء.

و الشريف الرضى كان أعجوبة الأعاجيب فى هذا الباب، فلا هو من من طراز أبى نواس و لا مسلم بن الوليد و لا أبى تمام و لا البحترى و لا المتنبى و إنما هو الشريف صاحب الحجازيات.

و إحساس الشريف بخطر البلاغة قاده إلى الاشادة بقوة القلم و ما له من السيطرة على الوجود. و الحديث عن قوة القلم معروف، فقد أقسم اللّه به فى كتابه الكريم، و اهتم بوصفه كثير من الشعراء و الكتاب، كما ترون فى الفقرات التى أثبتها الثعالبى فى سحر البلاغة و نقلها الحصرى فى زهر

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۵۵

الآداب، و لكن حديث الشريف عن القلم له دلالة على اتجاهاته الذوقية و النفسية، فهو يتحدث عنه حديث المتيم المشتاق، و يكاد يتغزل فيه و هو يجول فوق القراطيس. و أى سحر فات الشريف و هو يصف قلم الصاحب بن عباد:

لك القلم الماضى الذى قرنتهبجرى العوالى كان أجرى و أجودا

إذا انسلّ من عقد البنان حسبتهيحوك على القرطاس بردا معمّدا

يغازل منه الخطّ عينا كحيلةإذا عاد يوما ناظر الرمح أرمدا

و إن مجّ نصل من دم الضّرب أحمرا أراق دما من مقتل الخطب أسودا

إذا استرعفته همة منك غادرت قوادمه تجرى و عيدا و موعدا

أو حين يقول:

لك القلم الجوّال إذ لا مثقّفيجول و لا عضب تهاب مواقعه

سواء عشيّته النّقس رهبةو ذو لهذم غشّى من الدم رادعه

يلجلج من فوق الطروس لسانهو ليس يؤدى ما تقول مسامعه

و ينطق بالأسرار حتى تظنهحواها و صفر من ضمير أضالعه

إذا اسودّ خطب دونه و هو أبيضيسوّد و ابيضت عليه مطالعه

أو حين يقول:

له قلم إن جرى غربهأمنّا القنا و خشينا اليراعا

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۵۶

و الشريف حين يمنح القلم هذه الأوصاف إنما يفعل ذلك و هو يتمثل ما صنعت الأقلام فى بناء الممالك و الشعوب، و يتصور جناياتها على التيجان و العروش.

و هو أيضا يشعر بمعنى الوصف و معنى البيان، فليست الأوصاف عنده تهاويل و تزاويق، و إنما هى استقراء و استقصاء، و ليس البيان فى فهمه ضربا من المحاجاة أو التنميق، و إنما هو كشف و جلاء، نعرف هذا من قوله فى خطابه خاله أبى الحسين:

يشيّعنى بوصفك كل نطقو يعرفنى بمدحك من رآنى

و ليس الوصف إلا بالتناهىو ليس القول إلا بالبيان

و هو بهذا يثور على التقاليد الأدبية التى شاعت فى القرن الرابع، و كانت تعتمد على البهرج و البريق.

و كان مع فهمه لقيمة البيان ذلك الفهم يدرك تمام الإدراك أن البيان يوجب على طالبه أن يكدّ خاطره فى تصيّد كرائم المعانى و تحيّر الألفاظ الصّحاح التى لا يصلح بغيرها أداء، نفهم ذلك من قوله عتاب الخليفة الطائع للّه:

فالآن منك اليأس ينقع غلّتى و اليأس يقطع غلّة الظمآن

فاذهب كما ذهب الغمام رجوتهفطوى البروق و ضنّ بالتّهتان

أو بعد أن أدمى مديحك خاطرىبصقال لفظ أو طلاب معانى

و فى هذا المعنى نفسه يقول فى مدح أبيه:

قدها فغرّتها من الكلم الجنىو حجولها من صنعة و معانى

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۵۷ هى نطفة رقرقتها من خاطرىبيضاء تنقع غلّة الظمآن

و كذلك يقول فى آخر موطن:

و محوكة كالدرع أحكم سردهاصنع فأفصح فى الزمان الأعجم

و فى هذا المعنى يقول فى العتاب:

جاءتكم أسلا مشرّعةمتوقّعا فيكم تقصّفها

قد بات فيها قائل صنعيحمى لها ذمها و يرهفها

أعزز علىّ بأن يكون لكمبالأمس ثقّفها مثقّفها

و يقول فى وصف نظام قصائده و هو يمدح أحد وزراء بهاء الدولة:

و عندى لكك الغرّ التى لا نظامهايهى أبدا و لا يبوخ شهابها

و عندى للأعداء فيك أوابد لعاب الأفاعى القاتلات لعابها

و فى قوة نظام القصائد يقول أيضا و هو يمدح أباه:

تصون مناقبك الشاردات أن تتخطى إليها العيوب

إذا نثرتها شفاه الرواة راقك منها النظام العجيب

و فى سلاسة النظام يقول:

برانى الدهر سهما ثم ولّىفجردنى من الريش اللؤام

و ها أنذا أبثّك كل بيترقيق النسج رقراق النظام

و فى رنين شعره يقول:

منحتك من منطقى تحفةرأيت بها فرصة تستلب

تصفّقها بالنشيد الرواةكما صفّق الماء بنت العنب

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۵۸

و يصف جلجلة شعره فيقول:

أنا القائل المرموق من كل ناظرإذا صلصلت للسامعين غرائبى

و يصف قدرته على إيذاء الأعداء بالشعر فيقول:

فلا ترهبونى بالرماح سفاهةفعيدان أوطانى قنا و صعاد

و لا توعدونى بالصوارم ضلّةفبينى و بين المشرفىّ ولاد

سأمضغ بالأقوال أعراض قومكمو للقول أنياب لدىّ حداد

ترى للقوافى و السماء جليةعليكم بروق جمّة و عاد

و يصف نفسه بالسيطرة على الالفاظ فيقول:

ألا من كنت شاعرهفإن المجد شاعره

و إن اللفظ مطروحعلى فكرى جواهره

فما رأيكم فيما سمعتم، يا أدباء بغداد؟

أترون كيف يتحدث عن صقال الألفاظ و طلاب المعانى، و كيف يصف نفسه مرات بأنه صنع، و يصف قصائده بأنها كمشرعات الأسل و محكمات الدروع؟

أرأيتم كيف يبدىء و يعيد فى وصف ما تمتاز به قصائده من إحكام النظام، و كيف تجلجل جلجلة الرعود و البروق؟

إن هذا الشاعر يقفنا أمام حقيقتين: الاولى ان البلاغة بريئة من البهرج و التكلف، و الثانية ان البلاغة لا تكون دائما من عفو الطبع، و إنما يصل إليها الرجال بالجهاد و الجلاد فى تخير الألفاظ و تصيّد المعانى، و هذا

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۵۹

و لا ريب مطمح الشاعر المثقف الذى يعرف أنه مهدد بالشهرة التى غنمها المتنبى و الشهرة التى سيغنمها أبو العلاء.

و عقل القرن الرابع هو الذى أورد شاعرنا هذه الموارد، فقد كان يرى العلم و الفلسفة يحيطان به من كل جانب، و كان يرى الناس لا يقنعون بالمواهب الفطرية التى كانت تغنى فى عصر امرىء القيس أو عمر ابن أبى ربيعة أو مسلم ابن الوليد، و كان يرى الادباء يتغنّون بفنون أبى تمام و البحترى و ابن الرومى، و كان يتطلع إلى أن تكون له منزلة فى صدور الادباء المتفلسفين أمثال التوحيدى و الصاحب بن عباد.

و سترون فى المحاضرة المقبلة أن الشريف الرضى لم يكن يعيش وحده، و إنما كان يعيش فى زمن أكثر علمائه شعراء، فهو يقارعهم مقارعة الشاعر المثقف، و يلقاهم بعزائم الفحول.

ننتقل إلى فن آخر يظهر فيه حرصه على الكلام البليغ، فنرى كيف كان يدرك أن محاسن الرجال لا تتم بغير العقل و البيان.

كتب إليه الصابى يشكو زمنة عرضت له، فقال الشريف يجيبه من قصيد طويل:

لئن نال قبضا من بنانك حادثلقد عاضنا منك انبساط جنان

و إن بزّ من ذاك الجناح مطارهفربّ مقال منك ذى طيران

و إن أقعدتك النائبات فطالماسر موقرا من مجدك الملوان

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۶۰ و إن هدمت منك الخطوب بمرّهافثمّ لسان للمناقب بانى

مآثر تبقى ما رأى الشمس ناظرو ما سمعت من سامع أذنان

و موسوعة مقطوعة العقل لم تزلشوارد قد بالغن فى الجولان

و ما زلّ منك الرأى و العزم و الحجافنأسى إذا ما زلّت القدمان

و هو فى هذه الأبيات يرى ان مرض الصابى غير ضائر ما دام له قلب و لسان. و نصّه على بلاغة الصابى و هو يعزيه فى علته يشرح لكم كيف كان يقدر نعمة الكلام البليغ.

و لما مات الصابى رثاه الشريف أكثر من مرة، و كان كلما رثاه نص على قلمه و بلاغته، كأن يقول:

ثكلتك أرض لم تلد لك ثانياأنّى و مثلك معوز الميلاد

من للبلاغة و الفصاحة إن همىذاك الغمام و عبّ ذاك الوادى

من للملوك يحزّ فى أعدائهابظبا من القول البليغ حداد

من للممالك لا يزال يلمّهابسداد أمر ضائع و سداد

من للجحافل يسترل رماحهاو يردّ رعلتها بغير جلاد

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۶۱ من للموارق يستردّ قلوبهابزلازل الإبراق و الإرعاد

و صحائف فيها الأراقم كمّنمرهوبة الاصدار و الايراد

تدمى طوائعها إذا استعرضتهامن شدة التحذير و الإبعاد

حمر على نظر العدوّ كأنمابدم يخطّ بهن لا بمداد

يقدمن إقدام الجيوش و باطلأن ينهزمن هزائم الأجداد

فقر بها تمسى الملوك فقيرةأبدا إلى مبدى لها و معاد

و تكون سوطا للحرون إذا ونىو عنان عنق الجامح المتمادى

ترقى و تلدغ فى القلوب و إن يشأحطّ النجوم بها من الأبعاد

فماذا ترون فى هذه الصورة الشعرية، صورة القلم البليغ الذى يحز فى قلوب الأعداء و كأنه السيف المسلول، القلم البليغ الذى يسترل الرماح و يردّ الجنود، و يسترد موارق القلوب بالترهيب و التخويف، القلم الذى يصيّر الصحائف و كأنها مملوءة بكوا من الأراقم و الصلال، القلم الذى يخيّل الصحائف للعدو و هى حمر قانية كتبت بالدم لا بالمداد، القلم الذى يسدّ مسدّ السوط فى رياضة الحرون، و مسدّ العنان فى عنق الجواد الجموح، القلم الذى يلدغ القلوب إن شاء، و يرقيها إن شاء، و يحطّ النجوم من الابعاد حين يريد.

إن هذا الوصف يعطينا فكرة واضحة عن فهم الشريف لقوة القلم البليغ، و هو ليس كالوصف الذى رأيناه منذ لحظات، و إنما هو وصف حى يأخذ ملامحه من قوة الاحساس و يقظة الجنان.

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۶۲

و قد وصف البلاغة مرة ثانية و هو يرثى الصابى فقال:

إن تمض فالمجد المرجّب خالدأو تفن فالكلم العظام بواقى

مشحوذة تدمى بغير مضارب كالسيف أطلق فى طلى الاعناق

يقبلن كالجيش المغير يؤمّه‌كمش الازار مشمّر عن ساق

قرطات آذان الملوك خليقةبمواضع التيجان و الأطواق

عقدوا بها المجد الشرود و أثّلوادرجا إلى شرف العلا و مراقى

أوترتها أيام باعك صلّبو كددتها بالنزع و الاغراق

حتى إذا مرحت قواك شددتهاباسم على عقب الليالى باقى

كنجائب قعدت بها أرماقهامحسورة فمشين بالأعراق

و هو فى هذه الابيات يضع أمام أعيننا صورة ثانية تغاير الصورة الاولى بعض المغايرة و تماثلها فى المدلول، و لكنه يأتى بمعنى جديد حين يصور ما كان عليه القلم فى الحالين: حال الشباب و حال المشيب، فهو فى الحال الاول يشدّ كلامه بوثاق القوة، و هو فى الحال الثانى يسند كلامه بقوة الروح.

و قد وصف بلاغة الصابى و هو يرثيه مرة ثالثة فقال:

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۶۳ هو الخاصب الأقلام نال بها علاتقاصر عنها الخاضبون العواليا

مغيد ضراب باللسان لو انهبيوم وغى فلّ الجراز اليمانيا

و هذا يدلكم على أن البلاغة كانت تملأ أقطار ذهنه فيراها أكرم ما يبكى به الرجال.

و مدح الشريف ابن جنى ورثاه، و قد رأيناه فى الحالين ينص على بلاغته، فيقول فى المدح:

فدى لأبى الفتح الافاضل إنهيبرّ عليهم إن أرمّ و قالا

إذا جرت الآداب جاء إمامهاقريعا و جاء الطالبون إفالا

فتى مستعاد القول حسنا و لم يكنيقول محالا أو يحيل مقالا

ليقرى أسماع الرجال فصاحةو يورد أفهام العقول زلالا

و يجرى لنا عذبا نميرا و بعضهمإذا قال أجرى للمسامع آلا

و يقول فى الرثاء:

فمن لأوابى القول يبلو عراكهاو يحذفها حذف النبال الموارق

إذا صاح فى أعقابها اطردت لهثوانى بالاعناق طرد الوسائق

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۶۴ و سوّمها ملس المتون كأنهانزائع من آل الوجيه و لا حق

تغلغل فى أعقابهن وسومهبأبقى بقاء من وسوم الأيانق

ففى الناس منها ذائق غير آكلو قد كان منها آكلا غير ذائق

و من للمعانى فى الأكمّة ألقيتإلى باقر غيب المعانى وفاتق

يطوّح فى أثنائها بضميرهمرير القوى ولّاج تلك المضايق

تسنّم أعلا طودها غير عاثرو جاوز أقصى دحضها غير زالق

فهو فى الابيات الاولى يصفه بحلاوة القول، و هو فى الابيات الاخيرة يصفه بسياسة القول. و لا يلتفت إلى سياسة القول إلا الشعراء المثقفون الذين راضتهم الايام على وزن مقامات البيان.

و لا بأس من أن نستطرد قليلا فنقول: إن اهتمام الشريف بمدح ابن جنّى و رثائه موصول الاواصر بحياته الادبية، فقد كان ابن جنى شرح قصيدته الرائعة فى رثاء ابراهيم بن ناصر الدولة الحمدانى، و هى التى يقول فى مطلعها:

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۶۵ ألقى السلاح ربيعة بن نزارأودى الردى بقريعك المغوار

و تجردى عن كل أجرد سابح‌ميل الرقاب نواكس الابصار

و سنعود إلى هذه القصيدة بعد حين، و لكن المهم أن نسجل أن الشريف كان يعادى و يصادق فى سبيل حياته الشعرية، فهو قد مدح ابن جنى و رثاه لأنه شرح إحدى قصائده فى الرثاء، و كذلك فعل مع الصاحب بن عباد، فقد بلغه أن شيئا من شعره وقع إليه فأعجب به و أنفذ إلى بغداد لاستنساخ سائر شعره، فلما بلغه ذلك أخذ منه الطرب كل مأخذ، و مدح الصاحب بقصيدة بارعة منها الأبيات التى سلفت فى وصف القلم، و لكنه أخفاها عنه و لم يرسلها إليه خوفا من أن يتّهم بالسعى فى طلب المال، ثم مدحه بقصيدة ثانية لا يعنينا منها فى هذا المقام إلا اهتمامه بوصف بلاغة الصاحب إذ يقول:

كم حجة لك فى النوافل نوّهت‌بدعاء دين العدل و التوحيد

و مجادل أدمى جدالك قلبه‌و أعضّه بجوانب الصّيخود

و شفيت ممترض الهوى من معشرسدّوا من الآراء غير سديد

قارعتهم بالقول حتى أذعنواو أطلت نوم الصارم المغمود

جمر بمسهكة الرياح نسفته‌كان الضلال يمدّه بوقود

فهذه الأبيات تمثل فهمه لخطر الجدل و القلم أصدق تمثيل، و ترينا

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۶۶

كيف كان يدرك أن القلم و اللسان يغنيان أحيانا عن سل السيوف فى كبح الخصوم و تأييد الآراء.

و لما مات الصاحب رثاه الشريف بقصيدة قوية جاء فيها قوله فى وصف ما تصنعه الأقلام:

واها على الأقلام بعدك إنهالم ترض غير بنان كفك آلا

أفقدن منك شجاع كل بلاغةإن قال جلّى فى المقال و جالا

من لو يشا طعن العدا برؤوسهاو أثار من جريالها قسطالا

و إذا تجايشت الصدور بموقف‌حبس الكلام و قيد الاقوالا

بصوائب كالشّهب تتبع مثلهاو رعال خيل يتّبعن رعالا

فهو يجعل الحجج الصوائب فى قوة الخيل المغيرات، و هى أخيلة بدوية كان يحسّ صورها كل الإحساس.

و فى الشواهد التى سلفت ما يريكم كيف كان الشريف يهتم بوصف اللّسن، و كيف كانت تروعه قوة الجدل، و قد وصل فى ذلك إلى أبعد الغايات و هو يقول فى رثاء عبد العزيز بن يوسف:

أبكيك يا عبد العزيز لخطةتعمى مطالعها و خطب مضلع

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۶۷ و مقاوم ما زلت تعجز ليلهابلسان قوّال و قلب سميذع

إنى أرى فى المجد بعدك ثلمةتبقى و خرقا ماله من مرقع

من يشرق الخصم الألدّ بريقه‌عيّا و يقدع منه ما لم يقدع

أم من يبلّغ بالبلاغة غايةتلوى بحسرى طالبين و ظلع

أم من يردّ من المغيرة غربهاو الخيل تنهض كالقطا بالدّرّع

بنوافذ للقول يبلغ وقعهاما ليس يبلغ بالرماح الشّرّع

شهب تشعشع فى النوائب ضوءهاكالشمس تنغض رأسها للمطلع

حتى يقول الغابطون و قد رأوافعلاته: زاحم بجدّ أودع

و يودّ من حمل الثنا لو أصبحت‌تلك الأداة على الكمىّ الأروع

إن لا تكن فى الجمع أمضى طعنةفلأنت أمضى خطبة فى المجمع

إن الفصاحة ذللت لك عنقهافأخذت منها بالعنان الاطوع

أمست ظهور المجد عندك ترتقىمنها إلى قمع السّنام الامنع

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۶۸ كيد كمارقة النصال و دونهبشر كبارقة النصول اللمّع

نهّاز أذنبة الكلام إذا هفاقلب الجرىء وعىّ قول المصقع

قد قلت للمتعرضين لسطوهخلّوا و جار الارقم المتطلّع

و هـذا فنّ جديـد عند الشـريف، فأكثر من وصـفهم بالبلاغة كانوا من رجال السـيف، أما عبد العزيز بن يوسف فلم يكن له من أدوات القتـال غير القلم و اللسـان، و قـد وصف كلمـاته بأنهـا تفعـل مـا لاـ تفعـل مشـرعات الرمـاح، و انهـا تردّ الخيـل المغيرة و عليها أقطاب الدارعين، و حدد مقامه بين مقامات الأبطال بهذا البيت:

إن لا تكن فى الجمع أمضى طعنةفلأنت أمضى خطبة فى المجمع

و قد وصـفه بالكيد، و ذلك وصف طريف، لأنه يفصح عن خصـلة نادرة لا يجيدها إلا الاقلون، و الكيد سـلاح عرفه الساسة من قديم الزمـان و أنـا لا أعرف من أصوله شـيئا، و لكنى سـمعت انه يبنى و يهـدم و يبرم و ينقض. و الشـريف يعنى ما يقول و هو ينعت مبكيّة بالكيد فى موقف لا تذكر فيه غير كرائم الخلال.

و قد قلت فى كتاب النثر الفنى: إن ما بين أيدينا من أخبار عبد العزيز بن يوسف و رسائله لا يعطينا صورة صحيحة عن نفسه و أخلاقه، فهل أستطيع اليوم أن أعتمد على حكم الشريف فأقول إن ذلك الكاتب كان من كبار الكائدين؟

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۶۹

المهم أن نسـجل ان الشـريف كان يفهم جيـدا خطر القول، و كان يعرف أنه يطلب لكثير من الغايات، و يـدرك أن البلاغة لها مواطن خفية يدركها أقطاب الليل. و نعوذ باللّه من كيد الكائدين، و دسائس الخاتلين.

و مع هـذا لم يكن الشـريف يرى الـدنيا فى جميع أحوالها حومة قتال، فقد كانت عنده مواطن يرى فيها البلاغة تطلب لإيناس الافئدة و القلوب أليس هو الذى يقول فى رثاء أبى منصور الشيرازى:

كم مجلس صبّحته ألسنناتفضّ فيه لطائم الأدب

من أثر يونق الفتى حسنأو خبر يبسط المنى عجب

أو غرض أصبحت خواطرناتساقط الدر منه فى الكتب

كالبازد العذب روّقته صبا الفجرأو الظلم زين بالشنب

و كيف لا يعشق البلاغة و يراها من موارد الانس من يقرنها بجمال العزم و الحلم فيقول فى مدح أبى سعيد بن خلف:

خطاب مثل ماء المزن تبرىمواقعه العليل من القلوب

و عزم إن مضيت به جريّاهوى مطر القنا بدم صبيب

و حلم إن عطفت به معيداأطار قوادم اليوم العصيب

و ألفاظ كما لعبت شمالملاعبها على الروض الخصيب

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۷۰

أيها السادة:

تلكم ثقافة الشريف الرضى، و ذلك إحساسه بخطر البلاغة و قوة الكلام البليغ.

و إنما أطلنا فى سـرد الشواهـد و ضـرب الامثال لنريكم أن الشـريف لم يكن فى حياته الشـعرية من اللاهين، و إنما كان يقتحم البلاغة

اقتحام الفحول، و يؤمن بأن الفصاحة من أشرف ما يزدان به الرجال، و يرى آثار الاقلام أبقى على الزمن من آثار الرماح و السيوف.

فان قلتم: و كيف صح للشريف أن يفتن بنفسه و بشعره ذلك الفتون؟

قلنا: إن لذلك موجبات سنعود اليها فى المحاضرة المقبلة بالتفصيل.

مقام الشريف الرضى بين شعراء القرن الرابع

أيها السادة:

حديث الليلة عن شاعرية الشريف الرضى كما يصورها فى قصائده القصار و الطوال، و قد تعقبنا حديثه عن شعره فرأينا زهى به و اختال أكثر من ستين مرة، فساقنا ذلك إلى البحث عن السر فيما أدّى به الى الاسراف فى الزهو و الاختيال.

قد تقولون: و هل تفرد الشريف الرضى بالحديث عن شعره حتى تبحث عن السر فى ذلك؟ ألم تعرف هذه السجية فيمن سبقه من الشعراء كأبى تمام و البحترى و ابن الرومى و المتنبى؟

و أجيب بأن هذه الخصلة لم يتفرد بها الشريف، و لكنه أفرط و أسرف فلم يكن بدّ من الكشف عن سرّ ما وقع فيه من الإفراط و الإسراف.

و لكى تعرفوا كيف أفرط و أسرف، أسوق اليكم شواهد تبين غلبة

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۷۱

الزهو على ذلك الشاعر، ثم أتبعها بالبحث عن أسرار ذلك الاختيال.

و لا أرى موجبا للاشارة إلى جميع المواطن التى زهى فيها بشعره، فقد حدثتكم أنها تزيد على الستين، و إنما أطوف ببعض الاشعار التى تكشف عن تلك الخصلة بوضوح و جلاء.

و أول ما أشير اليه هو إحساسه بأن الشعر دون قدره، و أن نفسه أعلا من أنفس الشعراء و أرفع، و هو يحدثنا أنه يتخذ الشعر وسيلة الى غرضه فيقول:

و ما قولى الاشعار الا ذريعةالى أمل قد آن قود جنيبه

و انى اذا ما بلّغ اللّه غايةضمنت له هجر القريض و حوبه

و يرى سيماه غير سيماء الشعراء فيقول:

و ما الشعر فخرى و لكنماأطول به همة الفاخر

أنزهه عن لقاء الرجالو أجعله تحفة الزائر

فما يتهدّى اليه الملوكالا من المثل السائر

و إنى و إن كنت من أهلهلتنكرنى حرفة الشاعر

و يرى القول دون الفعل فيقول:

مالك ترضى أن يقال شاعربعدا لها من عدد الفضائل

كفاك ما أورق من أغصانهو طال من أعلامه الأطاول

فكم تكون ناظما و قائلاو أنت غبّ القول غير فاعل

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۷۲

و هذه الشواهد الثلاثة ترينا كيف كان يرى الشعر دون قدره و كيف كان يرى منزلته أرفع من منازل الشعراء.

و لكن هل يهرب من شاعريته؟ انّ هذا محال! فلم يبق الا أن يرى نفسه أشعر الامم فيقول:

كفاك بأن عرضك من‌طروق العار فى ذممى

و ذلك عصمة منى‌بحبل غير منجذم

و حسبك أن يفلّ شباة هجوك أشعر الامم

أو يرى شعره فوق شعر البحترى و مسلم بن الوليد فيقول:

شعر أثير به العجاج بسالة كالطعن يدمى و القنا تتحطم

و فصاحة لولا الحياء لهجّنت‌أعلام ما قال الوليد و مسلم

أو يتواضع فيرى نفسه زميل الفرزدق أو جرير فيقول:

و قصيدة عذراء مثل تألق الروض النضير

فرحت بمالك رقّهافرح الخميلة بالغدير

و كأنه فى رصفها جار الفرزدق أو جرير

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۷۳ و كأنه من حسنهابين الخورنق و السدير

أو يرى قوافيه كقوافى البحترى و أبى نواس فيقول:

و شرب قد نحرت لهم عقاراكحاشية الرداء الأرجوانى

كأن الشمس مال بها غروب‌فأهوت فى حيازيم الدّنان

فصل بدم العقار دم الاعادىو أصوات العوالى بالأغانى

فيوم أنت غرّته جواديبذّ بشأوه طلق القران

جعلت هديتى فيه نظاماصقيلا مثل قادمة السنان

بلفظ فاسق اللحظات تنمى‌محاسنه إلى معنى حصان

و صلت جواهر الألفاظ فيه‌بأعراض المقاصد و المعانى

فجاءت غضّة الأطراف بكراتخيّر جيدها نظم الجمان

كأن أبا عبادة شقّ فاهاو قبل ثغرها الحسن بن هانى

أو يرى نفسه ضريبا لزهير فيقول:

أنا زهير فمن لى فى زمانك ذابعض ما افترقت عنه يدا هرم

أو يرى شعره فوق شعر زهير فيقول:

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۷۴ بزّ زهيرا شعرى و هأنذالم أرض فى المجد أنه هرم

أو يرى كلامه فوق كلام الرجال فيقول:

جاءتك محصدة القوى حبّارةتستعبد الأرواح فى الأجسام

من لى بإنشاديكها فى موقف‌أعتدّه شرفا مدى أيامى

لا أدّعى فيه الغلوّ و إنمايوفى على قلل الرجال كلامى

أو يقول:

و إن قوافى الشعر ما لم أكن لهامسفسفة فيها عتيق و مقرف

أنا الفارس الوثّاب فى صهواتها و كل مجيد جاء بعدى مردف

أو يرى لسانه أمضى من السيف فيقول:

و أنا المضارب عن علاك بمقولماضى الغرار و لا الجراز المقصل

يدمى الجوارح و هو ساكن غمدهو لقلما يمضى بغمد منصل

و يرى نفسه فوق الشعراء- إذ كان يبتغى الكرامة و يبتغون المال فيقول:

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۷۵ مدحت أمير المؤمنين و إنهلأشرف مأمول و أعلا مؤمّم

فأوسعنى قبل العطاء كرامةو لا مرحبا بالمال إن لم أكرّم

و يرى شعره يرفع أقدار الرجال فيقول:

أبا قاسم جاءت اليك قلائدتقلّد أعناق الرجال المناقبا

قلائد من نظمى تودّ لحسنهاقلوب الاعادى أن تكون ترائبا

إذا هدّها راوى القريض حسبتهيقوم بها فى ندوة الحىّ خاطبا

فلو كنّ غدرانا لكنّ مشارباو لو كنّ أحداثا لكنّ تجاربا

أو يقول:

فحسبك فخرا بهذا المديحو إن غاض فى المدح ماء افتخارى

يزورك بين قلوب العداةفيقطعها فى اتصال المزار

غدت كف مجدك من مدحتىتجول معاصمها فى سوار

و يشبّه أشعاره بالعقائل فيقول:

و كنت زمانا أذود الملوك عن السّلك رقرقت فيه النظاما

أريد الكرامة لا المكرماتو نيل العلا لا العطايا الجساما

فحوزوا العقائل عن خاطرىإلى م أماطل عنها إلى ما

و يرى شعره أعزّ من أن يمدح به غير الخلفاء، فيقول فى خطاب الطائع للّه:

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۷۶ أنت أفسدتنى على كل مأمول و أعديتنى على كل خطب

فإذا ما أراد قربى مليكقلت قربى من الخليفة حسبى

عزّ شعرى إلا عليك و ما زال عزيزا يأبى على كل خطب

أو يمنّ به على أحد الوزراء فيقول:

خطبت شعرى إلى قلب يضنّ بهإلا عليك فباشر خير مخطوب

و قد يرى شعره بشيرا بالنعيم، و نذيرا بالعذاب، فيراه غيثا ينفع الاولياء، و صواعق تحرق الأعداء، كأن يقول فى خطاب أبيه:

و هذا مقالى فيك غيث و ربمارميت العدا من وقعه بالصواعق

و كأن يقول فى التهديد:

حذاركم بنى الضحاك إنىإلى الامر الذى تومون أومى

فلا تتعرضوا لذراع عادمدل عند جيسته شتيم

فإن تك مدحة سبقت فإنىبضد نظامها عين الزعيم

و قافية تخضخض ما ترامتبها الأيام فى عرض اللئيم

تردد ما لها ممن يعيهاسوى الإطراق منها و الوجوم

لها فى الرأس سوارت يطاطىلها الانسان كالرجل الأميم

ليعلم من أنا ضل أن شعرى‌يطالع بالشفاء و بالنعيم

و للشريف أفانين من التهديد، و هو يتوعد توّعد الباطشين، و يرى شعره يعرق العظام و ينكّل بالأحساب. و انظروا كيف يقول:

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۷۷ فدونكها قاصفا عاصفامن الشر أو عارضا مرزما

قوارص تنثر نظم الدروع‌و تستنزل البطل المعلّما

فمن كان يسقيك أرى الجنى‌فإنى سألعقك العلقما

و من كان يلقاك مستسلمافإنى ألاقيك مستلئما

و الشريف فى وعيده يكشف عن صدر صهره الغيظ، و قلب أضرمته الضغائن و الحقود. و ما كان لمثل هذا الرجل أن يلقى جميع الناس بقلب رفيق، و هل يعرف الرفق من يقول:

أحرجتنى فهاكهابنت عناق و الرّقم

و الليث لا يخرج إلّامحرجا من الأجم

كلذعة الميسم فى‌شواظ نار و ضرم

و الحية الرقطاء تردى أبدا بغير سمّ

حقّا على أعراضكم‌تعطّها عطّ الادم

فاستنشقوها نفحة‌تجدع مارن الأشمّ

تقرض من جنوبكم‌طمّ اللمام بالجلم

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۷۸ كأنما تضرب فى العرض‌الاعز بالقدم

مذكورة ما بقيت‌من غير عقد لرتم

ترى على عارى العظام‌و سمها و هى رمم

فلو نزعت الجلد كان‌رقمها كما رقم

كم جرّدت شفارهالحم فتى بلا و ضم

خابطة لا تتقى‌صدم أخ و لا ابن عم

أيها السادة:

قد أشرت كما ترون إلى نحو عشرين موضعا زهى فيها الشريف بشعره و اختال، و قد حدثتكم أن تلك المواضع نيّفت على الستين، و الآن أحب أن نفهم معا كيف صح ذلك الزهو و ذلك الاختيال:

كان يكفى أن نسجل هذه الظاهرة النفسية، و أن نقول إنه سلك طريقا سار فيه كثير من الشعراء، و لكنى رأيت بعد التأمل و الدرس أن هذه الظاهرة النفسية تجرّ وراءها أشياء، و أكاد أجزم بأنها تدل دلالة على أن الرجل كان يحس أنه يحيا فى عصره حياة المغبون، و أنه كان على أهل زمانه من الحاقدين.

و لكن كيف يصح هذا الافتراض؟ ها كم البينات:

كان الشريف يعيش فى عصر احتله الاموات و احتله الأحياء.

أما الاموات الذين احتلوا عصره فهم البحترى و أبو تمام و المتنبى، و قد شاء النقاد أن يمكّنوا أولئك الاموات من ذلك الاحتلال، و أظهر شاهد على ذلك ما صنع أبو العلاء المعرّى الذى عاش دهره كله و هو يحقد على

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۷۹

الشريف الرضى أبشح الحقد، فقد ألف ثلاثة كتب فى شاعرية أبى تمام و البحترى و المتنبى، و أراد أن يسجل أن دنيا الشعر وقف

على هؤلاء الثلاثة فقال: البحترى هو الشاعر، و أبو تمام و المتنبى حكيمان. و كان الغرض من هذا الحكم أن يكون هؤلاء الثلاثة محور الجدل و الخلاف.

و يضاف إلى هذا أن الشريف الرضى أعلن خصومته لشاعرية المتنبى و إعلان هذه الخصومة عاد على ذكرى المتنبى بأجزل النفع، فقد كان للشريف كثير من الاعداء، و اولئك الاعداء أصابوا فرصة لم تكن تخطر ببال، فقد مضوا يبدئون و يعيدون فى الكلام عن عبقرية المتنبى، و أذاعوا فى الناس أنه شاعر لن يجود بمثله الزمان، و كانت هذه الاحكام ظاهرها حب الادب و باطنها إغاظة الشريف.

و قد أراد خصوم المتنبى أن يقوموا بحركة عكسية، و لكنهم لم يفلحوا، فقد أرسل الصاحب بن عباد يستنسخ ديوان الشريف ليفهم الناس أن الشريف هو شاعر الجيل، و أن العصبية للمتنبى لا تمنع من التسليم بأن عالم الشعر لا يزال فيه مجال للاعلام و الاقطاب .

قد تقولون: و كيف جاز للشريف أن يحقد على رجل مات قبل أن يجىء هو إلى الدنيا بأعوام؟

و أجيب بأن موت المتنبى فى القرن الرابع لم يكن مثل موت شوقى فى القرن الرابع عشر: فقد سكت النقاد عن شوقى بعد إذ مات، لان شوقى

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۸۰

كان ملك الجماهير فى زمانه ملكا قويا، و كان تفرّد بأفانين من الشعر عجز عنها معاصروه، فلما مات سلموا له بالامارة الشعرية، و عادوا إلى شؤونهم ساكتين.

و لم يكن الحال كذلك بعد موت المتنبى، فقد كان على جهارة صوته و جلجلة شعره يحدّث الناس بما يألفون، و كانت له بدوات لفظية و معنوية تؤلب الناس عليه، و تهيج النحويين و اللغويين، فلما مات بقيت الفرصة للجدل و الشغب و الضجيج، و انقسم الناس حول شعره إلى فريقين: عدوّ و صديق، و كذلك ظل يثير الهيجاء و هو هامد بين الصفائح و التراب، و لو تسمّع الناس صوت رفاته البالى لرأوه يقول:

أنام ملء جفونى عن شواردهاو يسهر الخلق جرّاها و يختصم

و من المؤكد أن الشريف شهد الخصومة حول شعر المتنبى و هو طفل و من المؤكد أيضا ان عظمة المتنبى احتلت أقطار نهاه، و لعلها كانت السبب فى أن ينظم الشريف أجود الشعر و هو ابن عشر سنين، فليس من المستبعد أن يكون فى أساتذة الشريف من لقّنه الحقد على المتنبى، ثم ظل هذا الحقد عقيدة أدبية يساورها و تساوره طول الحياة.

و أقف عند الغرض الاصيل فأقول: إن الشريف كان يعجب لانصراف الناس عن شعره و إقبالهم على شعر المتنبى، و قد انقلب هذا العجب إلى حقد: لانه كان يرى نفسه أشعر من المتنبى، و كان يفهم جيدا ان الناس لو خلصت ضمائرهم من أوضار العصبيات الدينية و السياسية و الادبية لفضلوه على المتنبى، و لكنهم لن يخلصوا و لن يسعفوا الشريف بما يريد.

و لم يكن المتنبى هو الشاعر الوحيد الذى يحتل أذهان أهل بغداد من

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۸۱

فقد كانت هناك أطياف ترد إلى أهل بغداد من شاعر ولد فى بلد بعيد و عاش فى القرن الرابع: و هو أبو القاسم بن هانى الذى ولد فى إشبيلية، و سمت به همته إلى أن يكون أمير الشعراء فى مصر، ثم احتضره الموت و هو فى الطريق، فلم يشهد بساتين الجزيرة و لا مساجد الفسطاط.

و كانت أطياف ابن هانى تغيظ الشريف الرضى أشد الغيظ: لأن الناس لم يكونوا يجدون عبارة تفيه حقه من الثناء إلا أن يقولوا هو متنبى المغرب.

و لا نعرف بالضبط كيف عرف العراقيون شعر بن هانى لعهد الشريف، و لكن من المؤكد أن ابن هانى كانت له سمات تلفت العراقيين إليه: فقد كان شاعر الفاطميين أعداء العباسيين، الفاطميين الذين أنشأوا القاهرة لينافسوا بغداد، و ليخلقوا الخصومة بين دجلة

و النيل.

أيها السادة:

حدثناكم حديثا موجزا عن شاعرين كانا يحتلان أذهان الناس فى بغداد من بين الأموات، و هما المتنبى و ابن هانى، و بيّنا كيف كان الشريف يغتاظ لصيرورة ما أبدعا من الآيات، فما بالنا لا نخبط شجرة الشعر فى القرن الرابع لنرى كيف كان الشريف يتعب و يضجر و يلتاع ليرفع رايته فى ذلك البحر المحيط؟

لقد كان العراق فى القرن الرابع مسرحا لعرائس الشعر الجميل، و كان المرء لا يلتفت إلا رأى نفائس و غرائب تبهر الأذواق و القلوب و القول.

ففى القرن الرابع ولد السّلامى، ولد بالكرخ لستّ خلون من رجب سنة ۳۳۵، و قد بهر الناس بشعره فى مطلع صباه، فقد كان أول ما سار من شعره قوله و قد ركب سفينة فى دجلة، و كان ركبها أول مرة .

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۸۲ و ميدان تجول به خيول‌تقود الدارعين و لا تقاد

ركبت به إلى اللذات طرفا له جسم و ليس له فؤاد

جرى فظننت أن الارض وجهو دجلة ناظر و هو السّواد

و قد مضى السّلامى يبدع و يجيد حتى فتن أهل بغداد، و حتى استطاع أن يقول:

و فيهن سكرى اللحظ سكرى من الصّباتعاتب حلو اللفظ حلو الشمائل

أدارت علينا من سلاف حديثهاكؤوسا و غنّتنا بصوت الخلاخل

و استطاع أن يجيد وصف الزنابير التى تضجر أهل بغداد فيقول:

و لابس لون واحد و هو طائرملوّنة أبراده و هو واقع

أغرّ محشىّ الطيلسان مدبّجو سود المنايا فى حشاه ودائع

إذا حكّ أعلا رأسه فكأنمابسالفتيه من يديه جوامع

يخاف إذا ولى و يؤمن مقبلاو يخفى على الأقران ما هو صانع

بدا فارسىّ الزى يعقد خصرهعليه قباء زيّنته الوشائع

فمعجره الوردىّ أحمر ناصعو مئزره التبرىّ أصفر فاقع

يرجّع ألحان الغريض و معبدو يسقى كؤوسا ملؤها السم ناقع

و السّلامى هذا كان شغل أهل العراق فى القرن الرابع فمنحوه لقب أمير الشعراء، فانظروا كيف كان يصح للشريف الرضى أن يسكت عن ضياع شعره، و هو أشعر من أمثال السلامى بلا جدال.

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۸۳

و فى ذلك العصر نبغ فى العراق ابن نباتة السعدى الذى وصف الثعالبى قصائده بأنها أحسن من مطالع الأنوار و عهد الشباب. و أرقّ من نسيم الاسحار و شكوى الأحباب، ابن نباتة الذى يقول:

و كم لليل عندى من نجومجمعت النثر منها فى نظام

عتابا أو نسيبا أو مديحالخلّ أو حبيب أو همام

تفيد بها العقول نهى و صحواو قد فعلت بها فعل المدام

لها فى حلبة الآداب ركضإلى حبّ القلوب بلا احتشام

ابن نباتة الذى يقول:

عجبت له يخفى سراه و وجههبه تشرق الدنيا و بالشمس بعده

و لا بدّ لى من جهلهٔ فى وصالهفمن لى بخلّ أودع الحلم عنده

و فى ذلك العهد نبغ بالموصل شاعر فحل هو السّرى الرّفاء السرّى الذى يقول و قد شرب فى زورق:

و معتدل يسعى إلىّ بكأسهو قد كاد ضوء الصبح بالليل يفتك

و قد حجب الغيم السماء كأنمايزرّ عليها منه ثوب ممسّك

ظللنا نبث الوجد و الكأس دائرو نهتك أسرار الهوى فنهتّك

و مجلسنا فى الماء يهوى و يرتقىو إبريقنا فى الكأس يبكى و يضحك

و أكاد أجزم بأن السرى الرفاء نال من نفس الشريف كل منال، فقد شغل النقاد بشعر الرفاء شغلهم بشعر المتنبى، فأفنوا الليالى فى إخراج سرقاته الشعرية و مزقوه كل ممزّق، و كان الشريف يتمنى أن يظفر شعره من النقاد ببعض ما ظفر به شعر الرفاء.

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۸۴

و فى عصر الشريف نبغ فى العراق شاعران ما جنان هما ابن سكّرة و ابن حجاج، و كان لهذين الشاعرين فى زمانهما مكان مرموق، فكان يقال فى بغداد (إن زمانا جاد بابن سكرة و ابن حجاج لسخىّ جدا و كانت أشعار هذين الماجنين تباع فى الاسواق بأثمان غالية، و كان الناس يتشوفون إلى أشعارهما تشوف الصائمين إلى طلعة شوال، و ما ظنكم بديوان شعر يباع بخمسين دينارا فى أزمان قضت عليها الفتن و الثورات بضيق العيش و اختلال الأحوال! و قد طغى هذان الشاعران فى زمانهما أبشع الطغيان، بفضل ما خلبا به الناس من أشعار الهزل و المجون، و بفضل ما رزقا من قوة الافتنان مع خفة الروح.

أما ابن سكرة فكان يبدع فى وصف مجالس اللهو و الانس كأن يقول:

و يوم لا يقاس اليه يومٍيلوح ضياؤه من غير نار

أقمنا فيه للذات سوقا نبيع العقل فيها بالعقار

و قد اتفق له أن يعشق قينة سوداء اسمها «خمرة» فقال فيها أكثر من عشرة آلاف بيت، و كانت هذه الحكاية مدار السّمر فى أندية بغداد، و أثّرت فى الشريف الرضى نفسه فأنشأ القصائد الطوال فى التشبيب بالسود الملاح .

و أما ابن حجاج فقد تفرد بفن من السخف لم يسبقه اليه سابق ، و كان السخف فى ذلك الزمن شيئا يطلبه أحرار الرجال ليتلهوا عما يحيط

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۸۵

بهم من المعاطب و الظلمات. و قد بلغ الشعر بابن حجاج كل مبلغ فحصّل الأموال، و عقد الأملاك، و صار مقضىّ الحاجة، مقبول الشفاعة، محذور الجانب، متقى اللسان .

و لم يكن السخف كل بضاعة ابن حجاج: فقد كان يجيد فى سائر ضروب الشعر إجادة الفحول، و اضطر الشريف إلى العكوف على دراسة شعره فاخرج منه مختارات سماها (الحسن من شعر الحسين).

و لما مات رثاه الشريف بقصيدة جيدة ابتدأها بهذين البيتين:

نعوه على ضنّ قلبى بهفلله ماذا نعى الناعيان

رضيع ولاء له شعبةمن القلب فوق رضيع اللّبان

و ختمها بهذين البيتين:

فزل كزيال الشباب الرطيبخانك يوم لقاء الغوانى

ليبك الزمان طويلا عليكفقد كنت خفة روح الزمان

و أستطيع أن أقول إن الشريف كان يعطف على ابن حجاج لبعض الوفاق فى المذاهب الدينية أو السياسية: فقد كان يعرض ببعض خصوم أهل البيت، كأن يقول فى خطاب أبى إسحاق الصابى:

فداك اللّه بى و بكل حىّ من الدنيا دنىّ أو شريف

يحلّ لكَ التغافل عن أناس تولوا ظلم خادمك الضعيف

و لست بكافر فيحلّ مالى و لا الحجاج جدى من ثقيف

فمر بدراهمى ضربا و إلا جعلت سبال قوفا فى الكثيف

و لم تمنعه مراعاة الخلافة العباسية فى بغداد من مدح الخلفاء الفاطميين بالقاهرة و الظفر بما فى مصر من طيبات الهدايا و الدنانير .

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۸۶

و لكن من الظلم أن نقضى بأن ذلك التوافق المذهبى كان كل الأسباب فى عطف الشريف على ابن حجاج، فقد كانت لهذا الرجل و ثبات شعرية قليلة الامثال، فهو الذى يقول:

و مدلّل أما القضيب فقدّه شكلا و أما ردفه فكثيب

يمشى و قد فعل الصّبا بقوامه فعل الصّبا بالغصن و هو رطيب

متلوّن يبدى و يخفى شخصه كالبدر يطلع مرة و يغيب

أرمى مقاتله فتخطىء أسهمى غرضى و يرمى مقتلى فيصيب

نفسى فداؤك إن نفسى لم تزل يحلو فداؤك عندها و يطيب

مالى و ما لك لا أراك تزورنى إلا و دونك حاسد و رقيب

تلكم حال ابن سكرة و ابن حجاج، فهل يمكن القول بأن الشريف كان ينظر إلى نجاح هذين الشاعرين بعين الارتياح؟

و كيف و هو يراهما ينتهبان الجوّ الادبى أفظع انتهاب، و يبلغان بالهزل ما لا يبلغ معشاره أصحاب الجد الصّراح؟

و لا تنسوا أنى أسوق هذا الكلام لا بين السر فى حرص الشريف على الزهو بشعره، و الاختيال بعبقريته، فقد كان مضطرا إلى تذكير أهل العراق بما له فى الشعر من مقام جليل.

و فى القرن الرابع نبغ أبو الحسن الجرجانى الذى ذكّر الناس بعهد البحترى، و قد فصلت الكلام عن شعره و نثره فى الجزء الثانى من كتاب «النثر الفنى» فلا أعود اليه الآن، و إنما يهمنى أن أنص على أنه كان من أشهر من أنصفوا المتنبى، و كان الشريف يبغض المتنبى، كما تعلمون

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۸۷

و من نوابغ القرن الرابع أبو الفتح كشاجم، و كان شعره فى ذلك العهد و يحانة أهل الادب فى العراق، و كان مورد رزق للنساخ و الورّاقين، و طوّفت أشعاره بالمشرق و المغرب حتى وصلت إلى القيروان، و تخير أطايبها مؤلف «زهر الآداب» فانظروا كيف يضيق صدر الشريف الرضى و هو يرى هذه الشهرة لشعر كشاجم على حين يظل شعره الفخم بلا رواة و لا شرّاح و لا نقّاد، و هو فى نفسه أشعر الناس.

و من أعلام ذلك العصر أبو حامد الانطاكى، و هو شاعر نشأ بالشام ثم رحل إلى مصر فعاش فيها عيش الترف إلى ان مات سنة ۳۹۹ و قد كانت لهذا الشاعر فى زمانه شهرة عظيمة لانه اراد ان يكون فى مصر و الشام كابن سكرة و ابن حجاج فى العراق.

و يظهر انه صادف فى مصر جماعة من اهل الهزل و المجون فأوغل فى السخف كل الإيغال، و سمى نفسه ابا الرقعمق، و اعلن انه حليف الرقاعة و الحماقة، حتى صح له ان يقول:

استغفر اللّه من عقل نطقت به مالى و للعقل؟ ليس العقل من شأنى!

و لكن هـذا الشاعر لم يخل من عبقريـة نبيلة، فقد سـجل فى شـعره ليل تتيّس و هى مدينة مصـرية كان لها حظّ مرموق، و كان بها فى بعض العهود خمسـمائة صاحب محبرة يكتبون الحـديث، و كانت كـذلك من اماكن الصـيد صـيد الطير لا صـيد الظباء، فكان بها من انواع الطيور مائـة و نيف و ثلاـثون صـنفا ذكرها بأسـمائها صاحب معجم البلـدان. و سـجل الانطاكىّ كـذلك ملاعب الجزيرة، جزيرة الفسطاط، لا الجزيرة التى يصلنا بملاعبها فى هذه الايام جسر إسماعيل، و انظروا كيف يقول و قد طال شوقه إلى

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۸۸

ملاعب الفسطاط:

ليلى بتتيّس ليل الخائف العانى‌تفنى الليالى و ليلى ليس بالفانى

أقول إذ لجّ ليلى فى تطاوله:يا ليل انت و طول الدهر سيان

لم يكف أنى فى تنيس مطّرح‌مخيّم بين اشجان و احزان

حتى بليت بفقدان المنام فماللنوم إذ بعدوا عهد باجفانى

ما صاعد البرق من تلقاء ارضهم‌إلا تذكرت ايامى بنعمان

و لا حننت إلى نجران من طرب‌إلا تكنفنى شوق لنجران

لا تكذبنّ فما مصر و إن بعدت‌إلا مواطن اطرابى و أشانى

ليالى النيل لا أنساك ما هتفت‌ورق الحمام على دوح و اغصان

اصبو إلى هفوات فيك لى سلفت‌قطعتهنّ و عين الدهر ترعانى

مع سادة نجب غرّ غطارفةفى ذروة المجد من ذهل بن شيبان

و ذى دلال إذا ما شئت انشدنى‌و إن أردت غناء منه غنانى

سقيته و سقانى فضل ريقته‌و جادلى طرفه عفوا و منّانى

ما زال ياخذها صفراء صافيةحتى توسد يسراه و خلّانى

اللّه يعلم ما بى من صبابته‌و ما علىّ جناه طرفه الجانى

كم بالجزيرة من يوم نعمت به‌على تضاحك نايات و عيدان

سقيا لليلتنا بالدير بين رباباتت تجود عليها سحب نيسان

و الطلّ منحدر و الروض مبتسم‌عن أصفر فاقع أو أحمر قانى

و النرجس الغض منهلّ مدامعه‌كأن أجفانه أجفان و سنان

و لا يمكن الشك فى ان الشريف الرضى سمع باخبار هذا الشاعر و ما

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۸۹

كان لشعره من الذيوع فى الاقطار الشامية و الديار المصرية.

و فى القرن الرابع نبغ ابن درّاج الأندلسى، و قد فصلت أخباره و وازنت بينه و بين أبى نواس فى كتاب «الموازنة بين الشعراء» و إنما يهمنى أن أنص على أن فى أشعاره ما يدل على أنه رحل إلى المشرق فعرف العراق و خراسان إذ يقول:

فإن غرّبت أرض المغارب موئلى‌و أنكرنى فيها خليط و خلّان

فكم رحّبت أرض العراق بمقدمى‌و أجزلت البشرى علىّ خراسان

و إن بلادا أخرجتنى لعاطل‌و إن زمانا خان عهدى لخوّان

سلام على الإخوان تسليم آيس‌و سقيا لدهر كان لى فيه إخوان

فلا مؤنس إلا شهيق و زفرةو لا مسعد إلا دموع و أجفان

و ما كان ذاك البين بين أحبةو لكن قلوب فارقتهن أبدان

فيا عجبا للصبر منا كأننالهم غير من كنا و هم غير من كانوا

مضى عيشهم بعدى و عيشى بعدهم كأنى قد خنت الوفاء و قد خانوا

و لا تندهشوا أيها السادة حين أحدثكم عن غيرة الشريف الرضى من سلطان الشعراء فى المشرق و المغرب، فقد كانت الدواوين الشعرية تصل إلى بغداد فى حيوات أصحابها، و كانت بغداد تشعر بخطر المنافسة، منافسة القاهرة و قرطبة، فكانت تستورد كل ما تجود به القرائح، و إن تباعدت البلاد.

و كان العراقيون و من والاهم من أهل المشرق يضنّون بالكتب ضنّ الأشراف بالأعراض: فقد غلب أديب على نسخة الجمهرة لابن دريد، غلبه الفقر، و هو أبو الحسن على بن أحمد الفالى، فباعها للشريف المرتضى بستين دينارا، فلما تصفحها الشريف وجد فيها بخط البائع هذه الأبيات.

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۹۰ أنست بها عشرين حولا و بعتهافقد طال وجدى بعدها و حنينى

و ما كان ظنى أننى سأبيعهاو لو خلّدتنى فى السجون ديونى

و لكن لضعف و افتقار و صبيةصغار عليهم تستهلّ شؤونى

فقلت و لم أملك سوابق عبرةمقالة مكوىّ الفؤاد حزين

(و قد تخرج الحاجات يا أمّ مالك كرائم من ربّ بهنّ ضنين)

و يقال إن المرتضى ردّ النسخة إلى صاحبها بعد قراءة هذه الأبيات و ترك الدنانير.

أيها السادة:

رأيتم كيف كان الشعر يرفع أهله فى القرن الرابع، و كيف كان الشريف يضجر من خموله بين الشعراء. مع أنه كان فى نفسه و فى الواقع سيد الشعراء.

فلننظر الآن نظرة ثانية نرى بها كيف عظمت منزلة الشعر فى القرن الرابع، حتى استطاع الرضىّ على شرف منبته أن يرى الشعر من أظهر مزاياه كان الشعر فى ذلك العصر مما يتحلى به الامراء و الرؤساء، فكان من أقطابه أمير مصر تميم بن المعز، و كان من أعلامه السادة الحمدانيون من أمثال سيف الدولة و أبى فراس.

و كيف لا يعزّ الشعر فى زمن يكون من شعرائه وزراء عظام كأبى الفضل ابن العميد و الصاحب ابن عباد؟ كيف لا يعز الشعر فى زمن يكون من شعرائه قاض كأبى الحسن الجرجانى و كاتب مثل عبد العزيز بن يوسف؟

و من عجائب ذلك العصر أن رجاله كانوا فى الأغلب يجمعون بين الصناعتين: الشعر و الانشاء، فكانت البلاد تموج موجا بمواكب الخيال و البيان.

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۹۱

و كان الشريف الرضى ينظر إلى تلك المواكب بعين القلق و الحيرة:

لأن الظروف السياسية كانت ضيقت عليه الخناق، و أقصت عنه أسباب السلطة الأدبية، و هى سلطة هائلة كان لها الأمر يومئذ فى مصاير الرجال.

و سترون فى المحاضرة المقبلة تفصيل هذا الجانب من حياة الشريف، و لكن المهم فى هذه اللحظة أن تثقوا بأن الظروف هى التى أحرجته و قضت عليه و هو رجل مهذب بأن يخرج على قواعد الذوق فيزهى بشعره و يختال، المهم عندى أن تعذروا الشريف حين ترونه يقول:

سيسكتنى يأسى و فى الصدر حاجةكما أنطقتنى و الرجال المطامع

بضائع قول عند غيرى ربحهاو عندى خسراناتها و الوضائع

غرائب لو هدّت على الطود ذى الصّفاأصاخ اليها يذبل و القعاقع

تضاع كما ضاعت خلاة بقفرةزفتها النّعامى و الرياح الزعازع

كأن لسانى نسعة حضرميةطواها و لم يبلغ لها السوم بائع

لقد كان لى عن باحة الذل مذهبو مضطرب عن جانب الضيم واسع

و ما مدّ ما بينى و بين مذاهبىحجاز و لا سدّت علىّ المطالع

سيدرى من المغبون منا و منكمإذا افترقت عما نقول المجامع

و هل تدّعى حفظ المكارم عصبةلئام و مثلى بينها اليوم ضائع

نعم لستم الأيدى الطوال فعاونواعلى قدركم قد تستعان الأصابع

إذا لم يكن و صلى إليكم ذريعةفيا ليت شعرى ما تكون الذرائع

أرى بارقا لم يرونى و هو حاضرفكيف أرجّى ريّه و هو شاسع

سأذهب عنكم غير باك عليكمو ما لى عذر أن تفيض المدامع

و أعتدّ فجا أنتم من حلالهثنيّة خوف ما له اليوم طالع

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۹۲ و ما موقفى و الركب يرجى على الصدىموارد قد نشّت بهن الوقائع

أفارقكم لا النفس و لهى عليكمو لا اللبّ مخلوس و لا القلب جازع

و لا عاطفا جيدى اليكم بلفتةمن الشوق ما سار النجوم الطوالع

و لا ذاكرا ما كان بينى و بينكمراجعة، إن المحب المراجع

نبذتكم نبذة المخفّف ثقلهو إنى لحبل منّه الغدر قاطع

أيها السادة:

ذلكم مقام الشريف الرضى بين شعراء القرن الرابع، و تلكم شكواه من جماهير الناس فى بغداد، فليته يعود اليوم ليرى كيف تعطفون عليه بعد مئات السنين، و كيف تتوجعون لما كان يتوجع، و كيف تشفقون عليه إشفاق الأكرمين من الأوفياء.

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۹۳

أعوام البؤس فى حياة الشريف

أيها السادة:

أحدثكم هذه الليلة عن أعظم حادثة أثّرت فى حياة الشريف، و أضرمت النار فى صدره، و بصّرته بحقائق الدنيا و خلائق الناس.

و هذه الحادثة تفسر لكم إلحاح الشريف فى مدح أبيه، و التشوق اليه، بطريقة لم تعرف عن أحد من الشعراء.

هذه الحادثة هى اعتقال أبيه و حبسه فى قلعة فارس من سنة ۳۶۹ إلى سنة ۳۷۶.

و قبل ان نفصّل أسباب هذه الحادثة نذكر ان الرضى ولد فى أيام كانت تفيض بالنكبات، و تعجّ بالدماء، فقد حدث و هو صبىّ فى المهد أن ثارت الفتن بين الديلم و الاتراك ثورة عادت على بغداد بأعظم الفجائع، و أبيحت مدينة الكرخ فدام فيها الحريق اكثر من اسبوع، و أحرق الرجال و النساء فى الدور و الحمامات، و تقدم أبو احمد الموسوى والد الرضى لمخاطبة العباس بن الحسين وزير بختيار و محاسبته على ما وقع فى الكرخ، فغضب الوزير و صرفه عن النقابة، و كانت يومئذ أعظم منصب يتولاه الاشراف.

و ما كاد الشريف يدرك كيف يبتسم لأبويه و هو فى المهد حتى وقع حادث انكشفت به الخلافة الاسلامية أبشع انكشاف: فقد وردت الاخبار إلى بغداد بأن الروم غزوا نصيبين فملكوها و أحرقوها و قتلوا الرجال و سبوا الذرارى، ثم ورد ناس من ديار ربيعة و ديار بكر مدينة بغداد و استنفروا المسلمين فى المساجد و الاسواق، و خوّفوا البغداديين عواقب

عبقرية الشريف الرضى، ج ۱، ص: ۹۴

ما يتطلع اليه الروم من غزو العراق، و قامت مظاهرة هائلة توجهت إلى قصر الخليفة المطيع للّه، و حاول المتظاهرون الهجوم عليه، و قلعوا طائفة من نوافذ القصر، فأغلقت دونهم الابواب بعد ان كادوا يصلون إلى الخليفة، و لكنهم لم ينصرفوا حتى اسمعوه افحش السباب.

و فى تلك اللحظة الحرجة تقدم بختيار يطالب الخليفة بما عنده من المدخرات ليستعين بها على غزو الروم، فأجاب الخليفة:

«إن الغزو يلزمنى إذا كانت الدنيا فى يدى و إلىّ تدبير الاموال و الرجال، و أما الآن و ليس لى منها إلا القوت القاصر عن كفايتى، و الدنيا فى أيديكم و ايدى اصحاب الأطراف، فما يلزمنى غزو و لا حج و لا شىء مما تنظر الائمة فيه، و إنما لكم منى هذا الاسم الذى يخطب به على منابركم تسكّنون به رعاياكم، فإن أحببتم ان اعتزل اعتزلت عن هذا المقدار ايضا و تركت لكم الأمر كله» و لكن هذا الجواب على ما فيه من فضيحة الخليفة لم يرض بختيار:

فما زال يوعد و يهدّد حتى اضطر الخليفة المطيع للّه إلى بيع ثيابه، و بعض انقاض داره ليجمع اربعمائة ألف درهم يسلم بها من غضب بختيار الذى اخذ من الخليفة و من الناس ما اخذ و لم يخط خطوة واحدة فى قتال الروم! و قد تجلت هذه البلايا عن قوتين تخاصمان بنى بويه: قوة الخلافة إن بقيت لها قوة، و قوة أبى احمد الموسوى الذى عزله وزير بختيار عن نقابة الاشراف.

و بعد سنتين من ذلك التاريخ سنة ۳۶۳ شبت الثورة بين الترك الديلم مرة ثانية، فسفكت الدماء، و أحرقت مدينة الكرخ حريقا ثانيا بعد

عبقرية الشريف الرضى، ج ۱، ص: ۹۵

الحريق الاول، و عانت بغداد اهوالا اسود من قطع الليل .. و لستم فى حاجة إلى من ينبهكم إلى خطر هذه البلايا و آثارها السود فى تشتيت الأواصر و تمزيق الصلات فما كانت الفتن تأخذ وقودها كله من الترك و الديلم، و إنما كانت تمدّ ضريمها فتنتهب ما تشاء من سواد الناس فى ارجاء العراق، و كانوا فريقين: فريقا يشايع الديلم و فريقا يناصر الأتراك و فى سنة ۳۳۶ قامت الحرب بين بختيار و عضد الدولة، و كانت لهذه الحرب نتائج دميمة فى تمزيق البصرة، فقد انضمت مضر إلى عضد الدولة و انضمت ربيعة إلى بختيار، و لم يكن يهمّ ربيعة أن ينتصر بختيار، و إنما فعلت ذلك طوعا للاحقاد الموروثة بينها و بين مضر، و كذلك استفحلت الثورة فأحرقت المحالّ، و انتهبت البضائع، و انتهكت الحرمات.

و فى تلك الأزمنة العصيبة نرى اسم أبى أحمد الموسوى بين الأسماء، و لكن فى أى صف؟ فى صف بختيار لا صف عضد الدولة، بختيار الذى عزله عن نقابة الأشراف منذ سنين، و ما نقول إن أبا أحمد الموسوى امتشق الحسام فى سبيل بختيار، و إنما قبل أن يكون رسول بختيار إلى عضد الدولة فى مطلب لم يكن يراه عضد الدولة لائقا بالملوك: فقد كان صورة دميمة من صور الشهوات.

ثم دارت الدائرة على بختيار و انتهى أمره بالقتل، و خلع الخليفة المطيع و تولى ابنه الطائع، و نال عضد الدولة من الهيبة و القوة ما فرض على الخليفة الجديد أن يمنحه خصائص لم يظفر بمثلها أحد من قبل.

و كان الظن أن يستوحش عضد الدولة من أبى أحمد الموسوى لسابقة

عبقرية الشريف الرضى، ج ۱، ص: ۹۶

اتصاله بعدوّه الغادر بختيار، و لكن رأيناه يعتمد عليه فى بعض شؤونه حين جدّت الحرب بينه و بين المسيطرين على الأقطار الشامية، فنفهم أن عضد الدولة يرى فى أبى أحمد قوة أدبية يحسب لها حساب، و تغفر لصاحبها بعض الذنوب.

فما الـذى جـدّ من الامور حتى نفض عضد الدولة يده من أبى أحمد و قضـى على أملاكه بالمصادرة، و على شـخصه و شـخص أخيه بالقبض و الاعتقال؟

هناك أسباب كثيرة لم تفصّلها كتب التاريخ، و إنما فهمناها من ملامح الحروف و نحن نستخبر ما سطّر المؤرخون عن ذلك العهد، و يكفى أن نشير إلى كلمة عضد الدولة و هو يقول لمن سأله العفو عن أبى الصابى:

«أمـا العفو عنه فقـد شـفّعناك له عن ذنب لم نعف عمـا دونه لأهلينـا- يعنى الـديلم- و لاـ لأولاد نبينا صـلّى اللّه عليه و سـلّم- يعنى أبا الحسن محمد بن عمر و أبا أحمد الموسوى و أخاه- و لكنا وهبنا إساءته لخدمته».

و من هذه الكلمة نفهم أن عضد الدولة كان نقم على أبى احمد الموسوى أشـياء دعته إلى المبادرة باعتقاله، و مصادرة أملاكه ليكون عبرة لغيره من الرؤساء.

و هنا تبدأ أعوام البؤس فى حياة الشريف الرضى، ذلك الطفل الذكى النبيل الذى يواجه مكاره الحياة و هو ابن عشر سنين.

و ما ظنكم بطفل يتوقّـد غيرة و حماسـة، و يقبل على الدرس إقبال الرجال فيصل النهار بالليل فى درس العلوم العقلية و النقلية، و يأوى إلى بيت عامر بالكرم و الجود تعجّ أرجاؤه بأصوات الخدم و الحاشـية، و يرى أباه فى الصباح و المساء و هو عماد المكروبين، و غياث الملهوفين، و يرى أساتذته يبالغون فى إكرامه لأنه ابن النقيب، ما ظنكم بطفل هذه أحواله

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۹۷

يمسى بعافية ثم يصبح فيرى البيت اللب، ذاهل العقل، أن أباه جرد من الحول و الطول، و ألقى به فى غياهب الاعتقال.

دعوا جانبا ما حـدثتكم به فى المحاضـرة الماضـية من أن شـهرة المتنبى هى التى أطعمت هذا الفتى فى الشـعر و أنطقته به و سـنّه فوق العشـر بقليل، فأصـدق الرأى أيها السادة، أن هذه النكبة هى التى خلقت ذلك الشاعر فى يوم واحد رجلا ينظر إلى الدنيا بعين الكهول و هو فى سن الاطفال.

إن من العسـير أن تتصوروا النبوغ الشـعرى فى طفـل عرير، لاـنكم تعيشون فى أزمـان لا تعرف الشـقاء، أزمان يكون فيها من النبوغ أن يحفظ الطفل قصـيدة و هو ابن عشر سنين، و لكن يسهل عليكم تخيّل ذلك حين تتذكرون كيف كان حال الشريف الرضى حين نقل أبوه منفيا إلى فارس، حين تتصورون كيف أمسـى ذلك الطفل فقيرا ذليلا بعـد الغنى و العزة، حتى صـح لبعض أساتـذته أن يهبه دارا يسكنها.

و ما أظلم الأيام التى تحوج طفلا مثل الشريف إلى قبول هذه الهدية بعد تمنّع و إباء. تصوروا حال الشريف و هو يحاور أستاذه فيقول: برّ أبى فكيف أقبل بركّ؟! فيجيب الاسـتاذ و هو يتوسل اليه: إن حقى عليك أعظم من حق أبيك! اى و اللّه! إن حق الاستاذ أعظم من حق الوالـد، و لكن القسوة هى فى تلك الحال، حال الطفل الـذى تروضه الأيام على أن يلقى أساتـذته و هو غنىّ الرأس، فقير الجيب! كانت هذه الحادثة مشئومة على الشريف الرضى و إن أحسنت فى إيقاظ ما غفا من مشاعر ذلك الطفل النبيل.

كانت مشئومة لأنها سدت عليه منافذ القول فى هجاء عضد الدولة

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۹۸

و حرمته اللذة الطبيعية، لذة التشفى بالهجاء و السّباب: لأن عضد الدولة أخرسه و أخرس جميع أهل العراق، و سكت الطالبيون أنفسهم فلم يرتفع لهم صوت فى وجه ذلـك «المسـتبد» الـذى أودع نقيبهم غيابـات السـجن و الاعتقـال! فـإن سألتم: و كيف صـح ذلك؟ فإنا نجيبكم بأن عضـد الدولـة شـغل الناس جميعا بشواغل شـريفة كان لها أحسن الوقع فى أنفس الأعداء قبل الاصدقاء، فقد أمر بعمارة ما هـدمته الثورات من مرافق بغـداد، فأعيـدت المنازل و المساجد و الأسواق، و أدرّت الارزاق على القوّام و الائمة و المؤذنين و القرّاء، و أقيمت الجرايات لمن يأوى إلى المساجد من الغرباء و الضعفاء، و ألزم أرباب العقارات التى احترقت فى ايام الفتنة بإعادتها إلى احسن احوالها من العمارة و الزينـة، فمن قصّـرت يـده عن ذلك اقترض من بيت المال ليرتجع منه عند الميصـرة، و من لم يوثق منه بذلك أو

كان غائبا أقيم عنه وكيل و أطلق له ما يحتاج اليه، فأصبحت بغداد بعد مدة يسيرة و هى أحسن مما كانت عليه من قبل.

ثم مضى عضد الدولة فى تجميل شواطىء دجلة مما يساير بغداد فقضى بأن تقوم عليها عمارات المنازل و نضيرات البساتين.

و تلفّت فرأى بغداد كانت ترويها انهار كثيرة ثم قضت عليها الثورات- انهار تنقل ماء دجلة إلى سكان بغداد، تشبه القنوات التى كانت تنقل ماء النيل إلى سكان الفسطاط- تلفّت عضد الدولة فرأى اهل بغداد يشربون مياه الآبار و هى ثقيلة، او يتكلفون حمل الماء من دجلة من مسافات طويلة، فأمر بحفر الانهار القديمة، و اقام عليها القناطر ليجتاز عليها النساء و الاطفال و الضعفاء.

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۹۹

و نظر فرأى جسر بغداد قد ضعف بحيث لا يجتاز عليه إلا المخاطر بنفسه، لا سيما الراكب لشدة ضيقه و ضعفه و تزاحم الناس عليه، فاختار له السفن الكبار المتقنة و عرّضه حتى صار كالشوارع الفسيحة و حصّنه بالدرابزينات و وكل به الحفظة و الحراس.

و امتدت نظراته الاصلاحية فشغل نفسه بالفلاحين و اقام لهم قناطر الانهار و ساعدهم على استنبات الأرض و إقامة البساتين: فشعر العراقيون بأنهم خلقوا من جديد.

و لم يكفه كل ذلك بل مضى فأنشأ المستشفيات لمداواة المرضى من الفقراء و رفع الجباية عن قوافل الحجيج، و امّن الطريق إلى الحج و اقام فيه المناهل و افاض الينابيع، و حمل الكسوة إلى الكعبة، و اطلق الصلات لأهل الشرف و المقيمين بالمدينة و غيرهم من ذوى الفاقة. و هدته السياسة الرشيدة إلى إصلاح المشهدين بالغرى و الحائر و إصلاح مقابر قريش، فاشتركت الناس فى الزيارات و المصليّات، و كادوا ينسون ما توارثوه من العداوات. و هدته السياسة ايضا إلى بسط الرسوم للفقراء و للفقهاء و المفسرين و المتكلمين و المحدّثين و النسّابين و الشعراء و النحويين و العروضيين و الأطباء و المنجمين و المهندسين.

تلكم ايها السادة خلاصة ما صنع عضد الدولة فى مدينة بغداد و ارجاء العراق.

فماذا يصنع الشريف لو فكر فى هجاء رجل مثل هذا الداهية! ماذا يصنع و قد تطوع اهل بغداد انفسهم لخلق الأساطير و الأقاصيص فى الاشادة بأعمال هذا المصلح العظيم.

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۰۰

ماذا يصنع و الالسنة كلها تلهج بالثناء على عضد الدولة و تراه اشرف من شهدت بغداد بعد عصور المصلحين من الخلفاء.

ماذا يصنع فى هجاء ملك «حمى البلاد من كل مفسد، و حفظ الطرق من كل عائث، و هابه الحواضر و البوادى ».

لقد نسى الناس ابا احمد الموسوى و نسوا اخاه، فليظلّا فى غياهب الاعتقال، و ليشرب الشريف الرضى كؤوس الصاب و العلقم إن شاء.

و لكن عضد الدولة سيموت كسائر الاحياء، و قد مات فى الثامن من شوال سنة ۳۷۲، فماذا يصنع الشريف الرضى و قد وصل اليه هذا النبأ «السعيد».

كان فى ذلك العهد شابا مراهقا يجاوز الثلاث عشرة بقليل، و لكنه كان يفهم ان موت عضد الدولة لن يكون باب الفرج لأبيه، لانه كان يرى الظروف السياسية لا تزال حالكة السواد، و كان يدرك ان ابناء عضد الدولة سيجرون على سنة ابيهم فى معاملة من كان يعادى او يصادق من الرجال.

فلم يبق إلا ان يخاطب اباه بهذه الابيات:

أبلغا عنى الحسين ألوكا ان ذا الطود بعد عهدك ساخا

و الشّهاب الذى اصطليت لظاهعكست ضوءه الخطوب فباخا

و الفنيق الذى تدرّع طول الأرض خوّى به الردى فأناخا

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۰۱ إن ترد مورد القذى و هو راضفبما يكرع الزلال النقاخا

و العقاب الشّغواء اهبطها النّيقو قد ارعت النجوم سماخا

اعجلتها المنون عنا و لكن خلّفت فى ديارنا افراخا

و على ذلك الزمان بهم عادغلاما من بعد ما كان شاخا

هذا كل ما استطاع الشريف ان يقوله يوم مات عضد الدولة، فهو يراه فنيقا هلك، و شهابا هوى، و جبلا ساخ، و لكنه يتخوف العواقب: لان تلك العقاب تركت افراخا من الجوارح عاد بها الزمان غلاما بعد ان كان اكتهل و شاب.

و الواقع ان الشريف الرضى عجز عن اعلان الشماتة بالقصائد الطوال، لأن موت عضد الدولة احاطت به قوتان: قوة الرأى العام، و قوة ابنه صمصام الدولة.

اما قوة الرأى العام فتمثّلها الكلمات التى قالها اقطاب البيان فى ذلك الحين و قد سجلها التوحيدى فقال: لما صحت وفاة عضد الدولة كنا عند ابى سليمان السجستانى، و كان القومسى حاضرا و النوشجانى و ابو القاسم غلام زحل و ابن المقداد و العروضى و الاندلسى و الصيمرى فتذاكروا الكلمات العشر المشهورة التى قالها الحكماء العشرة عند وفاة الاسكندر.

فقال الاندلسى: لو تفوّه مجلسكم هذا بمثل هذه الكلمات لكان يؤثر عنكم.

فقال ابو سليمان: ما احسن ما بعثت عليه. اما انا فاقول: لقد وزن هذا الشخص الدنيا بغير مثقالها، و اعطاها فوق قيمتها، و حسبك انه

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۰۲

طلب الربح فيها فخسر روحه.

و قال الصيمرى: من استيقظ للدنيا فهذا نومه، و من حلم بها فهذا انتباهه و قال النوشجانى: ما رأيت غافلا فى غفلته و لا عاقلا فى عقله مثله، لقد كان ينقض جانبا و هو يظن أنه مبرم، و يغرم و هو يظن أنه غانم.

و قال العروضى: أما إنه لو كان معتبرا فى حياته، لما صار عبرة فى مماته، و قال الأندلسى: الصاعد فى درجاتها إلى سفال، و النازل من درجاتها إلى معال.

و قال القومسى: من جدّ للدنيا هزلت به، و من هزل راغبا عنها جدّت له، انظر إلى هذا كيف انتهى أمره، و إلى أى حضيض وقع شأنه، و إنى لا أظن ان الرجل الزاهد الذى مات بالشونيزية أخفّ ظهرا و أعزّ ظهيرا من هذا الذى ترك الدنيا شاغرة، و رحل عنها بلا زاد و لا راحة.

و قال غلام زحل: ما ترك هذا الشخص استظهارا بحسن نظره و قوته، و لكن غلبه ما منه كان، و بمعونته بان.

و قال ابن المقداد: إن ماء أطفأ هذه النار لعظيم، و إن ريحا زعزعت هذا الركن لعصوف و هذه الكلمات- و إن كان ظاهرها الشماتة- تمثل قوة الرأى العام أصدق تمثيل، فهم كانوا يرون عضد الدولة شبيها بالاسكندر الذى دوّخ عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۰۳ ممالك الارض، وطئت حوافر خيله أمنع البقاع فى أرباض الشرق.

و مع أن عضد الدولة لم يملك العراق غير خمس سنين و نصف فقد استطاع أن يملك قلوب العراقيين، و أن يشغلهم بالعلم و الحضارة، و أن ينسبهم ما صنعت عواصف السنين بالأنفس و الاموال.

أما القوة الثانية التى صدمت الشريف الرضى و حرمته لذة التشفى بموت عضد الدولة فهى قوة صمصام الدولة. و كان هذا الملك الجديد على جانب من صحة الرأى فى بداية أمره، فقد أخفى على الناس موت أبيه عضد الدولة إلى أن تستقيم له الامور، فلما تمّ له من ذلك ما أراد أعلن موت أبيه و أعلن فى الوقت نفسه إلغاء الضرائب التى كان فرضها أبوه، و هى ضرائب كان يضجّ منها الناس فى السرّ، و يتهيبون التضجر منها فى العلانية.

و كذلك رأى الشريف الرضى أن الدنيا بالنسبة إليه انتقلت من قبح إلى قبح، و أن سجن أبيه سيطول، فأخفى ضغائن قلبه، و أقبل على شؤونه العاديّة و هو كاسف البال حزين.

و لكن وقع بعد ذلك ما لم يكن فى الحسبان: فقد كان لعضد الدولة ابن آخر هو شرف الدولة، و كان لهذا الإبن رجل من الخواص

يقيم فى بغداد، فلما وصلت اليه الاخبار السرية بأن عضد الدولة مات و أن صمصام الدولة يخفى موته بادر ذلك الرجل و كتب إلى شرف الدولة بموت أبيه. و كان شرف الدولة يقيم بكرمان، فكتم أمره و سار إلى فارس، ثم أعلن موت أبيه و جلس للعزاء و أخذ البيعة على أوليائه و أطلق لهم ما جرت به العادة من العطاء.

و على هذه الصورة ظهرت فى دنيا السياسة لذلك العهد قوتان: قوة

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۰۴

شرف الدولة فى فارس و قوة صمصام الدولة فى العراق.

أما صمصام الدولة فقد اصطنع مذاهب أبيه فكان فى الاغلب يعادى من عادى و يصادق من صادق، و أما شرف الدولة فقد نظر إلى أعمال أبيه بعين المتبصر الرشيد، و كان فى بواكير ما صنع الإفراج عن أبى أحمد الموسوى و أخيه أبى عبد اللّه و جماعة من الأشراف (بعد أن طال بهم الاعتقال، و ضعفت فى خلاصهم الآمال، و كما تطرق النوائب من حيث لا يحتسب، فقد يأتى الفرج من حيث لا يرتقب).

و هنا تحدثكم خواطركم بأن الشريف الرضى اندفع يهدر بالشعر فرحا بنجاة أبيه من غياهب الاعتقال، ثم تأخذ منكم الدهشة كل مأخذ حين تعلمون بأنه طوى فرحه فى صدره و سكت عن هذه القضية زمنا غير قليل.

فما سبب ذلك السكوت البليغ؟

سبب ذلك، أيها السادة، أن صمصام الدولة كان ينقم من أخيه شرف الدولة كل شىء فكان يرى الإفراج عن أبى أحمد الموسوى ضربا من العقوق لعضد الدولة الذى اعتقله و صادر أملاكه، و كان عضد الدولة أساس الميراث للاخوين المسيطرين فى فارس و العراق، و لا بدّ أن يكون الشريف الرضى قد خشى أن يكون عطف شرف الدولة على أبيه سببا من أسباب الوحشة بين أسرته و بين صمصام الدولة القابض على العراق، و كذلك كتم سروره بنجاة أبيه و أخفى عواطفه نحو شرف الدولة إلى أن يزول العبوس من وجه الزمان.

و فى خلال تلك السنين كانت الجفوة متصلة بين شرف الدولة و صمصام الدولة، ثم بلغ الشر أشده فى سنة ۳۷۶ فأغار شرف الدولة على أطايب ما

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۰۵

يملك صمصام الدولة، و هاجت بينهما الحرب، فانتصر شرف الدولة و قبض على أخيه و دخل بغداد دخول الفاتحين.

و باندحار صمصام الدولة صار من حق أبى أحمد الموسوى أن يعود إلى بغداد، و يرى ابنه المحبوب الذى نظم من القصائد فى التوجع لأبيه ما لا ينظم مثله إلا أبرّ الأبناء فى أكرم الآباء. عبقرية الشريف الرضى ؛ ج۱ ؛ ص۱۰۵

ها السادة:

أترونني اضجرتكم بهذه الصفحات الدامية من التاريخ؟

لقد اقذيت عينىّ تحت المصباح ليالى كثيرة لا راجع حوادث تلك السنين و استخلص منها هذه الصفحات، و ما اظننى ظلمت التاريخ حين وجهته على غير ما ينتظر المؤرخون، فقد دوّنوا ما دوّنوا و فهمت ما فهمت، و لكل باحث اسلوب.

و لا ـ يعنينى إلا ـ ان اصل بكم إلى تعرّف نفسية الشريف التى صبغتها اعوام البؤس بالدم النجيع، لا ـ يعنينى إلا ان تعرفوا كيف صح لذلك الرجل ان ينظم عشرات القصائد فى مدح أبيه. و تلك خصلة لا نجدها بهذا الوضوح عند غيره من الشعراء.

إن الأدب، ايها السادة، لا يستطيع ان يستقل عن التاريخ، و كيف و هو من صور التاريخ؟

و قد استطعنا بهذه الجولة السريعة ان نعرف الوان الأيام التى تفتحت فيها عبقرية الشريف الرضى، و فهمنا كيف كان يرى الدنيا بأعين الكهول و هو فى نضرة الشباب. فلنسجل مع ذلك ان الشريف افاد من اعوام البؤس نعمة باقية، فقد احب اباه حبا لم يسمع بمثله الناس،

و صار يتلهف

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۰۶

عليه تلهفا موجعا، و ينظم فيه اشعارا لها رنين الاسجاع، اسجاع الحمائم الباكية فى إثر الأليف المفقود.

و ما كان اعتقال والد الشريف إلا نكبة حلّت بذلك البيت:

فقد ذهبت دنيا اولئك الناس مرة واحدة، إذ سجن سيد البيت، ثم صودرت الأملاك، و تتابعت الرزايا على صورة تنبت الشجى فى اقسى القلوب.

و زاد فى تلك المأساة انها صادفت فتى رقيق الحس، مرهف القلب، شاعر الروح، فصيّرته وترا حنّانا يجيد تصوير الأسى و ترجيع الأنين.

و ضاعف من نكد تلك البلية أن ذلك الفتى كان يرى الكفر اهون من المكسب الخسيس: فساقه التصون إلى الضنك، و لم يبق امامه و امام اخيه غير التصرف فيما كانت تملك امهما الرؤوم، و قد قسا الدهر و عنف فاضطرّ تلك السيدة إلى بيع املاكها و حليّها لتضمن لولديها العزيزين عيش الكفاف إلى أن يمن اللّه على زوجها بالخلاص.

ايها السادة:

لم أرد ان أطيع القلم و انا اكتب هذه المحاضرة فأغزو قلوبكم بالحزن على رجل صار فى ذمة التاريخ، و يكفى ان تعرفوا ان صاحبنا لم يقل الشعر الجيّد و هو ابن عشر سنين إلا لأن الزمن رماه فى طفولته بما يمنح الأطفال عقول الكهول، و سترون فى الليالى المقبلة انه بدأ يشكو الشيب و هو فى سن العشرين «و شيب الرأس من شيب الفؤاد».

و الآن نواجه اشعار الشريف فى مدح ابيه فنقول:

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۰۷

إن الشريف مدح اباه بأكثر من اربعين قصيدة. و اشعاره فى مدح أبيه تنقسم إلى ثلاث طوائف: الطائفة الاولى فى التوجع لأبيه و هو سجين، و الطائفة الثانية فى تهنئة ابيه بالخلاص ورد أملاكه اليه، و الطائفة الثالثة فى تهنئته بالأعياد بعد ان لان الزمان. و لكل طائفة من هذه الاشعار خصائص: فالطائفة الاولى تصور الحزن و الجزع و التفجع، و الثانية يغلب عليها الابتسام و لكنها تفيض بالسمّ الزّعاف فى الثورة على الناس، و الثالثة تخلع على ابيه رداء الملوك: فهو يدخل عليه فى كل عيد بقصيدة كما يصنع الشعراء فى تحية الخلفاء و الملوك.

و قبل ان ندخل فى تحليل هذه القصائد نوجه انظاركم إلى شرح الظاهرة الادبية التى تجدونها فى ديوان الشريف الرضى، فأنتم تذكرون ان جامع الديوان يسمى قصائده القديمة «قواذف» و يذكر فى اغلب الاحيان ان الشريف حذف من تلك «القواذف» اشياء.

و تعليل هذه الظاهرة لا يصعب على من يتذكر الظروف السياسية التى فصلناها فى صدر هذه المحاضرة، فتلك «القواذف» كانت بالتأكيد تمسّ بنى بويه، ثم هذّبت طلبا للسلامة من شر أولئك الملوك.

و ينبغى ايضا ان ننص على خصائص الاشعار التى نظمها الشريف بين ۳۶۹ و ۳۷۶ فهذه القصائد كان يغلب عليها التبرم و الضجر و الاكتئاب، و قد حوّلته الحوادث إلى رجل ودود يعطف على مصائب الناس، لا سيما المنكوبين بقسوة الملوك.

و من شواهد ذلك قصيدته الهمزية إلى صديق حلّت به نكبة، و لم يذكر جامع الديوان ما هى تلك النكبة، و لكننا نفهم انها نكبة سياسية، إذ نراه يقول:

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۰۸ خطوب لا يقاومها البقاءو احوال يدبّ لها الضّراء

و دهر لا يصحّ به سقيمو كيف يصح و الأيام داء

و أملاك يرون القتل غنماو فى الأموال لو قنعوا فداء

هم استولوا على النجباء مناكما استولى على العود اللّحاء

مقام لا يجاذبه رحيلو ليل لا يجاوره ضياء

سيقطعك المثقف ما تمنى و يعطيك المهنّد ما تشاء

بلونا ما تجيء به الليالىفلا صبح يدوم و لا مساء

و هى قصيدة كثيرة الفنون، نقف منها عند قوله فى تعزية ذلك المنكوب.

و ما حبستك منقصة و لكن كريم الزاد يحرزه الوعاء

فلا تحزن على الأيام فينااذا غدرت و شيمتنا الوفاء

فإن السيف يحبسه نجادو يطلقه على القيمم المضاء

و هو بهذه الابيات يمدح السجن، او يتكلف مدح السجن، لأن أباه مسجون.

و فى تلك المدة تدلنا اشعار الشريف على ان ناسا كانوا اجترأوا على شتمه و تجريحه، فكان يتجمّل و يتحلم صونا لنفسه عن التسلح بالسباب، كان يقول:

ما يطلب الدهر و الأيام من رجليعوذ بالحمد إشفاقا على النعم

إذا اقتضته الأمانى بعض موعدهغطّى بستر العطايا عورة العدم

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۰۹ من مدّ معصمه مستعصما بيدىعصمته باخاء غير منجذم

و من أشيّعه يأمن من لوائمهو لو رموه بجرّاح من الكلم

و لو هتكت حجاب الغيب لافتضحتأجفان كل مريب اللحظ متهم

كفى الذى سبنى أنى صبرت لهفاستنصر العذر و استحيا من الجرم

بردى عفيف إذا غيرى لفجرتهكانت مناسح برديه على التهم

إذا العدوّ عصانى خاف حدّ يدىو عرضه آمن من هاجرات فمى

جعلت سمعى على قول الخنا حرمافأىّ فاحشة تدنو الى حرم

و ما نحب ان نطيل فى سرد الشواهد، فهى كثيرة فى الديوان، و يكفى أن ندل على ملامحها بهذه التوجيهات، و إن كان الشريف أفصح عنها أبلغ إفصاح و هو يقول فى مخاطبة الصاحب اسماعيل بن عباد:

فتى سنّه عن خمس عشرة حجةتربّى له فضلا و مجدا و محتدا

فتىّ الصبا كهل الفضائل ..إلى العمر إلا احتلّ فى الفضل مقعدا

تفرّد لا يفشى إلى غير نفسهحديثا و لا يدعو من الناس منجدا

و لا طالبا من دهره فوق قوتهكفانى من الغدران ما نقع الصّدى

سأحمد عيشا صان وجهى بمائهو إن كان ما أعطى قليلا مصرّدا

و قالوا لقاء الناس أنس و راحةو لو كنت أرضى الناس ما كنت مفردا

و نعود فنذكر ان اول قصيدة قالها الشريف فى التوجع لأبيه هى الدالية:

نصافى المعالى و الزمان معاندو ننهض بالآمال و الجدّ قاعد

و قد نظمها و سنّة فوق العشر بقليل، نظمها و هو فى لفح العبارة القاسية التى فاه بها المطهر بن المطهر بن عبد اللّه وزير عضد الدولة حين اعتقل والد الشريف فقد قال: إلى كم تدلّ علينا بالعظام النّخرة!

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۱۰

و كان المنتظر أن تكون هـذه القصـيدة ضـعيفة لانها من نسج شاعر طفل و لكن قسوة الحوادث أمدت الطفل بعقل الكهول، و أضافته إلى فحول الشعراء.

تقع هـذه القصـيدة فى ثمانيـة و سـبعين بيتا، فهو فيها طويل النفس، و قـد عرّض فيها بالخليفـة العباسـى و لوّح له بعظمـة الفاطميين فى مصر، و كان ذلك يومئذ من المحظورات، و انظروا كيف يقول:

و طاغ يعير البغى غرب لسانهو ليس له عن جانب الحق ذائد

شننت عليه الحق حتى رددتهصموتا و فى أنيابه القول راقد

يدلّ بغير اللّه عضدا و ناصراو ناصرك الرحمن و المجد عاضدا

يعيّر ربّ الخير بالى عظامهألا نزّهت تلك العظام البوائد

و لكن رأى سبّ النبيّ غنيمةو ما حوله إلا مريب و جاحد

و لو كان بين الفاطميين رفرتعليه العوالى و الظبّا و السواعد

و فى هذه القصيدة تحدّث الشريف عن سجن أبيه و عمه حديث الحكماء.

و هناك قصائد بلا تاريخ، منها قصيدة:

رأيت المنى نهزة الثائرو سهم العلا فى يد القامر

و قصيدة:

أما ذعرت بنا بقر الخدورو غزلان المنازل و القصور

و قصيدة:

بلاء القلب ناظرهو أنجى الناس كاسره

و قصيدة:

شيمى لحاظك عنا ظبية الخمر ليس الصّبا اليوم من شأنى و لا وطرى

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۱۱

و قصيدة:

لا ترقدنّ على الأذىو اعزم كما عزم ابن موسى

و قصيدة:

وفى بمواعيد الخليط و أخلفواو كم وعدوا القلب المعنّى و لم يفوا

و قصيدة:

بينى و بين الصوارم الهممما ساعد فى الوغى و لا قدم

و قصيدة:

بمجال عزمى يملا الملوانو تضل فيه بوائق الأزمان

و قصيدة:

من لى بر عبلة من البزلترمى إليك معاقد الرحل

فهـذه القصائـد التسع بلاـ تاريـخ، و لكن الـذى يتـذكر ما شـرحناه آنفا يسـتطيع ان يعرف تواريخها بلا عناء، فليجعلها تلاميـذنا فى دار المعلمين العالية مجالا للدرس و التحقيق.

ثم ننظر فنراه نظم ثلاث قصائد سنة ۳۷۴، الأولى قصيدة:

إذا احتبى بالعشب الوادىو انحلّ فيه الواكف الغادى

و الثانية قصيدة:

بغير شفيع نال عفو المقادرأخو المجد لا مستنصرا بالمعادر

و الثالثة نظمها بعد ان سنحت الفرصة بالاجتماع مع أبيه عند قدومه من بلاد تدمر، كذلك يقول جامع الديوان، و لا نعرف ما هو قدوم الشريف من بلاد تدمر، ذلك القدوم الذى يسمح له بالاجتماع مع أبيه فى بلاد فارس؟

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۱۲

و لكن لا بأس من الموافقة على انه استطاع ان يرى أباه فى ذلك العهد، فنحن فى سنة ۳۷۴ و كان صمصام الدولة بدأ يشهد ضعف سلطانه فى العراق.

و فى هذه القصيدة يظهر شىء من البشاشة، فنرى الشريف يتغزل فيقول:

و ماء تشيه الريح كلّ عشيةكما رقم البرد الصّبيغ يمانى

مررت بغزلان على جنباتهفأطلقن دمعى و احتبلن جنانى

و عاجلنى لوم الرفيقين فى الهوىعشية مالى بالفراق يدان

يقولان أحيانا بقلبك نشوةو ما علما أن الفراق سقانى

و كم غادر البين المفرّق من فتىيمسّح قلبا دائم الخفقان

و ما الحبّ إلا فرقة بعد ألفةو إلا حذار بعد طول أمان

و فى هذه القصيدة يعرّض الشريف بمن خذلوه من الأقارب، و يذكر بعض ما لاقى من الخطوب، ثم يمضى إلى مدح أبيه فيقول:

و أبيض من عليا معدّ كأنماتلاقى على عرنينه القمران

إذا رمت طعنا بالقريض حميتهو إن رمت طعنا بالرماح حمانى

يجود إذا ضن الجبان بنفسهو يمضى إذا ما زلّت القدمان

بصير بتصريف الاعنة إن سرىليوم نزال أو ليوم رهان

ترامى به الأيام و هو مصمّمكما يرتمى بالماتح الرجوان

إذا ما احتبى يوم الخصام كأنمايحدثنا عن يذبل و أبان

أبا أحمد أنت الشجاع و إنمانجرّ العوالى عرضة لطعان

و لما غوى الغاوون فيك و فرّجتضلوع على الغل القديم حوانى

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۱۳ نجوت من الغمّاء و هى قريبةنجاء الثريا من يد الدّبران

و غيرك غضّ الذّل من نجواتهو طامن للأيام شخص مهان

و حال الأذى بين المراد و بينهكما حيل بين العير و النّزوان

و كان كفحل البيت يطمح رأسهفألقى على حكم الردى بجران

و هذا تعريض جارح برجال كان يعرفهم الشريف، رجال اضطهدهم عضد الدولة فلم يثبتوا على البأساء، و قهرتهم الحوادث على التنصل من مذابهم السياسية و قد حاولنا أن نتعرف إلى بعض كبار العلويين فى ذلك العهد، و لكنا خشينا أن نظلم الأموات بلا سبب تسنده البراهين، و أول من فكرنا فيه أبو الحسن العلوى، و كان شخصية هائلة تمتلك جماهير الناس فى الكرخ و بغداد أقوى امتلاك، و قد اعتقل مع أبى أحمد الموسوى و صودرت أملاكه فكان فى خزائنه من الذهب مليون دينار، و هو أضخم مبلغ للثروة الفردية فى ذلك الحين، و هذا الرجل سكت عنه الشريف الرضى حين توجّع لأبيه و عمه فهل يمكن الظن بأنه دخل فى مكاتبات سرية مع عضد

الدولة لينعم بالخلاص:

ذلك ظنّ من الظنون لا يقوم عليه دليل، و يكفى أن نسجل أن ذلك الرجل كان له فى تلك العهود مكان مرموق، و أن من المحتمل أن يكون الشريف قصده بذلك التعريض و فى سنة ۳۷۵ نظم الشريف ثلاث قصائد، الاولى قصيدة:

يا دار ما طربت إليك النوقإلا و ربعك شائق و مشوق

و هى من روائع المدائح.

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۱۴

و الثانية قصيدة:

وقف على العبرات هذا الناظرو كفاه سقما أنه بك ساهر

و هى من طلائع الفرح، لأنه نظمها و قد توجّه أبوه من فارس فى صحبة شرف الدولة، و هى قصيدة جرى فيها على مذاهب الشعراء فابتدأها بالتشبيب ثم تخلص إلى مدح أبيه فقال:

أغضيت عن وجه الحبيب تكرماو أريته أن الجفون كواسر

هب لى و حسبى نظرة أرنو بهافمقرها وجه الحسين الزاهر

فلثمّ أبلج إن أهلّ جبينهجمحت إليه خواطر و نواظر

قرب الغمام فعن قريب ينثنىفيبلّ مربعك العريض الماطر

و الثالثة قصيدة:

من الظلم أن نتعاطى الخمارا و قد سلبتنا الهموم العقارا

و قد نظمها حين وصل أبوه و عمه إلى شيراز، و فيها يقول فى تعزيتهما عن ضياع الأملاك:

إذا سالم الدهر نفسيكمافلا حارب الدهر إلا اليسارا

أصابتكما نكبة فانجلتو عاودتما العزّ إلا الديارا

و دهر يردّ علينا العلاء أجدر به أن يردّ الغفارا

ألم تريا من رمته الخطوب يمينا تنازعه أو يسارا

لئن جلتما فى مكرّ الزمانفبوّاكما من مداه العثارا

فما يقرع الدهر إلا الحليمو لا ينكث الخرق إلا الوقارا

تفرّق مالكما فى العداو شخصكما واحد لا يمارى

و هناك قصيدة غير مؤرّخة نظمها الشاعر و أنفذها إلى أبيه قبل

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۱۵

دخوله بغداد بأيام يسيرة على يد بعض أصحابه، فهو كان يعرف معنى التحية تحية الراجع إلى وطنه و هو فى الطريق، كما نرسل برقيات التحية فى هذه الأيام ليفرح بها القادمون و هم على متون البواخر، و هذه القصيدة ليست من الطوال، و لكنها على قصرها تصوّر شوقه إلى أبيه، شوق الطفل المضيّع إلى الوالد العطوف، فهو يذكر كيف تركه أبوه و هو نبت ضعيف و يشير إلى ما صنعت به الأيام فيقول فى آخر القصيدة:

لما ذكرتك عاد قلبى شوقهفبكين عنه مدامع الأقلام

خلّفتنى زرعا فطلت و إنماذاك الغرار نمى إلى الصّمصام

أكدت على الأرض من أطرافهاو تدرّعت بمدارع الإظلام

و عهدتها خضراء كيف لقيتهاأبصرت فيها مسرحا لسوامى

أشكو و أكتم بعض ما أنا واجدفأعاف أن أشكو من الإعدام

ثم يطلع البدر بعد طول الاحتجاب، و يرى الفتى أباه فى بغداد سنة ۳۷۶ و لكن كيف رآه؟ رآه شاحب اللون، هزيل الجسم، قد نالت منه ظلمات الاعتقال، فيتمثله فى حالين: حال البؤس، و حال النعيم، و تزيده أخيلة الماضى المحزن تعلقا بذلك الشيخ الجليل الذى يعود إلى وطنه عود الجراز المفلول.

و لا يعلم إلا اللّه كيف خفق قلب ذلك الفتى حين رأى أباه، فقد كان لا يزال طفلا، و كانت المعانى السّود و البيض تلذع قلبه لذعا عنيفا، و العواطف العاصفة لا يعرفها غير الأطفال.

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۱۶

و لكن قصيدته فى استقبال أبيه تدلنا على بعض ما جاش فى صدره من المعانى، و لننظر كيف يقول:

طلوع هداه إلينا المغيبو يوم تمزّق عنه الخطوب

لقيتك فى صدره شاحباو من حلية العربىّ الشّحوب

إليه تمجّ النفوس الصدورو فيه تهنّى العيون القلوب

تعزّيت مستأنسا بالعبادو الليث فى كل أرض غريب

و أحرزت صبرك للنائباتو للداء يوما يراد الطبيب

لحا اللّه يوما أرانا الدياريندب فيها البعيد القريب

و ما كان موتا و لكنهفراق تشقّ عليه الجيوب

لئن كنت لم تسترب بالزمانفقد كان من فعله ما يريب

رمى بك و الأمر ذاوى النباتفآل و غصن المعالى رطيب

و لما جذبت زمام الزمانأطاع و لكن عصاك الحبيب

و لما استطال عليك الزمامو ذلل فيك المطىّ اللغوب

رجوت البعاد على أنهكفيل طلوع البدور الغروب

رحلت و فى كل جفن دمعليك و فى كل قلب و جيب

و لا نطق إلا و من دونهعزاء يغور و دمع ربيب

و أنت تعللنا بالإيابو الصبر مرتحل لا يؤوب

و سرّ العدافيك نقص العقولو أعلم أن لا يسر اللبيب

أما علم الحاسد المستغرّأن الزمان عليه رقيب

قدمت قدوم رقاق السحابتخطر و الربع ربع جديب

فما ضحك الدهر إلا إليكمذبان فى حاجبيه القطوب

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۱۷

إلى أن يقول:

لحياك منى عند اللقاءخلق عجيب و خلق أديب

و خلفتنى غرس مستثمرفطال و أورق ذاك القضيب

ذخرت لك الغر السائراتيعبّر عنها الفؤاد الكئيب

تصون مناقبك الشاردات‌أن تتخطى إليها العيوب

و إنى لأرجوك فى النائبات‌إذا جاءنى الأمل المستثيب

و فى تلك السنة يظهر لون جديد فى شعر الشريف: هو مدح بنى بويه، و كان من قبل لا يمدح غير الخلفاء. لقد كان ذلك الفتى يبغض بنى بويه بغضا شديدا. و لكن ذلك البغض هدأ بعد أن رأى شرف الدولة الذى أنقذ أباه من الاعتقال.

و كذلك نراه ينظم قصيدة جيدة فى مدح ذلك الملك، و لكنه لا ينسى أن ينص على سبب المدح فيقول:

هذا أبى و الذى أرجو النجاح به‌أدعوه منك طليق الهم و الجذل

لولا ما انفسحت فى العيش همته‌و لا أقرّ عيون الخيل و الخول

حططته من ذرى صمّاء شاهقة‌مرّ الزمان عليها غير محتفل

تلعاء عالية الأرداف تحسبهارشاء عادية مستحصد الطّول

تلقى ذوائبها فى الجوّ ذاهبة‌يلفّها البرق بالأطواد و القلل

و أنت طوقته بالمنّ جامعة قامت عليه مقام الحلى و الحلل

أوسعته فرأى الآمال واسعة‌و كلّ ساكن ضيق واسع الأمل

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۱۸ جذبت من لهوات الموت مهجته‌و كان يطرف فى الدنيا على وجل

و ما كان حساما أغمدته يدثم انتضته اليد الاخرى على عجل

فاقذف به ثغر الأهوال منصلتاو استنصر الليث إن الخيس للوعل

و لا تطيعنّ فيه قول حاسده‌إن العليل ليرمى الناس بالعلل

أولى بتكرمة من كان يحمدهاو الحمد يقطع بين الجود و البخل

كفاك منظره إيضاح مخبره‌فى حمرة الخدما يغنى عن الخجل

تحمّل الشرف العالى و كم شرف‌غطّى عليه رداء العىّ و الخطل

أيها السادة:

لقد زفّت سنة ۳۷۶ أعظم بشرى إلى الشريف، إذ سمح له الدهر برؤية أبيه فى بغداد، و لكن هناك بشرى ثانية، فما هى تلك البشرى؟

أهى ردّ الاملاك التى صودرت بعد الاعتقال؟ هيهات، فلن تردّ الاملاك إلا بعد سنين، فما هى تلك البشرى إذن؟

هى موت المطهر بن عبد اللّه وزير عضد الدولة، و قد شمت الشريف فى موت ذلك الوزير الذى اعتقل أباه و عبّره الإذلال بالعظام النّخرات، عظام أهل البيت.

و أعيذكم أن تؤاخذوا الشريف على الشماتة فى ميت، فللشريف عذره و هو أنه لا يزال فتى غض تبصّره الايام بمقامات الكلام، و موقفنا فى هذه المحاضرات موقف المؤرخ للافكار الادبية، فلا بأس من الاشارة إلى هذا الحادث الذى كنا نتمنى أن لا تزلّ فيه قدم الشريف.

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۱۹

و لكن من الذى يوجب احترام عظام ذلك الميت بعد أن أهان عظام أهل البيت؟ هى غلطة بغلطة، و جزاء سيئة سيئة مثلها، و ليس الشريف من المعصومين.

و فى الحق أنى أنكرت تلك الشماتة، و لو كنت رأيت الشريف الرضى لرجوته تمزيق هذه القصيدة! و من يدرى فلعلى لو كنت مكانه لوقعت فى أقبح مما وقع فيه، و هل للشعراء عقول؟

ابتدأ الشريف تلك القصيدة بمدح أبيه، فلما وصل إلى التعريض بذلك الميت قال:

و جبان لويت عنه فأمسىو جل العين من قراع الرقاد

مستطيرا كأن أهداب جفنيهعلى الناظرين شوك القتاد

لا أقال الإله من خانك العهدو جازاك بغضة بالوداد

ظن بالعجز أن حبسك ذلّو المواضى تصان بالإغماد

قصر الدهر من ذراه و قد كانبتلك الظبّا طويل النجاد

و أذلّ الزمان بعدك عطفيهو قد كان من أعز العباد

كنت ليثا و كان ذئبا و لكنلا تلذّ الأشكال بالأضداد

و تمادى بما جناه على الأيام حتى جنى عليه التمادى

سمحت كفه به للمنايابعد أن لم يكن من بالأجواد

ظن أن المدى يطول و فى الآمالمالا يعان بالأجداد

هكذا تدرك النفوس من الاعداءبرد القلوب و الأكباد

كل حبس يهون عند الليالىبعد حبس الارواح فى الاجساد

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۲۰ و تداركت ما تمنيت و الاحشاءمزورة على الاحقاد

نلت بعضا و سوف تدرك كلاإنما السيل بعد قطر العهاد

ايها السادة:

فى هذا البيت الاخير ترون الشريف يصرّح بأن أباه لم ينل بعودته من فارس كل شىء، و هذا حق، فقد ضاعت من أبى أحمد الموسوى أشياء، ضاعت منه الاعمال الرسمية و كانت من أعظم مظاهر التشريف، و هى نقابة الطالبيين، و إمارة الحج، و النظر فى المظالم، و ضاعت منه الموارد الاساسية للرزق، و هى الاملاك التى صودرت و حرم منها أطفاله منذ سنين أما الاعمال الرسمية فلم تعد اليه بعودته إلى بغداد، و إنما طاولتها الظروف فلم تعد إلا فى سنة ۳۸۰، و كان لرجوع تلك المناصب إلى أبى أحمد الموسوى نشوة طرب رقصت لها أخيلة الشعر فى خواطر الشريف الرضى فاندفع يقول:

أنظر إلى الايام كيف تعودو إلى المعالى الغرّ كيف تزيد

و إلى الزمان نبا و عاود عطفهفارتاح ظمآن و أورق عود

نعم طلعن على العدو بغيظهفتركنه حمر الجنان يميد

قد عاود الايام ماء شبابهافالعيش غضّ و الليالى غيد

إقبال عز كالأسنّة مقبليمضى و جدّ فى العلاء جديد

و علا لأبلج من ذؤابة هاشميثنى عليه السؤدد المعقود

قد فات مطلوبا و أدرك طالباو مقارعوه على الامور قعود

خسأت عيونهم و قد طمحت لهعدد عراض فى العلا و عديد

ما صال إلا انجاب غىّ مظلمو اندقّ من عمد الضلال عمود

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۲۱ يأسو و يجرح فالجراحة عزمةتصمى و آسيها الندى و الجود

سطو و صفح يطرقان عدوّهأبدا و وعد صادق و وعيد

عن أىّ باع فى العلاء رميتملىثا تقيه مقادر و جدود

طاشت سهامكم و فارق نزعهسهم إلى قلب العدوّ سديد

حسدوک لما فات سعیک سعیهم‌صعدا فما نقع الغلیل حسود

و رأوا بوائجها تلوح و ریحهاتسری و عارضها الغزیر یجود

عجل الزمان بها الیک و حطّمت‌بین الضلوع ضغائن و حقود

قد کنت أخشی أن یقول مخبّرکادوا و ما أعطوا المراد فکیدوا

أو أن یقال أقارب نزعت بهم‌ظنن فکلّ بالعقوق بعید

سئلوا العواد فجانبوه فعاودواو ألان إذ ملک الزمام و قیدوا

لولا الألیهٔ منک أن لا تنتضی‌عضبا یقوم مقامه التنفید

لسننت فی الأقوام غیر ملوّم‌ما سنّ یوم ابن الزبیر یزید

الیوم أصحرت الضغائن و انجلت‌تلک الموارن و الجاه السود

و تراجعوا عصبا إلیک و خلفهم‌عنف السباق و للقلوب وئید

فاصفح فسوف ینال صفحک منهم‌ما لا ینال العضب و هو حدید

و هی قصیدهٔ علی جانب عظیم من السلاسهٔ و القوهٔ، و قد سکتنا عن روایهٔ الابیات الخاصهٔ برجوع تلک المناصب، و أثبتنا الابیات التی تعبر عن الثورهٔ علی الأقارب، لان هذه الابیات ستنفعنا فیما بعد، حین نبحث

عبقریهٔ الشریف الرضی، ج۱، ص: ۱۲۲

عن السبب فی شراسته و هو یخاطب الاقرباء.

أما الاملاک التی صودرت فسیطول علیها التفجع، و لکن سیردّ منها جزء فی سنهٔ ۳۸۶ و جزء فی سنهٔ ۳۹۶، و معنی ذلک أن أبا أحمد الموسوی سیظل فی انتظار أملاکه المسلوبهٔ إلی أن تضعفه الشیخوخهٔ و یقضی الزمن علی نور عینیه بالذهاب.

و إنما نعبّر بهذه العبارهٔ الحزینهٔ لنعلّل فرح الشریف برجوع تلک الاملاک فقد کان یری أباه شیخا ضعیفا لا یعرف السبیل إلی مسالک الرزق، و لا تستر شیخوخته إلا برجوع تلک الاملاک.

و هنا نشیر إلی خطأ وقع فیه جامع الدیوان، فقد ذکر أن الشریف هنا أباه برد أملاکه إلیه بأسرها فی سنهٔ ۳۸۶، و الصواب أن تقرن هذه العبارهٔ بالقصیدهٔ التی نظمها سنهٔ ۳۹۶.

فعندنا إذن قصیدتان فی التهنئهٔ بردّ تلک الاملاک: الاولی عینیهٔ و الثانیهٔ دالیهٔ.

أما العینیهٔ فهی قصیدهٔ جزلهٔ تحدث فیها الشریف عن عزمه الوثاب، و بلیته بالاعداء، ثم وجّه الخطاب إلی أبیه فقال:

لیهنک ما تجدّده اللیالیو حسبک من فراق و اجتماع

و ما ردّ الزمان علیک حفظامن الاملاک و المال المضاع

تماری الناس قبلک و هی غصبأ دیوان الضّیاع أم الضّیاع

و عادت فی یدیک مروّضاتو کانت فقع قرقرهٔ بقاع

عبقریهٔ الشریف الرضی، ج۱، ص: ۱۲۳ ظفرت بما اشتهیت و أنت و انو نال البعض غیرک و هو ساع

یبشر و القلوب مفجّعات‌کأن بشیره فی الخلق ناع

و ما کلّ المواهب بالامانیو لا کل الاحاظی بالقراع

لکلّ فی بلوغ العز طبعو بعض الناس مختلف الطباع

و قد ساقه المقام إلی أن یسجل مکرمهٔ شرف الدولهٔ فقال:

أجار أبو الفوارس منک سیفاتحامته یمین أبی شجاع

فدى لك من ينازعك الرزاياو يقرضك الاذى صاعا بصاع

يعضّ أنامل الاسد الضوارىعليك بغيظ أنياب الأفاعى

رعاك بلحظ طرف غير و انو عاج عليك سمعا غير واع

فكنت السيف أغمده جبانفسلّ و قد تصدّى للمصاع

ألان رد العلاء بلا رقيبو شمّر فى الامور و لا تراع

و لا يغررك قعقعة الاعادىفذاك الصخر خرّ من اليفاع

ألان تراجعت تلك الرعاياو جهّزت الرعية للمراعى

و عاد السّرب أمنع من قلوبتقلّب بين أضلاع السباع

و أما الرائية فهى قصيدة مرقصة:

نطق اللسان عن الضميرو البشر عنوان البشير

ألآن أعفيت القلوب عن التقلقل و النفور

و انجابت الظّلماء عنوضح الصباح المستنير

ما طال يوم ملثّمإلا استراح إلى السفور

خبر تشبث بالمسامع عن فم الملك الخطير

و أذلّ أعناق العداذلالمطيّة للجرير

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۲۴ يسمو به قول الخطيبو تستطيل يد المشير

و ضمائر الاعداء تقذفبالحنين على الزفير

و سوابق العبرات تركضفى السوالف و النحور

و هى طويلة و كلها على هذا النسق المرقص.

أيها السادة:

إلى هنا أكتفى بترتيب الحوادث فى مسايرة الشريف و هو يمدح أباه، و يكفى أن ننص على أن ما سنغفله من تهنئة أبيه بالاعياد له دلالة سياسية فهو كان يرى أباه خليقا بأن يهنّأ بالاعياد كما يهنا الملوك و الخلفاء و أريد التهنئة الدورية التى تصاغ فى كل موسم بلا تخلّف، و هى بالتأكيد شارة الرياسة و عنوان السلطان.

أترك هذا الجانب من قصائد الشريف فى مدح أبيه و هى مبثوثة فى الديوان يرجع إليها منكم من يشاء.

ثم أشير إلى قصائد لها قيمة فى بيان المنزلة الاجتماعية لابى أحمد الموسوى.

و يشهد ديوان الشريف بأن الموسوى تلافى الفتنة بين السّنة و الشيعة فى سنة ۳۸۰، فهو على ذلك كان من الزعماء المصلحين، و لم يكن من الزعماء المفسدين.

و الخلاف بين السنة و الشيعة قديم فى العراق، و هو خلاف كان مشئوما من جانب، و ميمونا من جانب، كان مشؤوما لانه قسم العراق إلى جيشين يقتتلان، و كان ميمونا لانه علم العراقيين الجدل و جعلهم من أعرف الامم الاسلامية بأصول المذاهب و الآراء و ربما جاز لى أن أصرح

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۲۵

بأن هذا الخلاف كان سببا فى حياة اللغة العربية: لانه أمدّ التصنيف و التأليف بفنون من القوة و الحيوية، و عاد على الشعر و النثر بأجزل النفع، و للشر مزايا فى بعض الاحيان.

و لكن هذا الخلاف كان فى حاجة إلى من يرعاه و يحوّله الى جدل مقبول يشحذ به الذهن و العقل، و قد استطاع أبو أحمد الموسوى أن يقف مرة موقف المصلح فيحقن الدماء، و يغنم السلامة للاخوان المتخاصمين.

و تظهر قيمة هذا الموقف النبيل اذا تذكرنا أن الخلاف بين السنة و الشيعة كانت تؤرّثه دسائس خارجية، و ما نقول هذا رجما بالظن، و انما عرفنا هذه الحقيقة بعد التعمق فى دراسة الوضع السياسى للنصف الثانى من القرن الرابع، فموقف أبى أحمد الموسوى كان موقف السياسى المحنّك الذى يبصر ما وراء الاكمة من المعاطب و الحتوف.

و قد سجل ابنه ذلك الموقف الصالح فقال:

و خطب على الزوراء ألقى جرانهمديد النواحى مدلهمّ الجوانب

و أضرمها حمراء ينزو شرارهاالى جنبات الجوّ نزو الجنادب

سللت عليه الحزم حتى جلوتهكما انجاب غيم العارض المتراكب

و قد علم الاعداء أنك تحتهغلبت و ما كان القضاء بغالب

و أقشعت عن بغداد يوما دويّهالى الآن باق فى الصّبا و الجنائب

و لولاك علّى بالجماجم سورهاو خندق فيها بالدماء الذوائب

و أنتم تلاحظون أن هذه الابيات تمثل عطف الشريف على بغداد:

فهو يكره أن تكون مسايل دماء.

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۲۶

و الواقع أن الشريف كان قليل الرعاية للعصبية المذهبية، و الظاهر أنه كان حرّ العقل إلى حدّ بعيد: فقد كان يدرس جميع المذاهب الاسلامية ليمدّ عقله بالأنوار التى يرسلها اختلاف الفقهاء، و اهتمامه بمذهب الشافعى معروف، مع أن مذهب الشافعى فى ذلك العهد لم يكن له أنصار أقوياء فى العراق، و إنما كان أنصاره من المصريين.

و يشهد الديوان أيضا بأن أبا أحمد الموسوى سافر إلى فارس للاصلاح بين الملكين: بهاء الدولة و صمصام الدولة، و الإصلاح بين العسكرين:

البغدادى و الفارسى.

و معنى ذلك أن هذا الرجل كان يرجى لتضميد الجروح، و ليس ذلك بالفضل القليل، و لا يعرف قيمة هذا الفضل إلا من يراجع ما دوّن التاريخ من فواجع ذلك الشقاق.

و فى هذا يقول الشريف من قصيدة نظمها فى رمضان سنة ۳۸۷.

سائل عن الطّود لم خفّت قواعدهو كان إن مال مقدار به رجحا

قد جرّبوه فما لانت شكيمتهو حمّلوه فما أعيا و لا رزحا

رموا به الغرض الأقصى فشافههمرّ القطاميّ جلّى بعد ما لمحا

من العراق إلى أجبال خرّمة يا بعده منبذا عنا و مطرّحا

ليس الملوم الذى شدّ اليدين بهيضمم على الصفقة العظمى و قد ربحا

إن أغمدوه فلم تغمد فضائلهو لا نأى ذكره الدانى و قد نزحا

و فى سنة ۴۰۰ مات أبو أحمد الموسوى و سنه سبع و تسعون سنة،

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۲۷

فرثاه ابنه بقصيدة بلغت تسعة و ثمانين بيتا، و هى من الطوال الجياد، نذكر منها قوله فى وصفه بقوة الشجاعة و رصانة البيان:

أنعاك للخيل المغيرة شزّبا خبط المغار بهن من لم يجزم

كالسّرب أوجس نبأة من قانص‌فمضى يلفّ مؤخرا بمقدّم

و اليوم مقذ للعيون بنقعه لا يهتدى فيه البنان إلى الفم

و مقاوم عرض الكلام برودهفيهن بين معضّد و مسهّم

أغضى لها المتشدقون و سلموالهدير شقشقة الفنيق المقرم

بالرأى تقبله العقول ضرورةعند النوائب لا بكيف و لا لم

أيها السادة:

حدثناكم فيما سلف عن الخصومة بين الرضى و المعرى، و قد جاءت الفرصة لتصحيح ذلك، و الفضل فى هذا التصحيح للصديق الكريم سعادة الاستاذ طه الراوى، أعزه اللّه و رعاه، فقد نبهنا إلى المرثية المأثورة التى بكى بها المعرى أبا أحمد الموسوى، و هى تشهد بأن المعرى كان على صفاء مع الرضى و أخيه المرتضى إلى سنة ۴۰۰ و هو لم يقم فى بغداد بعد ذلك غير قليل، و يقول الاستاذ طه الراوى إن من المستبعد جدا أن ينسى الشريف و أخوه هذه المرثية فيسيئان إلى المعرى بسبب عطفه على المتنبى، و بذلك تتبدد الشبهة التى ذكرها مؤرخو الأدب و اعتمد عليها سعادة الدكتور

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۲۸

طه حسين فى كتابه القيم «ذكرى أبى العلاء» . و مطلع مرثية المعرى:

أودى فليت الحادثات كفاف مال المسيف و عنبر المستاف

و فيها يقول فى الثناء على الشريفين:

أبقيت فينا كوكبين سناهمافى الصبح و الظّلماء ليس بخاف

متأنقين و فى المكارم أرتعامتألقين بسؤدد و عفأف

قدرين فى الإرداء بل مطرين فىالإجداء بل قمرين فى الإسداف

رزقا العلاء فأهل نجد كلمانطقا الفصاحة مثل أهل دياف

ساوى الرضىّ المرتضى و تقاسماخطط العلا بتناصف و تصاف

و فى ختامها يقول:

يا لكى سرح القريض أتتكمامنى حمولة مسنتين عجاف

لا تعرف الورق اللّجين و إن تسل‌تخبر عن القلّام و الخذراف

و أنا الذى أهدى أقل بهارةحسنا لاحسن روضة مئناف

أوضعت فى طرق التشرف سامايبكما و لم أسلك طريق العافى

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۲۹

و يحسن أن نشير إلى أن شوقى عارض هذه القصيدة و هو يرثى إسماعيل صبرى، عليهما رحمة اللّه، و قد بلغ شوقى غاية الحكمة إذ يقول:

ما أنت يا دنيا أرؤيا نائمأم ليل عرس أم بساط سلاف

نعماؤك الريحان إلا أنهمسّت حواشيه نقيع زعاف

و الاستطراد على ما فيه من فوائد لا يسمح فى هذا الموطن بأن نوازن بين حضرية شوقى و بدوية أبى العلاء، فلنقف عند هذا الحد من الشؤون المتصلة بولد الشريف، و فيما سلف غناء أىّ غناء.

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۳۰

صلات الشريف الرضى بخلفاء بنى العباس

أيها السادة:

إن محاضرة الليلة أشقتنى كثيرا، و لكنها ستفصل فى أعظم معضلة سياسية تحدث بها من عرضوا لترجمة الشريف: و هى تساميه لتبوء عرش الخلافة الإسلامية و أكاد أجزم بأن هذا المطمح لم يكن إلا خيال شعراء، و لم يجسّمه إلا الادباء الذين يسرهم أن يكون لهم زميل يتطلع إلى المعالى و يتسامى إلى عرش الرشيد و المأمون، و لذلك نرى مؤرخى الادب يشيرون إلى هذه المسألة فرحين متهللين كأنهم ظفروا بكنز مدفون .

و الحق أن الظروف التى عاش فيها الشريف كانت سيئة جدا، و يكفى أنى لا أستطيع اليوم بعد مئات السنين أن أذكر بالتفصيل ما كانت تضطرب به بغداد فى ذلك العهد، لأن تلك السنين العجاف تركت عقابيل حمل الناس أثقالها من جيل إلى جيل.

و أنتم تعرفون أن أشهر من شجعوا الشريف على طلب الخلافة هو أبو إسحاق الصابى، و مع ذلك كان الصابى يشكو الفقر و سوء الحال فلا يملك الشريف أن يعينه بشىء، لأن الشريف كان أفقر من الصابى و إنما كان يتجمل و يستر فقره عن الناس.

و الذى يعيش فى مثل تلك الحال لا يفكر جيدا فى قلب النظام السياسى بحيث يصبح و هو السيد الذى يسيطر على الاقطار العربية و الفارسية.

على أنه لا بأس من تصوير حال الخلافة فى ذلك العهد، لنعرف متى بدأ الشريف يداعب تلك الامنية، و متى انصرف عنها انصراف اليائسين.

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۳۱

عاش الشريف فى عهود ثلاثة من الخلفاء، هم المطيع و الطائع و القادر، و ما يمكن أن نلتفت لأيامه فى عهد المطيع: لأنه كان طفلا لا يحسب له حساب ننتقل إلى عهد الطائع الذى استمر من سنة ۳۶۳ إلى سنة ۳۸۱ و هو عهد كانت فيه الخلافة قوة و همية: لأنّ الديلم كانوا هم المسيطرين على العراق، و كان الخليفة صورة يجيزون بها الاحكام إذ كانت الجماهير فى أعماق قلوبها تحترم الخلفاء، و كان البويهيون لا يرون بأسا من استبقاء تلك الصورة تجنبا لعواطف الاهواء.

و التاريخ يشهد بأن الخلفاء فى القرن الرابع كانوا قد اطمأنوا إلى الحرمان من السلطة التنفيذية، حتى إمارة الحج لم يكن الخليفة يصدر بها مرسوما إلا نص فيه على اسم الملك الذى يحكم و يسود، فقد كتب الصابى على لسان الخليفة المطيع مرسوما بامارة الحج جاءت فيه هذه الكلمات:

«و لما قلّدك أمير المؤمنين النقابة على الطالبيين فبان له فيها محمود سيرتك و ظهر من أفعالك ما يدل على سلامة سريرتك، رأى أمير المؤمنين أن حق العادة التى عوّده اللّه فيها الصلاح، و أجرى له فيها طائر النجاح، أن يزيدك فضلا و إحسانا، و لا يألوك إنعاما و امتنانا: فأنهى معز الدولة أبو الحسين أحسن اللّه حياطته أمر رفاق الحجيج الشاخصة من العراقين، و إيثار تقليد تسييرها إلى الحرمين، و الاعتماد عليك فى حمايتها، و توليك الحرب و الاحداث فيها فوافق رأى معز الدولة أبى الحسين تولى اللّه كفايته الصواب، و وقع عند أمير المؤمنين موقع القبول و الإيجاب» فالخليفة فى هذا المرسوم الدينى ينص على اسم الامير البويهى، لأنه لم يكن يملك غير ذلك.

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۳۲

و هناك عبارة أصرح من هذه العبارة، و هى منشور كتب على لسان الطائع، جاء فيه ان الإمامة لا تصح و لا تسلم إلا برعاية البويهيين.

و قد أخرجت من رسائل الصابى شواهد كثيرة تؤيد ما أقول، و لكن لا موجب لسرد تلك الشواهد، فهذا أمر مفروغ منه، و مسلّم به، و

الـذى اطّلع منكم على كتـاب «تجارب الامم» يرى أن القرن الرابع لم يكن إلا مسـرحا للعراك بين الفرس و الترك، و لم يكن الخلفاء يذكرون إلا من باب الاستطراد، فكأنهم كانوا يعيشون على هامش الحياة.

و لنقل بصـراحة إن الشـريف كان حريصا على الظهور بمظهر الولاء للديلم و الأتراك، لأنه كان يعرف أن الأمر إما أن يكون لاولئك أو هؤلاء و قد سافر مرة إلى الكوفة فتحدث ناس أنه عزم على التوجه الى مصر، فلما رجع إلى بغداد نفى الشبهة بقصيدة مدح فيها بنى بويه و تودد إلى الاـتراك، و لاـ يعلم الاـ اللّه ما فى تلك القصـيدة من عناصـر الصـدق و لكنها شاهـد على ما كان يجب أن يصـطنعه الرجل من السياسة و هو يعيش فى بغداد فى النصف الثانى من القرن الرابع، و اسمعوا كيف يقول:

أفى كل يوم للمطامع جاذب‌يجشّمنى ما يعجز الاسد الوردا

كأنى اذا جادلت دون مطالبى‌أجادل للأيام ألسنة لدّا

أحل عقود النائبات و أنثنى‌و خلفى يد للدهر تحكمها عقدا

اذا ما نفذت السّدّ من كل جانب‌رأيت أمامى دون ما أبتغى سدا

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۳۳ أترك أملاكا رزانا حلومهم حلولا على الزّوراء أيمانهم تندى

كأنك تلقى منهم آجمية مؤلّلة الانياب أو قللا صلدا

و لا يأنف الجبار أن يعتفيهم و لا الحرّ يأبى أن يكون لهم عبدا

اذا ما عدمنا الجود منهم لعلةفلا نعدم العلياء منهم و لا المجدا

نحاسن أقمار الدّجى بوجوههم‌فنبهرها نورا و نغلبها سعدا

تخالهم غيدا اذا بذلوا الندى‌و تحسبهم جنّا اذا ركبوا الجردا

الى أن يقول:

أآل بويه ما نرى الناس غيركم‌و لا نشتكى للخلق لولاكم فقدا

نرى منعكم جودا و مطلكم جداو اذ لا لكم عزّا و امراركم شهدا

و عيش الليالى عند غيركم ردى‌و برد الامانى عند غيركم و قدا

اذا لم تكونوا نازلى الارض لم نجدبها الوادى المطمور و الكلأ الجعدا

و كنت أرى أنى متى شئت دونكم‌وجدت مجازا للمطالب أو معدى

فلم أر من مطلع عن بلادكم‌و لا من مراح للأمانى و لا مغدى

خذوا بزمامى قد رجعت إليكم‌رجوع نزيل لا يرى منكم بدّا

أريد ذهابا عنكم فيردّنى‌إليكم تجاريب الرجال و لا حمدا

و من الواضح أن سيطرة الفاطميين على مصر لم تكن إيذاء مباشرا

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۳۴

للمطيع أو الطائع، و إن كانت طعنـة موجّهة إلى من يسـيطرون على فارس و العراق، و لهذا نرى لغة المشـرق فى ذلك العهد لا تسـمى الخليفـة الفـاطمى «صـاحب مصـر» و إنما تسـميه «صاحب المغرب» و هو تعبير كلّه إيحاء! و نعود فنقول: إن الشـريف أنس كل الانس بالطائع، فكان يمدحه بصدق و إخلاص، و مع أن الطائع كان خليفة يستضعفه البويهيون أشد الاستضعاف، فقد رأى فيه الشريف رجلا عربيا هو البقية من مجد بنى العباس.

و هنا أذكر أن الاسـتاذ عبد الحسـين الحلى أراد أن يشكك فى صدق عواطف الشريف و هو يمدح الطائع، و أنا أرى غير ذلك، أرى أن الشـريف كان يفهم جيـدا أنه يخاطب خليفة بالرغم من فساد الأحوال، و أرى أن مطامع الشـريف فى ذلك العهد كانت تقف عند

استرداد أملاكـ أبيه التى صادرهـا عضـد الدولـة منـذ سـنين، فمن الإسـراف فى حسن الظن بعزيمـة الشـريف أن يقال إنه كان يطلب الخلافة فى ذلك العهد.

فإن لم يكن بدّ من تمجيد الشـريف فيكفى النص على أن عواطفه نحو الطائع كانت خالصة من شوائب الرياء، بخلاف ما أراد الاسـتاذ عبد الحسين.

و من الواجب أن ننص على أن مدائـح الشـريف للطـائع لم تبـدأ إلا بعـد أن اطمأن على خلاص أبيه من الاعتقال، و قرب رجوعه إلى بغداد، أى بعد سنة ۳۷۳، فأقدم قصيدة مدحه بها هى الحائية التى ذم فيها أعداءه ثم تلخص إلى المدح فقال:

نعلّل بالزّلال من الغوادىو نتحف بالنسيم من الرياح

و حاورنا الخليفة حيث تسموعرانين الرجال إلى الطّماح

نوجّه بالثناء له مصوناو نرتع منه فى مال مباح

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۳۵ و سيّال اليدين من العطايامهيب الجد مأمون المزاح

إذا ابتدر الملام ندى يديهمضى طلقا على سنن المراح

أمير المؤمنين أذال سيرىذرى هذى المعبّدة الرزاح

فكم خاض المطىّ إليك بحرايموج على الاماعز و الضواحى

و كم لك من غرام بالمعالىو همّ فى الأمانى و ارتياح

و أيام تشنّ بها المناياعوابس يطّلعن من النواحى

فلا نقل المهيمن عنك ظلّامن النعماء ليس بمستباح

و فى سنة ۳۷۶ مدح الطائع و شكره على تكرمة خصه بها و ثياب و ورق، فقال بعد أبيات:

و إذا أمير المؤمنين أضاف لىأملى نزلت على الجواد المفضل

بالطائع الميمون أمجج مطلبىو علوت حتى ما يطاول معقلى

قرم إذا عرت الخطوب مراحهأدمى غواربها بناب أعصل

متوغل خلف العدوّ و علمهأن الجبان إذا سرى لم يوغل

و إذا تنافلت الرجال غنيمةقسم التراث لها بحد المنصل

ثبت لهجهجة الخطوب كأنماجاءت تقعقع بالشّنان ليذبل

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۳۶ رأى الرشيد و همة المنصور فىحسن الأمين و نعمة المتوكل

آباؤك الغرّ الذين إذا انتموا ذهبوا بكل تطاول و تطوّل

درجوا كما درج القرون و علمهمأن سوف يخبر آخر عن أول

نسب إليك تجاذبت أشياخهطولا من العباس غير موصّل

هذى الخلافة فى يديك زمامهاو سواك يخبط قعر ليل أليل

أحرزتها دون الأنام و إنماخلع العجاجة سابق لم يذهل

طلعت بوجهك غرة نبويةكالشمس تملأ ناظر المتأمل

و هى قصيدة طويلة أسلم فيها الشريف أمره للطائع فقال:

أرجوك للأمر الخطير و إنمايرجى المعظم للعظيم المعضل

و أروم من غلواء عزك غايةقعساء تستلب النواظر من عل

كم رامها منك الجبان فراوغت‌شقّاء يلعب شقها بالمسحل

تدمى قلوب الحاسدين و تنثنى‌فتردد عادية الخطوب النّزّل

ضاق الزمان فضاق فيه تقلبى‌كالماء يجمع نفسه فى الجدول

هذا الحسين إلى علائك ينتمى‌شرفا و ينسب مجده فى المحفل

إلى آخر القصيدة، و الحسين هنا هو أبوه، لا الحسين بن على ابن أبى طالب، و هذه القصيدة صريحة فى أن الشريف كان يؤمن بأن الطائع أسدى إلى أبيه فنونا من المعروف.

و كانت سنة ۳۷۷ من أعوام الخصب بين الرضى و الطائع: فقد مدحه خمس مرات، منها مرتان فى شهر رمضان، الاولى بقدوم الصوم، و هى قصيدة نفض الشريف بها همومه، و شكا بها دهره، إذ يقول:

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۳۷ بلوت و جربت الاخلّاء مدّةفأكثر شىء فى الصديق ملال

و ما راقنى ممن أودّ تملقو لا غرنى ممن أحب وصال

و ما صحبك الادنون إلا أباعداذا قلّ مال أو نبت بك حال

و من لى بخل أرتضيه وليت لى‌يمينا يعاطيها الوفاء شمال

تميل بى الدنيا إلى كل شهوةو أين من النجم البعيد منال

و تسلبنى أيدى النوائب ثروتى‌و لى من عفافى و التقنع مال

إذا عزنى ماء و فى القلب غلةرجعت و صبرى للغليل بلال

أرى كل زاد ما خلا سدّ جوعةترابا و كلّ الماء عندى آل

و مثلى لا يأسى على ما يفوتهإذا كان عقبى ما ينال زوال

كأنا خلقنا عرضة لمنيةفنحن إلى داعى المنون عجال

نخفّ على ظهر الثرى و بطونهعلينا إذا حلّ الممات ثقال

و ما نوب الايام الا أسنةتهاوى الى أعمارنا و نصال

و أنعم منا فى الحياة بهائمو أثبت منا فى التراب جبال

أنا المرء لا عرضى قريب من العداو لا فىّ للباغى علىّ مقال

و ما العرض إلا خير عضو من الفتى‌يصاب و أقوال العداة نبال

و قور فإن لم يرع حقى جاهل‌سألت عن العوراء كيف تقال

و هو سيمدح الطائع بعد ذلك مدحا طيبا، و لكن ما رأيكم فى هذه المقدمات؟ انه يأنس بالطائع كل الانس فيفضى الى بذات نفسه و يشكو أمامه قسوة الفقر و خشونة الزمان.

و هو حين يصل الى مدحه لن يقول: أعطنى مالا، و انما سيقول:

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۳۸ أعطنى منصبا أزل طمع الاعداء عنّى بفتكةفلا سلم الا أن يطول قتال

فإن نفوس الناكثين مباحةو ان دماء الغادرين حلال

و شمّر فما للسيف غيرك ناصرو لا للعوالى ان قعدت مصال

و من لى بيوم شاحب عجاجةأنال بأطراف القنا و أنال

أردنى مرادا يقعد الناس دونهو يغبطنى عمّ عليه و خال

و لا تسمعن من حاسد ما يقولهفأكثر أقوال العداة محال

الى آخر القصيدة، و فى الشهر نفسه هنأه بالمهرجان فمدحه و مدح أصوله من بنى العباس:

يلقى الخطوب و وجهه طلقو يخوضهن و قلبه جذل

تخفى بشاشته حميته كالسم موّه طعمه العسل

من معشر كانت سيوفهم حليا لمن ضربوا و من عطلوا

بالفخر يكسون الذى سلبواو الذكر يحيون الذى قتلوا

أنت الجواد اذا غلا أملو المستجار اذا طغى و جل

و فى هذه القصيدة يصرح بانه ورث محبة الطائع عن أبيه اذ يقول:

ان المجرّد فى هواك فتىلا اللوم يردعه و لا العذل

مثل الحسين فبين أضلعهقلب بغيرك ما له شغل

و بعد ايام هنأه بعيد الفطر، تهنئة شاعر يعرف انه يخاطب خليفة و هى تجمع بين العذوبة و الجزالة، و قد عرّض فيها بخصوم الطائع أعنف

عبقرية الشريف الرضى، ج ۱، ص: ۱۳۹

تعريض، و الذى يهمنا هو الشاهد الآتى:

أعيذ مجدك أن أبقى على طمعو أن تكون عطايای المواعيد

و أن أعيش بعيدا من لقائكم ظمآن قلب و ذاك الورد مورود

مالى أحب حبيبا لا أشاهدهو لا رجای إلى لقياه ممدود

و أتعب القلب فيمن لا وصال لهيا للرجال أقلّ الخرّد الغيد

أكثرت شعرى و لم أظفر بحاجتهفسقّنى قبل أن تفنى الاغاريد

و بعد شهر عزّاه فى عمر بن إسحاق بن المقتدر و كان آخر ولد بقى من ظهر ذلك الخليفة، و هى قصيدة تكثر فيها الحكم و الأمثال.

نؤمّل أن نروى من العيش و الردیشرب لأعمار الرجال أكول

و هيهات ما يغنى العزيز تعزّزفيبقى و لا ينجى الذليل خمول

نقول مقيل فى الكرى لجنوبناو هل غير أحشاء القبور مقيل

دع الفكر فى حب البقاء و طولهفهمّك لا العمر القصير يطول

و لا ترج أن تعطى من العيش كثرةفكل مقام فى الزمان قليل

و من نظر الدنيا بعين حقيقةدرى أن ظلّا لم يزل سيزول

تشيّع أظعان إلى غير رجعةو تبكى ديار بعدهم و طلول

إذا لم يكن عقل الفتى عون صبرهفليس إلى حسن العزاء سبيل

و إن جهل الأقدار و الدهر عاقلفأضيع شىء فى الرجال عقول

و من مات لم يعلم و قد عانق الثرىبكاه خليل أم سلاه خليل

و هذا البيت يشهد بأن الشريف الرضى كان يرتاب فيما يعرف الأموات من أحوال الاحياء.

عبقرية الشريف الرضى، ج ۱، ص: ۱۴۰

و فى العام نفسه عاتبه بقصيدة قوية طاب فيها التشبيب و طاب فيها العتاب و أى تشبيب أعنف من هذه الانفاس الحرار:

خليلى هل تثنى من الوجد عبرةو هل ترجع الأيام ما كان ماضيا

إذا شئت أن تسلى الحبيب فخلّهوراءك أياما و جرّ الليالیا

أعفّ و فی قلبی من الوجد لوعةو لیس عفیفا تارک الحب سالیا

إذا عطفتنی للحبیب عواطفأبیت و فات الذلّ من کان آبیا

و غیری یستنشی الریاح صبابةو ینشی علی طول الغرام القوافیا

و ألقی من الأحباب ما لو لقیتهمن الناس سلّطت الظّبا و العوالیا

فلا تحسبوا أنی رضیت بذلةو لکنّ حبّا غادر القلب راضیا

رعی اللّه من ودعته یوم دابق و ولّیتّ أنهی الدمع ما کان جاریا

و أکتم انفاسی إذا ذکرتهو ما کل ما تخفیه یا قلب خافیا

فعندی زفیر ما ترقی من الحشاو عندی دموع ما طلعن الأماقیا

مضی ما مضی ممن کرهت فراقهو قد قلّ عندی الدمع إن کنت باکیا

و لا خیر فی الدنیا إذا کنت حاضراو کان الذی یغری به القلب نائیا

و لما وصل إلی عتاب الطائع مدحه اجزل المدح ثم قال:

إلی کم أمنّی النفس یوما و لیلةو تعلمنی الأیام ان لا تلاقیا

و کم انا موقوف علی کل زفرةعلیل جوی لو ان ناسا دوائیا عبقریة الشریف الرضی، ج۱، ص: ۱۴۱ أ یسنح لی روضا و أصبح عازبا و یعرض لی ماء و أصبح صادیا

و ما انا- إلا ان اراک- بقانعو إن کنت جرارا إلیّ الأعادیا

ترکت إلیک الناس طرّا و کلّهمیتوق إلی قربی و یهوی مقامیا

علیک علام اللّه إنی لفازعإلیک و إن لم اعط منک مرادیا

و انتم ترون انه یمنّ علی الخلیفة بمدحه منا صریحا، و یقول إنه یترک فی سبیله اقواما کرام الاکفّ، و سنری فیما بعد من هم اولئک الاقوام، و لکن لا بأس من التصریح بأن الرضیّ کان یحب ان یستأثر بمودة الطائع فلا یری فی حضرته احدا من خصومه الألداء، و من شواهد ذلک انه عرف ان بعض خصومه ظفر بمودة الطائع، فأرسل الیه یعاتبه عتاب الانداد فیقول:

و نمی إلی من العجائب انهلعبت بعقلک حیلة الخوّان

و تملکتک خدیعة من قولةغرّارة الأقسام و الأیمان

حقا سمعت و ربّ عینی ناظریقظ تقوم مقامها الاذنان

این الذی اضمرته من بغضهو عقدته بالسر و الإعلان

ام این ذاک الرأی فی إبعادهحنقا و این حمیة الغضبان

سبحان خالق کل لون معجبما فیکم من کثرة الألوان

یوم لذا، وعد لذاک، و هذهشیم مقطّعة قوی الأقران

فالآن منک الیأس ینقع غلتیو الیأس ینقع غلة الظمآن

فاذهب کما ذهب الغمام رجوتهفطوی البروق و ضنّ بالتّهتان

لی مثل ملکک لو اطعت تقنّعیو ذوو العمائم من ذوی التیجان

و لعل حالی ان یصیر إلی علافالدوح منبتها من القضبان

عبقریة الشریف الرضی، ج۱، ص: ۱۴۲ فاحذر عواقب ما جنیت فربمارمت الجنایة عرض قلب الجانی

اعطيتك الراى الصريح و غيره‌تنساب رغوته بغير بيان

و عرضت نصحى و القبول إجازةفإذا ابيت لويت عنك عنانى

و انتم ترون ان هـذه جرأة لو صـدرت فى عهـد خليفـة مثـل الرشـيد لأطـاح رأس الشاعر بلا تردد، و لكن الرضـى كان يثق بأن الطائع يعطف عليه، و كان يثق بأن الطائع لا يملك الامر كله فى بغداد.

و فى سنة ۳۷۸ مدح الطائع بقصيدة تفيض بالوداد، اذ يقول:

يا جميلا جماله ملء عينىو عظيما اعظامه ملء قلبى

بك ابصرت كيف يصفو غديرىمن صروف القذى و يأسن سربى

انت افسدتنى على كل مأمولو اعديتنى على كلّ خطب

فاذا ما أراد قربى مليكقلت قربى من الخليفة حسبى

عزّ شعرى الا عليك و ما زال عزيزا يأبى على كل خطب

أنت ألبستنى العلا فأطلهاأحسن اللبس ما يجلل عقبى

اننى عائذ بنعاك ان أكثر قولى و أن أطوّل عتبى

نظرة منك ترسل الماء فى عودىو تمطى ظلى و تنبت تربى

ما ترجيت غير جودك جوداأيرجّى القطار من غير سحب

لا تدعنى بين المطامع و اليأسو وردى ما بين مرّ و عذب

و فى سنة ۳۷۹ مدحه و عاتبه على تأخير الإذن له فى لقائه بمجلس خاص، و ذلك فى قصيدة طويلة نشير اليها بالمطلع:

 ضربن الينا خذودا و ساما و قلن لنا اليوم موتوا كراما

و فى سنة ۳۸۰ مدحه بعدة قصائد، أهمها القصيدة النونية:

الآن اعربت الظنونو علا على الشك اليقين

و انما كانت اهم قصائده فى تلك السنة بفضل ما نظمت من أجله، فقد كان الطائع تأثر من قصيدة قال فيها الشريف:

متى أنا قائم أعلا مقامو لاق نور وجهك بالسلام

و منصرف و قد أثقلت عطفىمن النّعماء و المنن الجسام

و لى أمل أطلت الصبر فيهلو ان الصبر ينفع من أوامى

و ما خفت النوائب ترتمى بىو قد أقعى بجامحها لجامى

أيعرقنى الطوى و الروض حالو يغلبنى الظما و البحر طام

و لى قربى رؤوم كنت أرجويمينك أن تقرّب لى مرامى

و باب الإذن منى كلّ يومقعقع بالقوافى و النظام

لكم أرجاء زمزم و المصلّىو بطحاء المشاعر و المقام

و أنتم اطول العظماء طولاو أندى فى المحول من الغمام

و ابعد موطنا من كل عارو أمنع جانبا من كل ذام

و أجرى عند مختلف العوالىو أفلج عند معترك الخصام

بآباء مضوا و هم عوارمن القول المهجّن و الملام

و أمّات درجن على الليالىو هن أصحّ من بيض النّعام

الى ان يقول:

ألان جذبت من ايدى الليالىعنانى و اشتملت على زمامى

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۴۴ فما اخشى الزمان و لو تلاقتيداه من ورائى او امامى

اقول: ان الطائع رقّ لهذه القصيدة فأمر بأن يسير الشريف الى داره فى يوم الخميس لعشر بقين من رمضان، و جلس له جلوسا خاصا، و كانت خلع السواد قد أعدت له فجلبت عليه، و زاد الخليفة فى اكرامه فلم يخرج الا و هو مثقل بالهدايا الفاخرات، و قد ظهر أثر ذلك فى النونية اذ يقول:

أترى امين اللّه الامن له البلد الأمين

للّه درّك حيث لاتسطو الشّمال و لا اليمين

و الامر امرك لا فمىوحى و لا قول يبين

لما رأيتك فى مقام يستطار به الركين

و رأيت ليث الغاب معترضا له الدنيا عرين

أقدمت اقدام الذىيدنو و شافعه مكين

فلذاك ما ارتعد الجنان حيا و لا عرق الجبين

و سمت بفضلك غرةتغضى لهيبتها الجفون

و امتدّ من نور النبىّعليك عنوان مبين

و جمال وجهك لى بنيل جميع ما أرجو ضمين

فافيضت الخلع السواد علىّ ترشقها العيون

شرف خصصت به و قددرجت بغصته القرون

و خرجت اسحبها و لىفوق العلا و النجم دون

جذلا و للحساد منأسف زفير او انين

أيها السادة:

الى هنا رأيتم صلات الشريف بالطائع، رأيتم شاعرا يمدح و خليفة

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۴۵

يثيب، فهل يدوم هذا النعيم؟

اخشى ان تكون مدائح الرضى بابا يدخل منه الشر الى قصر الطائع:

فقد اطال فى وصفه بالشجاعة و الجرأة و البطولة، و اطال فى وصف جوائزه و عطاياه، و كان هناك قوم لا يرضيهم ان يكون للخلفاء جاه او مال.

و كذلك تطوع بعض الدساسين و افهم بهاء الدولة ان قصر الخليفة مملوء بالذخائر العظيمة، و زيّن له القبض عليه، فانخدع بهاء الدولة و توهم انه سيظفر بكنوز الارض حين يقبض على الطائع، فأرسل اليه يسأله الإذن بالحضور فى خدمته ليجدد العهد، فأذن له فى ذلك، و جلس له كما جرت العادة، فدخل بهاء الدولة و معه جمع كثير، و لما دخل قبّل الارض بين يدى الخليفة و أجلس على كرسى، و دخل بعض الديلم كأنه يريد ان يقبّل يد الخليفة فجذب الطائع بحمائل سيفه و انزله عن سريره و الخليفة يقول:

«إِنَّا لِلَّهِ وَ إِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ» و فى لحظات معدودات أخذ ما فى دار الخليفة من الذخائر، و نهب الناس بعضهم بعضا، و كاد حبل الامن ينقطع فى بغداد.

و كان الشريف الرضى فى مجلس الخليفة فى تلك الساعة السوداء، فلم يدفع عنه بيد و لا لسان، و إنما لاذ بالفرار ليسلم من عدوان الباغين.

و قد كان موقفه فى هذه الحادثة الشنعاء شبيها بموقف البحترى حين قتل المتوكل، و لكن البحترى كان أشجع و أوفى، فقد دافع عن المتوكل بيديه ثم رثاه بعد ذلك أشرف رثاء، أما الرضى فترك صاحبه لأيدى الغادرين، و كان يملك الدفاع عنه لو شاء، ثم سجل الحادث بقصيدة أطال فيها الغزل و التشبيب، كأن تلك الفاجعة لم تنسه ثورة الوجد و لوعة

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۴۶

الحنين، و لما وصل إلى صميم الموضوع وصف نفسه بالحزم فقال:

إذا ظننا و قدّرنا جرى قدربنازل غير موهوم و مظنون

إعجب لمسكة نفس بعد ما رميتمن النوائب بالأبكار و العون

و من نجائى يوم الدار حين هوىغيرى و لم أخل من حزم ينجّينى

مرقت منها مروق النجم منكدراو قد تلاقت مصاريع الردى دونى

و كنت أول طلّاع ثنيتهاو من ورائى شرّ غير مأمون

من بعد ما كان ربّ الملك مبتسماإلىّ أدنوه فى النجوى و يدنينى

أمسيت أرحم من أصبحت أغبطهلقد تقارب بين العز و الهون

و منظر كان بالسراء يضحكنىيا قرب ما عاد بالضراء يبكينى

هيهات أغترّ بالسلطان ثانيةقد ضلّ ولّاج أبواب السلاطين

«و هذا تعريض جارح برجال كان يعرفهم الشريف، رجال اضطهدهم عضد الدولة فلم يثبتوا على البأساء و قهرتهم الحوادث على التنصل من مذاهبهم السياسية. و قد حاولنا أن نتعرف إلى بعض كبار العلويين فى ذلك العهد، و لكنا خشينا ان نظلم الأموات بلا سبب تسنده البراهين، و أول من فكرنا فيه أبو الحسن العلوى و كان شخصية هائلة تملك جماهير الناس فى الكرخ و بغداد أقوى امتلاك، و قد اعتقل مع أبى أحمد الموسوى و صودرت أملاكه فكان فى خزائنه من الذهب مليون دينار. و هذا الرجل سكت الشريف عنه حين توجع لأبيه و عمه، فهل يمكن الظن بأنه دخل فى مكاتبات سرية مع عضد الدولة لينعم بالخلاص؟ ذلك ظن من الظنون لا يقوم عليه دليل و يكفى أن نسجل أن من المحتمل أن يكون الشريف قصده بذلك التعريض».

و بعد الفراغ من طبع الكتاب وقفنا على نص يؤيد هذا الافتراض

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۴۷

و يشهد بأن أبا أحمد الموسوى و أبا الحسن العلوى كانا عدوين فقد جاء فى تجارب الامم ج ۳ ص ۲۶۷ ما نصه على لسان أحد المضطهدين.

(و جاءنى فى أثناء ذلك الشريف أبو أحمد الموسوى و كان يتهمنى بالميل إلى الشريف أبى الحسن محمد بن عمر و يستوحش منى لأجله).

و لعلكم أيها السادة فى غنى عمن يحدثكم أن بهاء الدولة أظهر أمر الخليفة القادر باللّه و نادى بشعاره فى أسواق بغداد، و كتب على الطائع كتابا بالخلع و تسليم الأمر إلى القادر، شهد فيه الشهود عليه. و الملك للّه الواحد القهار.

و لكن ألا ترون من الظلم أن يقال إن موقف الشريف شبيه بموقف البحترى، و إن الشريف كان يجب عليه أن يدافع عن الطائع كما دافع البحترى عن المتوكل؟

إن الشبه بين الحادثتين لا يتمّ إلا من الوجهة الشكلية، أما من حيث الجوهر فهو مفقود، لأن شخصية المتوكل غير شخصية الطائع، فقد

استطاع بلباقته و براعته أن يقنع العالم الإسلامى بأن الخلافة باقية، و أنها لا تزال تملك مصاير الامور: فترفع من ترفع، و تخفض من تخفض، و كذلك كان الفتك به فى مجلس شراب جريمة يثور عليها أضعف الجبناء.

أما الطائع فتولى الخلافة و هى كالقلب المنخوب لا تثبت أمام عاصفة و لا يحسب لها يوم الروع حساب، و من المؤكد أن الشريف لم ير فيما صنع بهاء الدولة مع الطائع شيئا جديدا، فتلك الصورة المنكرة كانت لها سوابق فى غاية من البشاعة و القبح، فقد صيغت على نموذج الحادث الفظيع الذى وقع للمستكفى باللّه يوم دخل عز الدولة و معه أتباعه، و المستكفى على سرير الخلافة، فقبّلوا الارض بين يديه، ثم تقدم اثنان كأنهما يريدان

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۴۸

تقبيل يده فمدّها إليهما و هو متلطّف مترفق فجذباه و طرحاه إلى الارض و وضعا عمامته فى عنقه ثم جرّاه مهينا ذيلا ليعتقل فى دار عز الدولة.

و من هذا التماثل التام بين ما وقع للمستكفى باللّه و ما وقع للطائع ترون أن الشريف الرضى كان يتوقع هذه الحوادث، و ترون انه كان يعرف ما يصنع فى مثل هذه المواقف و لست استبعد أن يكون الشريف وطّن نفسه على إيثار السلامة إن وقع مثل هذا الحادث، لأن الظروف لم تكن تسمح أبدا بتأليف جيش يحارب الديلم و يناصر بنى العباس.

و القصيدة التى اشرنا اليها منذ لحظات تشهد بذلك، فهى قصيدة رجل يكرثه التضجر و التألم و لا يهتاج للقتال، لأنه كان يعرف ان القتال لا يطلب منه فى مثل تلك الحال.

أضيفوا إلى ذلك انه كان جرّب الحوادث و جربته الحوادث، فكان يذكر بالتأكيدان عضد الدولة اعتقل أباه و صادر أملاكه، ثم نفاه، و مع ذلك لم تسقط السماء على الارض، و لم يمتشق فى سبيله سيف، و لم يبذل فى الدفاع غير قطرات من الدمع. و ما أضيع من لا يحامى عنه أنصاره بغير الدمع! لست من القائلين بأن الشريف لم يكن يهمه أمر الطائع: فذهنى لا يسبغ هذا النوع من الدفاع عن الشريف، لأنى اعتقد أن الشريف كان صادقا كل الصدق فى مودة الطائع، و لعله اصدق علوى مدح العباسيين و أطال عليهم الثناء.

ان الاستاذ عبد الحسين الحلى نظر إلى الشريف من وجهة مذهبية حين حكم بأنه كان يدارى الطائع، أما انا فأنظر الى الشريف، من وجهة إنسانية، و اعتقدان الشريف لم يكن مداجيا و لا مرائيا و لا وصوليا فى

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۴۹

مودته للطائع، و إنما كان يراه بقية من بقايا بنى العباس الذين اذاعوا معانى العظمة فى الامم الاسلامية زمنا غير قليل، و كان يتمنى لو يعتدل الميزان فتصبح الخلافة قوة فعلية ترتفع بها العروبة و تنهار أمامها الشعوبية.

و لست بهذا القول أعطى الشريف ما لم يكن له أهل، لا، فليس من همى ان امنح الشريف ما لا يملك، و إنما اقول هذا القول فرارا من ظلم الشريف فإن شعره يشهد بأنه توجع لنكبة الطائع، و يشهد بانه تألم لنكوله عن الدفاع عنه فى ذلك اليوم المشئوم.

و شاهد ذلك ايها السادة ان الشريف لم يكتف بالقصيدة التى صوّر بها ما وقع فى ذلك اليوم، و انما آذاه و ارمضه ان يرى الطائع مخلوعا يعيش على هامش الحياة بعد ان كان بالامس خليفة يبرم و ينقض، و يعطى و يمنع، و كذلك رأيناه يقول:

إن كان ذاك الطّود خرّفبعد ما استعلى طويلا

موف على القلل الذواهب فى العلا عرضا و طولا

قرم يسدّد لحظهفترى القروم له مثولا

و يرى عزيزا حيث حلّو لا يرى إلا ذليلا

كالليث إلا انه اتخذالعلا و المجد غيلا

و علا على الأقران لامثلا يعدّ و لا عديلا

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۵۰ من معشر ركبوا العلاو أبوا عن الكرم النزولا

كرموا فروعا بعد ماطابوا و قد عجموا أصولا

نسب غدا روّادهيستنجبون لنا الفحولا

يا ناظر الدين الذىرجع الزمان به كليلا

يا صارم المجد الذىملئت مضاربه فلولا

يا كوكب الأحساب اعجلك الدّجى عنا أفولا

يا غارب النّعم العظامغدوت معمودا جزيلا

يا مصعب العلياء قادتك العلا نقضا ذلولا

لهفى على ماض قضىان لا ترى منه بديلا

و زوال ملك لم يكنيوما يقدّر ان يزولا

و منازل سطر الزمان على معالمها الحؤولا

من بعد ما كانت على الأيام مرباۀ زلولا

و الاسد ترتكز القنافيها و ترتبط الخيولا

من يسبغ النعم الجسام و يصطفى المجد الجزيلا

من ينتج الآمال يوم تعود باللّيّان حولا

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۵۱ من يورد السّمر الطوال و يطعم البيض النّصولا

من يزجر الدهر الغشومو يكشف الخطب الجليلا

و تراه يمنع دونناوادى النوائب ان يسيلا

عقّاد ألوية الملوكعلى العلا جيلا فجيلا

هذا و كم حرب تبزّ الاسد سطوتها الغليلا

صمّاء تخرس آلهاالا قراعا او صهيلا

و الخيل عابسۀ تجرّمن العجاج بها ذيولا

اجتاب عارضها و قدرحل المنون به همولا

كالثائر الضرغام و إنلبس الوغى دقّ الرعيلا

صانعت يوم فراقهقلبا قد اعتنق الغليلا

ظعن الغنى غنى و حوّلرحله الا قليلا

ان عاد يوما عاد وجهالدهر مقتبلا جميلا

و لئن مضى طوع المنونمؤمّما تلك السبيلا

فلقد تخلف مجدهعبئا على الدنيا ثقيلا

و استذرت الأيام منفحاته ظلّا ظليلا

و انما نقلنا هذه القصيدۀ على طولها لتروا كيف كان وفاء الشريف فمثل هذه القصيدۀ لا ينظمها رجل متظرف و لا متكلف، و انما ينظمها رجل محزون و قد عالجنا الشعر سنين فرأيناه لا يسلم زمامه لغير الأوفياء، و الشريف فى هذه القصيدۀ وفىّ امين.

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۵۲

و ارجو ان تتذكروا ان هذه القصيدة نظمت فى شعبان من سنة ۳۸۱ اى فى خلال الأيام العصيبة التى اقترف فيها بهاء الدولة ما اقترف، فهى من اظهر الشواهد على جسارة الشريف.

و فى سنة ۳۹۳ مات الطائع بعد أن عاش مخلوعا أكثر من عشر سنين و هو فى رعاية القادر، و هى رعاية وقعت فيها أعاجيب أشارت إلى بعضها كتب التاريخ فهل تغافل عنه الشريف؟ هيهات، فقد رثاه بقصيدتين هما شاهد على ما كان يملك من الشريف و النبل. و فى الاولى يقول:

إن للطائع عندى منّةو حمى قد بلّها لى ببلالى

ليس ينسيها و إن طال المدىمرّ أيام عليها و ليالى

فاتنى منك انتصار بيمينىفتلافيت انتصارا بمقالى

و هذه الأبيات تشهد بأن الشريف كان يتألم لنكوله عن نصرة الطائع يوم الدار، يوم هجم عليه بهاء الدولة و أنصاره المجرمون.

و تلك قصيدة طويلة يراها القارىء فى الديوان، أما القصيدة الثانية فمطلعها:

ما بعد يومك ما يسلوبه السالىو مثل يومك لم يخطر على بالى

و المهم أن نسجل أن الشريف ظلّ يتوجع لنكبة الطائع مدة طويلة، فرثاه بعد ذلك خفية بقصيدة نتخير منها هذه الأبيات:

و مؤمّر نزلوا به فى سوقةلا شكله فيهم و لا قرناؤه

قد كان يفرق ظله أقرانهو يغضّ دون جلاله أكفاؤه

و محجب ضربت عليه مهابةيعشى العيون بهاؤه و ضياؤه

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۵۳ نادته من خلف الحجاب منيةأمم فكان جوابها حوباؤه

شقت إليه سيوفه و رماحهو أميط عنه عبيده و إماؤه

لم يغنه من كان ودّ لو أنهقبل المنون من المنون فداؤه

حرم عليه الذل إلا أنهأبدا ليشهد بالجلال بناؤه

أقنى الحياء تجمّلا لو أنهيبقى مع الدمع اللجوج حياؤه

فاذهب فلا بقى الزمان و قد هوىبك صرفه و قضى عليك قضاؤه

و من كل ما سلف ترون أن الشريف لم يكن مرائيا فى حب الطائع، و انه ندم على أن لم يدفع عنه بيمينه، و انه ظل وفيا له بعد الخلع و بعد الممات.

و الظاهر ان الطائع كان أحسن إلى الشريف و إلى أبيه، و الاحسان يحفظه كرام الرجال و كان الشريف من الأكرمين.

قد تسألون: و ما ذا صنع الشريف بعد خلع الطائع؟

و نجيب بأنه صنع ما يصنع السياسيون، و هل للسياسيين قلوب؟

لقد استقبل الخليفة الجديد بقصيدة شهد فيها أنه جدّد شرف الخلافة العباسية، و جعله موطّدا للبناء الذى وضع قواعده أبو العباس السفاح، و استباح لنفسه أن يخاطب القادر فيقول:

مجد، أمير المؤمنين، أعدتهغضا كنور المورق الميّاس

بعثت فى قلب الخلافة فرحةدخلت على الخلفاء فى الأرماس

و مكيدة أشلى عليك نيوبهاغضبان للقربى القريبة ناس

فغرت إليك ففتّها و تراجعتففرته بالأنياب و الأضراس

ثم مدحه بقصيدة «لمن الحدوج تهزهن الأينق».

و هى القصيدة التى ختمها بقوله:

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۵۴ عطفا أمير المؤمنين فاننافى دوحة العلياء لا نتفرّق

ما بيننا يوم الفخار تفاوتأبدا كلانا فى المعالى معرق

إلا الخلافة ميزتك فإننىأنا عاطل عنها و أنت مطوّق

فقال له القادر: على رغم أنف الشريف! و كانت هذه العبارة فيما يظهر أصل الفرقة بين الرجلين، فانصرف الشريف عن مدح القادر و أسقطه من حسابه، ثم مضى يمدح الوزراء و الملوك و لذلك حديث طويل يضيق عنه الوقت فى هذا المساء.

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۵۵

صلات الشريف الرضى بالوزراء و الامراء و الملوك

ايها السادة:

حدثناكم عن صلات الشريف بالخلفاء، و فى هذه الليلة نحدثكم عن صلاته بالوزراء و الامراء و الملوك. و كنت أستطيع إغفال هذا البحث، أو الاكتفاء بكلمتين موجزتين تفصحان عن جوهر تلك الصلات، و لكنى راعيت الأدب معكم فآثرت الاستقصاء.

و الواقع ان مدائح الشريف ليست كسائر المدائح، لأنه لم يكن يتكسب بشعره على نحو ما كان يفعل بعض الشعراء الذين يفدون من بلاد بعيدة ليبيعوا أشعارهم فى بغداد، و إنما كانت مدائحه شاهدا على اشتباكه فى المعارك السياسية التى كانت تثور فى فارس و فى العراق، فالشريف الرضى شاعر سياسىّ، أعنى أن أشعاره كانت وسيلة إلى أغراضه السياسية، أو عنوان على متابعته لتقلب الأحوال السياسية، فهو شاعر «متحرك» كما يعبّر أهل بغداد فى هذه الايام.

و يجب النص أيضا على ان ممدوحيه لم يكونوا من الاغبياء، فأكثرهم كان يتذوق البلاغة العربية، و أكثرهم نوا من الفتيان البهاليل الذين يهيمون بكرائم المعانى، فليس من المستبعد أن يكون الشريف أنس بأرواحهم و أذواقهم، فطاب له أن يخصهم بالقصائد الجياد.

و المهم عندى أن تعرفوا أن حرص الشريف على الاتصال بالوزراء و الملوك لم يكن حرصا على منفعة رخيصة تقوّم بالدراهم و الدنانير، و إنما كان حرصا على منفعة عالية، هى أن يكون رجلا له شأن فى تصريف

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۵۶

المعضلات السياسية، و قدتم له من ذلك بعض ما أراد، فاستطاع ان يكون صلة الوصل بين الحجاز و العراق و بين فارس و العراق، و بين الشام و العراق و إليكم أسوق بعض الامثال:

كانت إمارة الحج إلى أبى أحمد الموسوى ثم إلى ابنه الشريف الرضى، فهل تظنون أن هذا المنصب كان يضاف إلى هذين الرجلين بفضل الوراثة؟

قد يكون ذلك، و لكنى أرجو أن تصدقونى إذا قلت إن هذا المنصب كان يشترط فيمن يتولاه ان يكون على صلات بالقبائل العربية التى كانت تسد المنافذ إلى البيت الحرام. و التاريخ يشهد بأن أهل العراق و أهل فارس و أهل خراسان انصرفوا عن الحج أعواما كثيرة بسبب الخوف من أشواك الطريق، و كان يتفق فى احيان كثيرة أن تنهب قوافل الحجيج و ان يعود الحجاج إلى بلادهم منهوبين و مجروحين، و لا يكفى ان يقال ان الموسوى كان من الفرسان، و إن ابنه الرضى كان من الفرسان، و إنما يجب ان نفهم ان هذين الرجلين كانا يعرفان قيمة الصداقة فى العلائق «الدبلوماسية» فكانا يتصلان اتصالا ودّيا بأكثر القبائل و ينالان بالسلطة الروحية ما تعجز السيوف.

و قد رأيتم فيما سلف ان الموسوى كان يذهب إلى فارس للسفارة بين الشعبين و ليقيم قواعد الصلح بين الجيش البغدادى و الجيش

الفارسى، و هذا يشهد بأن تسوية الشؤون المعقدة بين فارس و العراق كانت توجب ان يكون فى العراقيين رجال يؤتمنون على الارواح، و يهمهم ان يسود الصفاء بين أمم تفرّقها العنصرية و يجمع بينها الدين.

و كانت اشعار الشريف نوعا من الدعاية للعراق فى زمن لم تكن فيه جرائد و لا- مجلات: فكان يوزّع مدائحه ذات اليمين و ذات الشمال على من

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۵۷

يتوسم فيهم القدرة على إنصاف العراق، و كان ابوه من قبل يصنع الصنيع نفسه بالوسائل الادبية و الدينية، و ذلك أسلوب من التلطف لا- يبرع فيه إلا- الأقلون أترونني أفصحت عما اريد؟ انا اريد ان اقرر ان الشريف كان فى مدائحه للخلفاء و الوزراء و الملوك رجلا سياسيا، و السياسة لا تنافى الصدق فى جميع الاحوال فهو كان يصادق و يعادى فى سبيل وطنه الذى جار عليه الزمان فى تلك العهود.

و كان يحاول ان يغنم لوطنه اصدقاء بين اولئك الذين حوّلوا منادح العراق إلى معسكرات.

و قد حملته هذه الرغبة على ان يفكر تفكيرا جديا فى مصاهرة ابى على وزير بهاء الدولة، و كان بهاء الدولة كما سترون قطب الاقطاب فى ذلك الزمان. و هذه المصاهرة لم تكن إلا وسيلة سياسية، فقد كان يدرك جيدا ان الوزراء فى ذلك العهد كان اليهم زمام الملوك، لانهم كانوا يصلون الى الوزارة بأموالهم و عصبياتهم، و كان اليهم الامر المطلق فى اكثر الشؤون.

و عقلية الشريف كانت عقلية سياسية: فهو يسترخص كل شىء فى سبيل المجد، و يستبيح اشتراء المناصب، و قد اتفق مرة ان يهجم قوم فى حضرته على رجل اسرف فى البذل لينال الوزارة على البديهة:

اشتر العز بما بيعفما العزّ بغال

بالقصار الصّفر إن شئتأو السّمر الطوال

ليس بالمغبون عقلامن شرى عزا بمال

إنما يدّخر المال لحاجات الرجال

و الفتى من جعل الاموالأثمان المعالى

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۵۸

و ما نريد أن نغض من شاعرنا، و إنما نريد أن نصوره على ما كان عليه من أخلاق، و ليس يؤذيه أن نستبيح من التعبير ما استباح.

ثم أقول مرة ثانية إنه كان يريد أن يتزوج زواجا سياسيا، و الزواج السياسى معروف من قديم الأزمان، و قد أباحه الرسول صلّى اللّه عليه و سلّم فدخل فى مصاهرات كثيرة لتصل روحه إلى أشتات القبائل العربية، و ما على الشريف من لوم فى أن يسلك ذلك المسلك المقبول، ليكون صلة الوصل بين فارس و العراق.

و لكنه- وا أسفاه- خاب فى مسعاه! و قد سجّل خيبته الأليمة بقصيدتين: الاولى بائية، و الثانية دالية.

و كان يجب أن نقف طويلا فى تشريح هاتين القصيدتين، و لكن أين الوقت؟ فيكفى أن نذكر أن الشريف شعر بصدمة موجعة حين ضاعت تلك الفرصة الذهبية، و كان للرجل و هو من شعراء الوجدان أن يتألم لضياع البخت من فتاة نشأت فى النعيم. و الحسن المنعّم له مذاق خاص.

و لكنه وقف حسرته على ضياع المطمع السياسى فقال فى مطلع البائية:

أمانىّ نفس ما تناخ ركابهاو غيبة حظّ لا يرجّى إيابها

و وفد هموم ما أقمت ببلدةو هنّ معى إلا و ضاقت رحابها

و آمال دهر إن حسبت نجاحهاتراجع منقوضا علىّ حسابها

ثم قال:

ألا أبلغا عنى الموفّق قولهو ظنّى أن الطّول منه جوابها

أترضى بأن أرمى إليك بهمتىفأحجب عن لقيا علا أنت بابها

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۵۹ و أظما إلى درّ الأمانى فتثنىبأخلافها عنى و منك مصابها

و ليس من الإنصاف أن حلّقت بكمقوادم عزّ طاح فى الجو قابها

و أصبحت محصوص الجناح مهضّماعلىّ غواشى ذلّهُ و ثيابها

تعدّ الأعادى لى مرامى قذافهاو تنبحنى أنّى مررت كلابها

لقد كنت أرجو أن تكونوا ذرائعىإلى غيركم حيث العلا و اكتسابها

فهذى المعالى الآن طواعى لأمركمو فى يدكم أرسانها و رقابها

إذا لم أرد فى عزكم طلب العلاففى عز من يجدى علىّ طلابها

و هـذه الأبيات صـريحهٔ فى أنه لا يبكى ضـياع الحظ من فتاهٔ جميلهٔ كان يشـتهى أن تكون أنس حياته، و إنما هو يبكى فرصهٔ سياسـيهٔ ضاعت بضياع تلك المصاهرهٔ المشتهاهٔ.

و فى القصيدهٔ الثانيهٔ يقول:

لك اللّه ما الآمال إلا ركائبو أنت لها هاد و حاد و قائد

أبى لك إلا الفضل نفس كريمهٔو رأى إلى فعل الجميل معاود

و طود من العلياء مدّت سموكهٔفطالت ذراه و اطمأن القواعد

و إنى لأرجو من علائك دولهٔتذلل لى فيها الرقاب العواند

و يوما يظل لخافقين بمزنهٔرذاذ غواديها الرؤوس الشوارد

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۶۰ لأعقد مجدا يعجز الناس حلّهو تنحلّ من هام الأعادى معاقد

فمن ذا يرامينى ولى منك جنهٔ و من ذا يدانينى ولى منك عاضد

علىّ رداء من جمالك واسعو عندى عزّ من جلالك خالد

فلا تتركنى عرضهٔ لمضاغنيطارد فى أضغانه و أطارد

و لا صدود منك هانت عظائمتشقّ على غيرى و ذلّت شدائد

و لكنك المرء الذى تحت سخطهأسود ترامى بالردى و أساود

و هذا المطمح هو من شواهد الفحولهٔ فى الشـريف، الفحولهٔ الحسـيهٔ و الفحولهٔ المعنويهٔ، و كان شاعرنا يتشهى أن يحكم و يستطيل، و شهوهٔ التحكم و السيطرهٔ من أشرف عيوب الرجال.

أيها السادهٔ:

مـا أحب أن أضـجركم فـأطوف بكم على جميـع مـا دونت من صـلات الشـريف بـالوزراء و الملـوك، و يكفى أن تتضـح الفكرهٔ فى أذهانكم لترجعوا إلى أصولها فى ديوانه حين تشاءون.

و لكن لا بدّ من الوقوف عند مسألتين مهمتين: الاولى صـلات الشـريف بالحمدانيين، و الثانيهٔ صـلاته ببهاء الدولهٔ الذى كان فى زمانه ملك الملوك.

أما صـلاته بالحمـدانيين فلها اصول سياسـيهٔ يعرفها المطلعون على التاريـخ و ربما جاز أن نحكم بأن هواه معهم يرجع أيضا إلى أصول وجدانيـهٔ، فقـد كان يعطف على إحـدى نسائهم، أو كانت إحـدى نسائهم تعطف عليه. و قـد مرت لـذلك إشارهٔ لا نعود اليها فى هذا المساء. و الرجل قد يعطف على أمهٔ بأسرها من أجل امرأهٔ يهواها أو تهواه.

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۶۱

و عواطف الشريف نحو الحمدانيين تظهر فى مراثيه لمن عرف من رجالهم، كأن يقول:

و سرب بنو حمدان كانوا حماتهرعت فيه ذؤبان الليالى العوائث

فأين كفاة القطر فى كل أزمةو أين الملاجى منهم و المغاوث

و أين الجياد المعجلات إلى الوغىإذا غام بالنقع الملا المتواعث

إذا ما دعا الدعوان للبأس و الندىفلا الجود منزور و لا الغوث رائث

يرفّ على ناديهم الحلم و الحجاإذا ما لغا لاغ من القوم رافث

من المطعمين المجد بالبيض و القناملاء المقارى و العريب غوارث

إذا طرحوا عمّاتهم وضحت لهممفارق لم يعصب بها العار لائث

و قد تفجرت عواطف الشريف نحو الحمدانيين و هو يرثى أبا طاهر بن ناصر الدولة، و يظهر أن صداقته لذلك الامير بلغت من نفسه كل مبلغ، فقد رثاه أصدق رثاء، و تفجّع عليه أوجع تفجّع، حتى وقع لقوم من عقيل أن يغضبوا و أن يردّ عليهم الشريف فيقول:

ألام أبى رثيت زافرة كانوا نجوم الفخار أو لمعه

إن لا تكن ذى الاصول تجمعنايوما فإن القلوب مجتمعه

كم رحم بالعقوق نقطعهاو رحم الود غير منقطعه

و للشريف فى ذلك الامير مرثيتان، الاولى دالية:

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۶۲ تفوز بنا المنون و تستبدّو يأخذنا الزمان و لا يردّ

و أنظر ماضيا فى عقب ماضلقد أيقنت أن الامر جدّ

ثم يخاطب المبكىّ فيقول:

أ إبراهيم أما دمع عينىعليك فما يعد و لا يحدّ

يغصّص بالاوائل منه طرفو يدمى بالاواخر منه خدّ

بكيتك للوداد و رب باكعليك من الاقارب لا يودّ

و إن بكاء من تبكيه قربىلدون بكاء من يبكيه ود

ثم يقول فى تحقير من قتلوه:

قتيل فلّه ناب كهامو كان العضب ضوّاه الفرند

و ذلّ بذل قاتله فأضحىلقاتله به عزّ و مجد

فيا أسدا يصول عليه ذئبو يا مولى يطول عليه عبد

و القصيدة كلها على هذا النسق الطريف.

أما القصيدة الثانية فهى اعجوبة فى الجودة و الرصانة و الخيال، و سنعود إلى درسها حين نتكلم عن المراثى فى السلسلة الثانية من هذه المحاضرات.

قلت إنى لن أطيل الحديث عن صلات الشريف بالوزراء و الامراء و إنى سأنتقل من كلامه عن الحمدانيين إلى وفائه لبهاء الدولة، و لكن لا بدّ من تذكير القارىء بان هناك شخصيات سياسية عرضنا لها فى مواطن مختلفة من هذه المحاضرات، أمثال شرف الدولة و عبد العزيز بن يوسف و الصاحب بن عباد.

و قبل أن نواجه الحديث عن بهاء الدولة نذكر أن الشريف كان له

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۶۳

ذوق لطيف فى التفرقة بين مقامات الخلفاء و مقامات الملوك، فهو كان ينشد الخلفاء شعره بنفسه، أما الملوك فكان يكتفى بارسال القصائد اليهم و قد فطن بعض الدساسين إلى هذه التفرقة الذوقية فاغتابوه عند بهاء الدولة و اتهموه بالتكبر و الازدهاء.

فلما بلغته الدسيسة كتب إلى بهاء الدولة يقول:

جنانى شجاع إن مدحت و إنمالسانى إن سيم النشيد جبان

و ما ضرّ قوّالا أطاع جنانهإذا خانه عند الملوك لسان

و ربّ حيىّ فى السلام و قلبهوقاح إذا لفّ الجياد طعان

و ربّ وقاح الوجه يحمل كفّهأنامل لم يعرق بهنّ عنان

و فخر الفتى بالقول لا بنشيدهو يروى فلان مرة و فلان

و للشريف فى بهاء الدولة مدائح كثيرة جدا.

فمن هو بهاء الدولة؟ أكان يستحق ان ينفق الرضى فى سبيله كل تلك الثروة من الشعر الجيد؟

نظلم الأدب و التاريخ و نظلم صديقنا الشريف إذا تركنا القارىء يفهم أن بهاء الدولة لم يكن إلا طاغية يجيد ثلّ العروش كالذى صنع مع الطائع.

كان بهاء الدولة مع غطر سته شخصية فارسية مصقولة الحواشى، و كان يتذوق الأدب الرفيع، و كانت له أخلاق.

إى و اللّه، كانت له أخلاق! و الشاهد الآتى يفصح عما نريده:

كان لشرف الدولة خادم اسمه نحرير، و كان وفيا لسيده اصدق

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۶۴

الوفاء، و كان بهاء الدولة يسمع بوفائه فيشتد شوقه إليه، فلما توفى شرف الدولة و تولّى الامر بهاء الدولة كان هم الملك الجديد أن يجتذب نحريرا اليه ليجرى فى خدمته على ما كان يجرى عليه فى خدمة أخيه.

و لكن نحريرا امتنع، و تظاهر بلبس الصوف، ليفهم الناس أنه طلق دنياه .

قال الراوى: كنت قائما بين يدى بهاء الدولة و هو يخاطب نحريرا بقوله: لا تزهد فىّ مع رغبتى فيك، فأنا أولى بك على ما كنت عليه من قبل و نحرير يقبّل الارض، و يستعفى إلى أن انتهى بهاء الدولة إلى أن قال له باللغة الفارسية و قد دمعت عيناه: إفعل للّه! فأقام نحرير على أمر واحد فى اللجاج الذى لا يقابل الملوك بمثله و انصرف من بين يديه .

ثم زين السفهاء لبهاء الدولة أن يأذن بالقبض على نحرير.

قال الراوى:

و بقى أبو الحسن محمد بن عمر و نحرير، فقال له محمد بن عمر: يا هذا، قد أسرفت فى الدالة و من أنت و ما قدرك حتى تمتنع من خدمة هذا الملك العظيم- و أغلظ له فى القول و نحرير مطرق- فلما زاد الأمر عليه رفع رأسه و قال له: أيها الشريف! أين كان هذا القول منك فى أيام مولاى و أنت ترى أفضل آمالك إذا ابتسمت فى وجهك؟ فأما الآن و أنا على هذه الحال فاستعمال ما أنت مستعمله لؤم قدرة، و سوء ملكة، و كيف

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۶۵

ألام على ترك الدنيا بعد ملك ابتاعنى بألف درهم ثم رفعنى إلى أن كنت تخدمنى و لا أخدمك، و تحتاج إلىّ و لا أحتاج إليك .

و ما نريد أن نأتى على بقية القصة، فليس يسر القارىء أن يعلم ما صنعت الدسائس التى انتهت بقتل نحرير، فقد يكون فى ذلك ما يحقّر الجنس الذى اشترك فى تكوينه آدم و زوجته حواء! و أريد أن أقول أيها السادة إن بهاء الدولة كان رجلا له قلب و ذلك مما

يعطف عليه شاعر مثل الشريف، و هو قد استطاع أن يثبّت قواعد الملك فى العراق و الموصل و خوزستان و شيراز و كرمان، و استطاع أن يطمئن على بغداد فيتركها و يقيم فى خوزستان و يولّى عليها حاكما يسميه عميد العراق.

و معنى ذلك أن العراق شهد فى عهده أطياف الرخاء.

قلت إن بهاء الدولة كان يتذوق الأدب الرفيع، و شاهد ذلك أن الشريف كان يداعبه بالشعر فيرسل اليه القصائد الوحشية و القصائد الإنسية.

كان يخاطبه بالشعر الوحشى فيقول:

رأى على الغور وميضا فاشتاقما أجلب البرق لماء الآماق

ما للوميض و الفؤاد الخفاققد ذاق من بين الخليط ما ذاق

داء غرام ما له من إفراققد كلّ آسية و قد ملّ الراق

لآل ليلى فى الفؤاد أعلاقتزيد من حيث تقضى الاشواق

إلى آخر القصيدة و هى طويلة.

و كان يخاطبه بالشعر الإنسى فيقول:

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۶۶ خلّ دمعى و طريقهأحرام أن أريقه؟

كم خليط بان عنىما قضى الدمع حقوقه

يا شقيقى و القنا يغضبفى العدل شقيقه

عاصيا ناصحه الأقربودّا و رفيقه

من لبرق هبّ و هنامن أبانين و سوقه

من شريقىّ الحمىينشد نجدا و عقيقه

من غمام كالمتالىينقل الليل و سوقه

لاح فاقتاد فؤاداعازب اللبّ مشوقه

طال ذكر النفسأرواح زرود و بروقه

و عقابيل غرامىذكر القلب حقوقه

و خيال دلس القلبعلى العين طروقه

كذب تحسبه الصبّمن الشوق حقيقه

أنعمى يا سرحة الحىّو إن كنت سحيقه

أتمنّى لك أن تبقىعلى النأى و ريقه

ثمر حرّم واشيكعلينا أن نذوقه

و هذا نسيب مرقص.

ثم يمدح بهاء الدولة فيقول:

يا قوام الدين و الفارجللدين مضيقه

أنت راعيه و هاديهإذا ضل طريقه

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۶۷ من رجال ركبوا المجدفما ذمّوا عنيقه

معشر كانوا قبيلالعز قدما و فريقه

و ملوك فى ثراهم‌ضرب المجد عروقه

و مغاوير الحفيظات‌و فرسان الحقيقة

حسب يحسب من فيه‌و أعراق عريقه

من ترى يدفع روقيه‌و من يطلع نيقه

لهم الأيدى الطوال الطول‌و البيض الزّليقه

و مواريث مقارى الليل‌و النار العتيقه

بوجوه واضحات‌فى دجى الأزل طليقه

و أكفّ منفقات‌فى الندى الغمر عريقه

و بأخلاق رقاق‌دون أعراض صفيقه

تخذوا المجد أبا مااستحسنوا قطّ عقوقه

إن فيهم مولد الملك‌و من قبل علوقه

ناشئا تسلمه الامّ‌إلى الظّئر الشقيقه

هم رموا عنى جليل الخطب‌يدمى و دقيقه

طردوا الأيام عن ورددمى طرد الوسيقه

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۶۸ أطلقونى من إسار الدهر إطلاق الرّبيقه

إلى أن يقول:

عشت تستدرك فيناخطل الدهر و موقه

واثقا بالدهر تعطى‌من رزاياه وثيقه

كلما عفت صبوح العمرعوطيت غبوقه

مطلع الشارق إن غاب رجا الناس شروقه

آمن المرتع ترعى‌روضة العز أنيقه

إن يكن عيدا فأيامك أعياد الخليقه

إنها أنوار أحداق و نوّار حديقه

ان نعّاق الاعادى‌أسكت الذلّ نعيقه

لفظ الملك شجاه‌و أساغ اليوم ريقه

و هـذا الشاهـد المطوّل لا يهمنا لـذاته، كما تظنون، و انما يهمنا لدلالته على أريحيهٔ الشـريف و هو يمدح بهاء الدولهٔ، و هذه الاريحيهٔ تحتاج الى قليل من البيان:

ان الشـريف ظل موصول الأواصـر بمودهٔ بهاء الدولهٔ نحو عشـرين سنهٔ، و هى مودهٔ كان لها أثر كبير فى شاعرهٔ الشريف، لأنها أفسحت أمامه المجال للتطريب و التغريد، و راضـته على الطواف حول كرائم المعانى، فقد كان الشريف يحب أن يمدح الرجال، لا للتكسب و لا للتزلف و لكن للمعنى الـذى شـرحناه فى الطبعـهٔ الثانيهٔ من كتاب «البدائع» و هو معنى دقيق لم يتنبه اليه احد من الذين أرخوا الادب العربى، فالمدائح

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۶۹

كانت سـجلا لما يفهم الشعراء من مكارم الاخلاق، و كان الشريف فى جدود هذا الفرض يسره أن يتكلم عن الشمائل و الخصال التى

ترفع أقدار الرجال.

فمدائح الشريف صور لما كان يؤمن به من الحقائق الاخلاقية، و شاهد على أنه كان فى أعماق قلبه يود التخلق بما اصطفاه لممدوحيه من أخلاق.

و هذه القصيدة فيها إشارة إلى ماضى الفرس، حتى النار، و هى فى شعره نار عتيقة أى كريمة، و العتق هو الكرم فى الخيل و فى الصهباء.

و أريد أن أقول إن ثناء الشريف على ماضى الفرس كان شواهد تلطفه مع بهاء الدولة، لأن الشريف له قصائد فى تفضيل العرب على الفرس، و بعبارة أدق تفضيل مجد الإسلام على مجد الفرس، كالقصيدة التى قالها حين اجتاز بالمدائن و شهد إيوان كسرى سنة ۳۹۷.

قربوهن ليبعدن المغاراو يبدّلن بدار الهون دارا

و كان يتفق له أن يتغنى بمجد العرب و ما صنعوا فى قهر الفرس و هو يمدح بهاء الدولة، فما تعليل ذلك؟

أغلب الظن أن الفرس لم يكن من همهم أن يقاوموا مجد العرب فى الحدود التى رسمتها الشّعوبية، لأن الفرس أسلموا و تعصبوا أشد التعصب للغة العربية، و كان إسلامهم و استعرابهم من أهم الامجاد فى حياة العروبة و الاسلام.

و أغلب الظن أيضا أن الشعوبية لم تكن نزعة إجماعية فى حياة الفرس و إنما هى مناوشات أدبية أثارها الادباء، و هم مصدر الشر فى بعض الاحيان! أقول هذا لأفهم و تفهموا كيف جاز للشريف أن يذكر انتصار العرب على الفرس فى قصيدة يمدح بها بهاء الدولة فينص على أن عارض

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۷۰

الحرب يوم ذى وقار:

رحض الاغلف فى تيارهورد العلج و ما كاد يرد

يصطلى نار طعان مضّةأوقدت فيها نزار بن معسد

و الحقيقة أن الفرس فى مؤلفاتهم و أشعارهم كانوا من نماذج القومية العربية الاسلامية، فلم يكن يجرحهم أن يقول شاعر: إن الإسلام انتصر عليهم، لأنهم رحبوا بالإسلام منذ عرفوه، و كانت بلادهم من الحصون التى اعتزت بها لغة القرآن.

و إنما نوهت بهذه القضية لا شرح كيف كان الشريف يتردد بين الإشارة بمجد العرب و مجد الفرس، و كيف جاز له أن يدور حول هذه المعانى بلا تهيب و لا إشفاق.

و ما يجوز لنا أيها السادة أن نزن التاريخ بموازين الحوادث فى هذه الأيام، فالامم الإسلامية فى هذا العصر يستقلّ بعضها عن بعض، بحيث يظن الغافل أنها كانت كذلك فى الايام الخالية، و ما كانت كذلك، و إنما كان يتنقل المؤمن من أرض إلى أرض فلا يفهم أنه انتقل من وطن إلى وطن، و إنما كان يشعر بأنه يسير تحت راية الاسلام، و لم تكن ياء النسب إلا علامة تمييز لا علامة تفريق.

أيها السادة كانت مدائح الشريف لبهاء الدولة فرصة عظيمة لجموح الخيال، ففى تلك المدائح لفتات ذوقية و روحية و خلقية.

و الذين اهتموا بغراميات الشريف وقفوا عند الحجازيات، وفاتهم

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۷۱

أن الشريف كانت له فى مدائحه و ثبات غرامية، كأن يقول:

من رأى البرق بغوريّ السندفى أديم الليل يفرى و يقد

حيرة المصباح تزهوه الصّباخلل الظلماء يخبو و يقد

كلما أنجد علويّ السّناقام بالقلب اشتياق و قعد

كم أضاء البرق لى من معهدذاب دمع العين فيه و جمد

و مغان أنبت الحسن بهاهيفا ترعاه عينى وغيد

كلما عاود قلبى ذكرهالعب الدمع بجفنىّ وجد

إن ريم السّرب أدنى لى الجوىو نأى بالصبر عنى و الجلد

بندى غضّين غصن ونقاو جنى عذبين شهد و برد

و كأن يقول:

ذكرت على بعدها من منالىمنازل بين قبا و المطال

و مبنى قباب بنى عامرعلى الغور أطنابهن العوالى

عقائل علّمهن العفافوصل المطال و مطل الوصال

مرابع يشكو بهن الجراحأسود الشّرى من ظباء الرمال

مضاحكهنّ عقود العقودو أجيادهن لآلى اللآلى

أبعد الأسى عاد عيد الغرامو قرف من الشّوق بعد اندمال

هوى بين مقتصّ إثر الغزالولى و منتص جيد الغزال

و ما طلب البذل من باخلبميسوره غير داء عضال

و ما زال يلوى ديون الهوىو يؤيسنا من قليل النوال

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۷۲ إلى أن قنعنا بزور المزاربعد النوى و خيال الخيال

و كأن يقول:

زار و الركب حرامأوداع أم سلام

طارقا و البدر لايحفزه إلا الظلام

بين جمع و المصلىريم سرب لا يرام

و حلول ما قرى نازلهم إلا الغرام

بدّلوا الدور فلمانزلوا القلب أقاموا

يا خليلىّ اسقيانىزمن الوجد سقام

و صفالى قلعة الركب و لليل مقام

من ألال حفز و العيس كما ريع النّعام

فزفير و نشيجو عجيج و بغام

و منى أين منى منى لقد شطّ المرام

هل على جمع نزولو على الخيف خيام

يا غزال الجزع لو كان على الجزع لمام

أحسد الطوق على جيدك و الطوق لزام

و أعضّ الكف إن نالثناياك البشام

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۷۳ و أغار اليوم إن مرّعلى فيك اللثام

أنا عرّضت فؤادىأول الحرب كلام

أن جعلت القلب مرمى كثرت فيه السهام

من يداوى داء أحشائك و الداء عقام

و أنا أكتفى بهذه الشواهد الثلاثة لاريكم أن مدائح الشريف فى بهاء الدولة تجمع أطايب من المعانى الذوقية. و القطعة الاخيرة من الشعر النفيس، و عهدى بالاستاذ محمد الههياوى يرحل من «حدائق القبة» إلى القاهرة ليسمعها من الاستاذ أبى بكر المنفلوطى، كان الشريف هو وحده الذى يحسن أن يقول:

زار و الركب حرامأوداع أم سلام

أما المعانى الروحية فكثيرة، يمثلها تلطفه مع بهاء الدولة إذ يقول:

لا ضحا ظلكم يوما و لامطل الإقبال منكم ما وعد

و تفارطتم على رفه السّرىمورد النعماء و العيش الرغد

و إذ يقول:

سيبلو منك هذا الصوم خرقارحيب الباع فضفاض الرداء

تصوم فلا تصوم عن العطاياو عن بذل الرغائب و الحباء

و إذ يقول:

لا زعزعتك الخطوب يا جبلو بالعدا حلّ لا بك العلل

قد يوعك الليث لا لذلتهعلى الليالى و يسلم الوعل

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۷۴ لا طرق الداء من بصحتهيصح منا الرجاء و الأمل

حاشاك من عارض تراع بهذاك فتور النعيم و الكسل

النجم يخفى و أنت متضحو الشمس تخبو و أنت مشتعل

ما صرف الدهر عنك أسهمهفكل جرح يصيبنا جلل

باق تخطّاك كل نائبةإلى العدا و النوازل العضل

فما يقول الأعداء لا بلغوا السّؤلو لا أدركوا الذى أملوا

بنا الأذى لا بكم إذا نزل الخطبطروقا و صمّم الأجل

و دمتم للعلا و عيشكمغضّ و راووق عزكم خضل

لا عجب أن نقيكم حذرانحن جفون و أنتم مقل

و إذ يقول فى تعزيته عن إحدى بناته و هى التى عقد عليها للخليفة القادر باللّه:

لهان الغمد ما بقى الحسامو بعض النقص آونة تمام

إذا سلك العلا سلمت قواهفلا جزع إذا انتقص النظام

و أهون بالمناكب يوم يبقىلنا الرأس المقدّم و السّنام

و ما شكوى المناهل حين تمسىمغيّضة إذا بقى الغمام

و هل هو غير فذّ أخلفتهلنا العلياء و النعم التّوام

و ما شرر تطاوح عن زنادبمفتقد إذا بقى الضرام

أفق يا دهر من أمسيت تحدوو قد منع الخزامة و الزمام

قدعت مبرّز الحلبات يغدوجموحا لا ينهنهه اللجام عبقرية الشريف الرضى ؛ ج۱ ؛ ص۱۷۴

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۷۵ و لودا مثل ما خالست منهو أنت بمثله أبدا عقام

أما اللفتات الخليقة فكثيرة جدا، كأن يقول:

كان قضاء الإله مكتوبالولاك كان العزاء مغلوبا

ما بقيت كفك الصناع لنافكل كسر يكون مرءوبا

ما احتسب المرء قديهون و ماأوجع ما لا يكون محسوبا

نهضا بها صابرا فأنت لهاو الثّقل لا يعجز المصاعيبا

فقد أرتك الأسى و إن قدمتعن يوسف كيف صبر يعقوبا

و ما نقصر المعانى الخلقية على الشعر الذى يجرى مجرى الامثال، و إنما هى تشمل كل ما أشاد فيه بالشمائل و الخصال، و من الواضح ان هـذا الحكم ينسـاق على جميع المدائـح فى الشـعر العربى، و لكن لا مفر من الاعتراف بأن الشـريف كان ينوّه بخلائق الرجال و هو يحسها أقوى إحساس.

أما بعد فليس من همنا أن نستقصـى ما قال الشـريف فى بهاء الدولة، فذلك بحث يطول، و يكفى أن تكونوا عرفتم أن الشـريف عاش مدة و هو فى حركة عقلية و ذوقية و معاشـية بفضل ذلك الملك، و تشـهد قصائد الديوان بأن بهاء الدولة أغدق عليه نعم التشـريف و التبجيل و انه كان يعتمد عليه فى كثير من الشؤون.

و فى جمادى الآخرة سنة ۴۰۳ مات بهاء الدولة فرثاه الشريف بهذه القصيدة الباكية:

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۷۶ دع الذّميل إلى الغايات و الرّتكاماذا الطّلاب أترجو بعدها دركا

مالى أكلّفها التهجير دائبةعلى الدّجى و قوام الدين قد هلكا

حلّ الغروض فلا دار ملائمةو لا مزور إذا لاقيته ضحكا

اليوم صرّحت الجلّى و قد تركتبين الرجاء و بين اليأس معتركا

رزيئة لم تدع شمسا و لا قمراو لا غماما و لا نجما و لا فلكا

لو كان يقبل من مفقودها عوضلأنفق المجد فيها كل ما ملكا

قد أدهش الملك قبل اليوم من حذرو إنما اليوم أذرى دمعه و بكى

أمسى بها عاطلا من بعد حليتهو هادما من بناء المجد ما سمكا

من للجياد مراعيها شكائمهايحملن شوك القنا اللذاع و الشّككا

يطابها تحت أطراف القنا زلقامن الدماء و من هام العدا نبكا

من للظّبا يختلى زرع الرقاب بهاحكم القصاقص لا عقل لما سفكا

من للقنا جعلت أيدى فوارسهمن القلوب لها الاطواق و المسكا

من للأسود نهاها عن مطاعمهافكم وردن فريسا بعد ما انتهكا

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۷۷ من للخطوب ينجّى من مخالبهاو ينزع الظفر منها كل ما سدكا

من معشر أخذوا الفضلى فما تركوامنها لمن يطلب العلياء متّركا

قدّوا من البيض خلقا و الحيا خلقاعيصا ألفّ بعيص المجد فاشتبكا

لو أنهم طبعوا لم ترض أوجههمدرارى الليل لو كانت لها سلكا

هم أبدعوا المجد لا أن كان أولهمرأى من الجد فعلا قبله فحكى

الراكبين ظهورا قلما ركبتو المالكين عنانا قلما ملكا

يا صفقة من بياع كلها غررمن ضامن للعلامن بعدها الدركا

خلالها كل ذئب مع أكيلتهمن واقع طار أو من عاجز فنكا

الموت أخبث من أن يرتضى أبدالا سوقة بدلا منه و لا ملكا

لا تتبعوا فى المساعى غير أخمصهفأخصر الطّرق فى العلياء ما سلكا

ما مثل قبرك يستسقى الغمام لهو كيف يسقى القطار النازل الفلكا

لا يبعد اللّه أقواما رزئتهملو ثلّموا من جنوب الطود لا نهتكا

فقدتهم مثل فقد العين ناظرهايبكى عليها بها يا طول ذاك بكا

إذا رجا القلب ان ينسيه غصتهما يحدث الدهر أدمى قرحه و نكا

إن يأخذ الموت منا من نضنّ بهفما نبالى بمن بقّى و من تركا

إنى أرى القلب ينزو لاذكارهمنزو القطاطة مدّوا فوقها الشركا

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۷۸ لا تبصر الدهر بعد اليوم مبتسّماإن الليالى أنست بعده الضحكا

و كذلك كان بهاء الدولة آخر من اعتز الشريف بمدحه من بين الملوك، و ربما كان صادقا فيما ادعاه من ذهاب الضحك بذهاب ذلك الفقيد، فان الشريف لم يعمّر من بعده طويلا.

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۷۹

العلا و المعالى فى قصائد الشريف

أيها السادة:

أريناكم فيما سلف صورا كثيرة من صلة الشريف بعصره و صلاته بمن عرف فيه من علماء و شعراء و أمراء و خلفاء و ملوك، و أريناكم كيف عرف النعيم و البؤس و الضحك و البكاء.

و الآن نحدثكم عن غرامه بالمجد، و هيامه بالعلياء، و فنائه فى التخلق بأخلاق الأبطال.

و الشريف فى هذه الناحية هو صورة الشاعر الحق، لأن الشاعر الحق لا يخلو قلبه أبدا من التسامى إلى كرائم المقاصد و شرائف الغايات، و هو قد يلهو و قد يلعب، و لكنه يظل مشغول القلب بما يتسامى اليه، و تدور خواطره حول أمانيه فى كل وقت، و إن ظنه الناس من اللاهين.

و ما رأيتم من لهو الشريف و ما سترون، لم يكن لهو خصيان، و إنما كان لهو فحول، فهو لم يكن فى غرامياته من الشعراء الضعفاء الذين يستريحون إلى البكاء و الانين، و إنما كان شاعرا فحلا يرى الحسن لم يخلق إلا لغرامه الجموح، و سترون فيما بعد أنه تزوج و أنجب، و لم يترك الدّنيا إلا و هو ملء العيون و القلوب.

أيها السادة:

نحن مقبلون على مصافحة الجبل الاشمّ، نحن مقبلون على مواجهة الفارس الذى بذّ جميع الفرسان حين قال:

نبهتهم مثل عوالى الرماحإلى الوغى قبل نموم الصباح

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۸۰ فوارس نالوا المنى بالقناو صافحوا أغراضهم بالصّفاح

لغارة سامع أنبائهايغصّ منها بالزّلال القراح

ليس على مضرمها سبّةو لا على المجلب منها جناح

دونكم فابتدروا غنمهادمى مباحات و مال مباح

فإننا فى أرض أعدائنالا نطأ العذراء إلا سفاح

يا نفس من همّ إلى همّةفليس من عبء الأذى ستراح

قد آن للقلب الذى كدّهطول مناجاة المنى أن يراح

لا بدّ أن أركبها صعبةوقاحة تحت غلام وتاح

يجهدها أو ينثنى بالردىدون الذى قدّر أو بالنجاح

الراح و الراحة ذلّ الفتىو العزّ فى شرب ضريب اللقاح

فى حيث لا حكم لغير القناو لا مطاع غير داعى الكفاح

و أشعث المفرق ذى همةطوّحه الهمّ بعيدا فطاح

لما رأى الصبر مضرّا بهراح و من لا يطق الذل راح

دفعا بصدر السيف لما رأىأن لا يردّ الضيم دفعا براح

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۸۱ متى أرى الزوراء مرتجّةتمطر بالبيض الظّبا أو تراح

يصيح فيها الموت عن ألسنمن العوالى و المواضى فصاح

بكل روعاء عظيّةٍ يحثّها أروع شاكى السلاح

كأنما ينظر من ظلهانعامة زيّافة بالجناح

متى أرى الأرض و قد زلزلتبعارض أغبر دامى النّواح

متى أرى الناس و قد صبّحواأوائل اليوم بطعن صراح

يلتفت الهارب فى عطفهمروّعا يرقب وقع الجراح

متى أرى البيض و قد أمطرتسيل دم يغلب سيل البطاح

متى أرى البيضة مصدوعةعن كل نشوان طويل المراح

مضمّخ الجيد نؤوم الضّحى كأنه العذراء ذات الوشاح

إذا رداح الرّوع عنّت لهفرّ إلى الكعاب الرّداح

قوم رضوا بالعجز و استبدلوابالسيف يدمى غربه كأس راح

توارثوا الملك و لو أنجبوالورّثوه عن طعان الرماح

غطى رداء العز عوراتهمفافتضحوا بالذل أىّ افتضاح

إنى و الشاتم عرضى كمنروّع آساد الشّرى بالنّباح

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۸۲ يطلب شأوى و هو مستيقنأن عنانى فى يمين الجماح

فارم بعينيك مليّا تروىوقع غبارى فى عيون الطّلاح

و ارق على ظلعك هيهات أنيزعزع الطّود بمرّ الرياح

لا همّ قلبى بركوب العلايوما و لا بلّ يدى بالسماح

إن لم أنلها باشتراط كماشئت على بيض الظّبا و اقتراح

يطمح من لا مجد يسمو بهإنى إذا أعذر عند الطّماح

و خطة يضحك منها الردىعسراء تبرى القوم برى القداح

صبرت نفسى عند أهوالهاو قلت من هبوتها لا براح

إما فتى نال العلا فاشنفىأو بطل ذاق الردى فاستراح

ماذا ترون، أيها السادة، حدثونى ماذا ترون؟

هل رأيتم فى الشعر كله قصيدا يشبه هذا القصيد؟

إن باب الحماسة فى ديوان الحماسة لو وضع كله فى الميزان لشالت كفته و رجحت كفة هذه القصيدة، و لكن أين من يفهم المعانى.

إن هـذا القصـيد خليق بأن يكون «نشـيد الفتوّة العربيـة» و أهل لأن يحفظه جميع الشـبان فى سائر البلاد العربية، فهو جذوة من الفتوّة، و قبس من الرجولة، و شهاب من العزم المصمّم الذى يطيح المصاعب و الأهوال.

أرأيتم:

نبهتهم مثل عوالى الرماحإلى الوغى قبل نموم الصباح

أرأيتم هـذه الصورة، صورة الفتـك، صورة القائـد الـذى يختـال بما يصـنع و هو ينبه جنوده إلى الحرب قبل أن تظهر تباشـير الصـباح!

أرأيتم كيف وصف جنوده بأنهم مثل عوالى الرماح!

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۸۳

انظروا هذه الصورة ثم تذكروا ما يقابلها من الصور، فهناك شـعراء ينبهون رفاقهم أيضا، و لكنهم لا ينبهون إلى الاصـطباح بالحرب، و إنما ينبهونهم إلى الاصطباح بالصهباء.

أرأيتم كيف ينبه الجنود:

لغارة سامع أنبائهايغصّ منها بالزّلال القراح

أرأيتم هذه الصورة، صورة الحرب التى تغصّ سامع أخبارها بالماء القراح فكيف ترونها تصنع بمن يصطلى لظاها؟

أرأيتم كيف يشوّق جنوده إلى الحرب فيقول:

دونكم فابتدروا غنمهادمى مباحات و مال مباح

فهو يطمعهم فيما سينالون من الأموال و من النساء، و هى مطامع حسية كانت على الدهر من أعظم مغانم الحروب.

أرأيتم كيف يحدّد مقامه و مقام جنوده من الحقائق الاخلاقية فيقول:

فاننا فى أرض أعدائنالا نطأ العذراء إلا سفاح

و هذه الاخلاق تبدو فى بشاعة الوحشـية، و لكنّ للشاعر عذرا و أنتم يلومون، فهو يسجّل أخلاق الجنود المغاوير، و الجنود المغاوير لا يعرفون المصقول من آداب الناس، فالجندية هى فى ذاتها وحشية، و هل اشتقّت الفروسية إلا من الافتراس؟

ثم يقول:

يا نفس من همّ إلى همةفليس من عبء الأذى مستراح

قد آن للقلب الذى كدّهطول مناجاة المنى أن يراح

فيصوّر لكم قلق الرجل الطمّاح الذى تغرقه مطامحه فى بحر من الهموم فلا يرى نجاته فى غير القتال.

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۸۴

ثم يقول:

لا بدّ أن أركبها صعبةوقاحة تحت غلام وقاح

يجهدها أو ينثنى بالردىدون الذى قدّر أو بالنجاح

و الغلام فى هذا الشعر هو الفتى، و الشاعر لا يرى لنفسه غير غايتين:

النصر أو الموت، و هو معنى سيكرره فى آخر القصيدة إذ يقول:

إما فتى نال العلا فاشتفىأو بطل ذاق الردى فاستراح

و هو بهذا سبق الفرنسيين إلى هذه الحكمة العالية، سبقهم بمئات السنين إلى الحكمة المسطورة على محراب البانتيون فى باريس Vainore ou mourir : و لم يكن الشريف أول من قال هذا المعنى بين شعراء العرب، و لكنه أورده موردا قويا جدا بحيث لا يكون من المغالاة ان نعده من معانيه المبتكرات:

ثم يقول:

الراح و الراحة ذل الفتىو العزّ فى شرب ضريب اللقاح

فى حيث لا حكم لغير القناو لا مطاع غير داعى الكفاح

فنفهم عن طريقه أعظم معضلة فى تربية الابدان و النفوس، و هل نسيتم ان الخلفاء كانوا يرسلون أبناءهم ليتربوا فى البادية؟ هنا نفهم السر:

فاللغويون يظنون ان الخلفاء كانوا يرسلون أبناءهم إلى البادية لينشأوا على فصاحة الاعراب، و هذا له وجه، و إنما كان الخلفاء يرسلون أبناءهم إلى البادية لينشأوا على الصراحة و الصرامة و الطغيان. فالحكم فى البوادى لا يكون لغير السيف و الرمح، و عيش البادية مران عنيف على الخشونة و الصلابة و الفتك.

و قد سمعتم ألف مرة أن الترف هو داء الامم، داؤها العقام الذى

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۸۵

يعزّ منه الشفاء، و انما كان الترف داء الامم لأنّه يجردها من الخشونة التى لا يمكن بغيرها صراع و لا قتال.

إن ربيب البادية هو وحده الذى يقدر على منازلة الطبيعة فى رعودها و بروقها و جحيمها، أما ربيب الحواضر فهو كما قال توفيق البكرى «غادة ينقصها الحجاب، ينظر فى المرآة و لا ينظر فى كتاب» أو كما قال الشريف:

مضمّخ الجيد نؤوم الضّحى كأنه العذراء ذات الوشاح

إذا رداح الروع عنّت لهفرّ إلى ضم الكعاب الرداح

و أنتم ترون أن الامم التى ليست عندها بادية، تخلق لنفسها بادية، و هل كان نظام الكشافة إلا رجوعا إلى النظام البدوى الذى مكّن أسلافنا من أن يكونوا أشجارا قوية تقاوم الزعازع فى مختلف البقاع و الأجواء.

إنما كان الترف داء الامم لأنه يورث اللين، و الشاب اللين لا يصلح لقتال و لا صراع.

و يصور الفتى الصوّال فيقول:

و أشعث المفرق ذى همةطوّحه الهم بعيدا فطاح

لما رأى الصبر مضرا بهراح و من لا يطق الذّل راح

دفعا بصدر السيف لما رأىأن لا يرد الضيم دفعا براح

فالفتى عنده هو الأشعث المفرق، أما صاحب المفرق المعطر فليس من الفتيان، الفتيان المغاوير الذين يأبون الضيم و يقارعون الخطوب. و أنتم قد ترون فى دنياكم فتيانا من أبناء الزمان يضيّعون فى تزيين مفارقهم ما يضيّعون، و هم فتيان لهم شأن فى التمدن الحديث، و إليهم مصاير الامور فى أكثر الاحيان و لكنهم سيظلون حيث وقفتهم نفوسهم الصغيرة فلا يعرفون دفع الضيم بالسيف حين لا يغنى دفعه بالراح، فهم كما قال الشريف:

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۸۶ قوم رضوا بالعجز و استبدلوابالسيف يدمى غربه كأس راح

توارثوا الملك و لو أنجبوالورّثوه عن طعان الرماح

و للشريف فى هذه القصيدة إشارات لا تخفى عليكم، فقد وجه إلى خصومه كلمات أشد من وقع النبل، و حق لمثله أن يقول:

يطمح من لا مجد يسمو بهإنى إذا أعذر عند الطمّاح

– صدقت، أيها البطل، صدقت! و يتوثب الفارس إلى الفتك فيقول:

و إن قعودى أرقب اليوم أو غدالعجز فما الإبطاء بالنّهضان

سأترك فى سمع الزمان دويّهابقرعى ضراب صادق و طعان

و أخصف أخفاقا بوقع حوافرإلى غاية تقضى منى و أمانى

فإن أسر فالعلياء همى و إن أقمفإنى على بكر المكارم بانى

و إن أمض أترك كل حىّ من العدايقول: ألا للّه نفس فلان

فهذا الفارس ينكر الترقب، و يراه من العجز، و يشوقه أن يتأثر المتنبى الذى كان يرى المجد فى الفتك و الطعان، و يؤمن بأنه الفائز فى كل حال، فهو إن نهض فإلى الحرب، و إن قعد فلبناء المجد، و يشعر بأن أعداءه سيترحمون عليه يوم يموت.

و الأبيات الآتية قالها الشاعر فى مطلع صباه، و الظاهر أنه كان مفطورا على الفتوّة منذ الحداثة، و إلا فكيف صح له أن يقول و هو فى سن المراهقين:

ستعلمون ما يكون منىإن مدّ من ضبعىّ طول سنى

أ أدع الدنيا و لم تدعنىيلعب بى عناؤها المعنّى

ناطحة بالجمّ هام القرنطاح روق الجازىء الأغنّ

وسعت أيامى و لم تسعنىأفضل عنها و تضيق عنى

لم أنا مثل القاطن المبنّ أسحب بردى ضرع و أفن

ولى مضاء قطّ لم يخنىضمير قلبى و ضمير جفنى

أحصل من عزمى على التمنىو ليتنى أفعل أو لو انى

راض بما يضوى الفتى و يضنىأسّس آبائى و سوف أبنى

قد عزّ أصلى و يعزّ غصنىغنيت بالمجد و لم أستغن

إنّ الغنى مجلبة للضّنّو للقعود و الرضا بالوهن

الفقر ينئى و الثراء يدنىو الحرص يشقى و القنوع يغنى

إن كنت غير قارح فإنىأبذّ جرى القارح المسنّ

جننت بأسا و الشجاع جنىآثار طعن الدهر فى مجنّى

تشهد لى أن الزمان قرنىسوف ترى غبارها كالدّجن

قساطلا مثل غوادى المزنتجرى بضرب صادق و طعن

جرى عزالى المطر المستنّإن غبت يوما عنك فاطّلبنى

بين المواضى و القنا تجدنىأمام جيش كجنوب الرّعن

جون الذّرا أقود مرجحنأنفض عنى نقعه بردنى

لتعرفنّى و لتعرفنّىأيام أفنى بالقنا و أغنى

أفرّ عين الفاقر المرنّعساى أنفى الضيم أو لعنّى

كم صبر خافى الشخص مستجنمنطمر من الأذى فى سجن

مرتهن بهمة تعنّىيا ليتها بنهضة فدتنى

من قبل أن يغلق يوما رهنى متى ترانى و الجواد خدنى

و النصل عينى و السنان أذنىو أمى الدرع و لم تلدنى

أجرّ فضل ذيلها الرفن ما احتبس الرزق فساء ظنى

و لا قرعت من قنوط سنىيا أيها المغرور لا تهجنى

و عذ بإغضائى و استغذنىو احذر عداء قاطع فى ضمنى

ينطق عنى بلسان ضغنىنبهت يقظان قليل الأمن

مخرّق الثوب بطعن اللّدن يا دهر سيفى معقلى و حصنى

و الخوف يغرى طلبى فخفنىيا ليت مقدورك لم يؤمنى

جنيت من قبل و سوف أجنىأثنى يدى و العزم أن أثنّى

فما رأيكم فى هذا الطفل الذى أنضجه العزم و سقته نفسه ذوب الحديد المتوقد؟

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۸۹

ما رأيكم فى الطفل الوادع الذى يصرخ فيقول:

ستعلمون ما يكون منىإن مدّ فى ضبعىّ طول سنى

ما رأيكم فى الطفل الذى يبدأ بمحاسبة نفسه فيقول:

أ أدع الدنيا و لم تدعنىيلعب بى عناؤها المعنّى

ما رأيكم فى الطفل الذى يرى نفسه قرين الزمان:

إن كنت غير قارح فإنىأبذّ جرى القارح المسنّ

جننت بأسا و الشجاع جنىآثار طعن الدهر فى مجنى

تشهد لى أن الزمان قرنىسوف ترى غبارها كالدجن

ما رأيكم فى الذى يتشوف إلى مصيره فى الفتوّة فيقول:

متى ترانى و الجواد خدنىو النصل عينى و السنان أذنى

و أمى الدرع و لم تلدنى إن هذه القصيدة من أنفس ما قال الفتيان، فليحفظها و ليتأدب بها كرام الفتيان.

و صحّ لهذا الفارس و هو فى السادسة عشرة أن يقول:

أمن شوق تعانقنى الأمانىو عن ودّ يخادعنى زمانى

و ما أهوى مصافحة الغوانىإذا اشتغلت بنانى بالعنان

عدمت الدهر كيف يصون وجهايعرّض للضراب و للطعان

تعرّفنى بأنفسها الليالىو آنف أن أعرّفها مكانى

أنا ابن مفرّج الغمرات سوداتلاقى تحتها حلق البطان

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۹۰ و جدى خابط البيداء حتىتبدّى الماء من ثغب الرعان

قضى و جياده حول المعالىو وفد ضيوفه حول الجفان

تكفّنه ظبا البيض المواضىو يغسله دم السّمر اللدان

نشرت على الزمان و شاح عزترنح دونه المقل الروانى

خفيرى فى الظلام اقبّ نهديساعدنى على ذم الزمان

جواد ترعد الابصار فيهإذا هزأت برجليه اليدان

كأنى منه فى جارى غديرألاعب من عنانى غصن بان

حيّ الطرف إلا من مكّريبيّن من خلائقه الحسان

إذا استطلعته من سجف بيتظننت بأنه بعض الغوانى

سأطلع من ثنايا الدهر عزمايسيل بهمة الحرب العوان

و لا أنسى المسير إلى المعالىو لو نسيته اخفاف الحوانى

و كنا لا يروّعنا زمانبما يعدى البعاد على التدانى

و نأنف أن تشبّهنا الليالىبشمس أو سنا قمر هجان

فها أنا و الحبيب نودّ أناتدانينا و نحن الفرقدان

و ليل أدهم قلق النواصىجعلت بياض غرته سنانى

و صبح تطلع الآجال فيهو ناظر شمسه فى النقع عانى

عقدت ذوائب الأبطال منهبأطراف المثقفة الدوانى

الأغرب و الأعجب أن تعلموا ان هذا الشعر هو مطلع قصيدة فى المدح

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۹۱

و هى تجربة طريفة فقد كان الشعراء يبدأون قصائد المدح بالنسيب، و كثر منهم ذلك حتى صح للمتنبى ان ينقدهم فيقول:

إذا كان مدح فالنسيب المقدمأكل فتى قد قال شعرا متيم

و المهم ان تعرفوا ما فى هذه القصيدة من الشاعرية، المهم ان تعرفوا ان ذلك الفتى كان يشعر بأنه أعلا من الأمانى و الزمان فيقول:

أمن شوق تعانقنى الأمانىو عن ود يخادعنى زمانى

و اى شاعرية امجد و اعظم من شاعرية من يتمدح بأن جده كفنته السيوف و غسلته الرماح:

قضى و جياده حول العوالىو وفد ضيوفه حول الجفان

تكفّنه ظبا البيض المواضىو يغسله دم السّمر اللدان

و هل رأيتم احلا و اعذب من شاعرية الفارس الذى يتغزل فى جواده فيقول:

خفيرى فى الظلام أقبّ نهديساعدنى على ذمّ الزمان

جواد ترعد الأبصار فيهإذا هزأت برجليه اليدان

كأنى منه فى جارى غديرألاعب من عنانى غصن بان

حيّ الطرف إلا من مكّريبيّن من خلائقه الحسان

إذا استطلعته من سجف بيتظننت بأنه بعض الغوانى

ذلكم هو الفارس، و تلكم هى الفروسية، و الذى يقول هذا الشعر فتى كان يرشّح نفسه لإمارة الحج، و منصب القضاء، و نقابة الأشراف، و كذلك كان أسلافنا فتيانا يستهويهم جمال الخيل و ميادين القتال.

و قد ظن جامع الديوان أن الشريف وصف الأسد، و ما وصف

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۹۲

الشريف الاسد بلى، وصف الشريف الاسد لانه وصف نفسه فقال:

سيرعب القوم منى سطو ذى لبدله بعثّر اعراس و ولدان

لا يطعم الطّعم إلا من فريستهإن يعدم القرن يوما فهو طيّان

ماشى الرفاق يراعى اين مسقطهمو السمع منتصب و القلب يقظان

يستعجل الليلة القمراء أو بتهاإذا بنو الليل من طول السّرى لانوا

حتى إذا عرّسوا فى حيث تفرشهمنمارق الرمل أنقاء و كثبان

دنا كما اعتسّ ذو طمرين لمظّهمن فضله الزاد بالبيداء ركبان

ثم استقرت به نفس مشيّعةلها من القدر المجلوب معوان

فعاث ما عاث و استبلى عقيرتهيجرها مطعم للصيد جذلان

قرن إذا طلب الأوتار عن عرضلم تفد منه دماء القوم ألبان

و غلمة أخذوا للروع أهبتهلف البطون على الأعواد خمصان

طارت بأشباحهم جرد مسوّمةكأنما خطفت بالقوم عقبان

من كل أعنق ملطوم بغرتهكأنه من تمام الخلق بنيان

يمدّ للجرس مثل الآستين إذاخان التوجس أبصار و آذان

فاستمسكوا بنواصيها و قد سقطتمن غائر الجرى ألباب و أرسان

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۹۳ كعمت فاغرة الثغر المخوف بهميهفو بأيمانهم نبع و مرّان

كأن غرّ المعالى فى بيوتهمبيض عقائل يحميهن غيران

إلى كم الرحم البلهاء شاكيةلها من النعى إعوال و إرنان

حيرى يضلّونها ما بيننا و لهامنا على عدواء الداء نشدان

النّجر متفق و الرأى مختلففالدار واحدة و الدين أديان

و ثمّ أوعية الإحسان مكفأةفوارغ و وعاء الشر ملآن

إنا نجرّهم أعراضنا طمعافى أن يعودوا إلى البقيا كما كانوا

أنّى يتاه بكم فى كل مظلمةو للرشاد أمارات و عنوان

ميلوا إلى السّلم إن السّلم واسعةو استوضحوا الحق إن الحق عريان

يا راكبا ذرعت ثوب الظلام بههو جاء مائلة الضبعين مذعان

أبلغ على النأى قومى إن حللت بهمأنى عميد بما يلقون أسوان

يا قوم إن طويل الحلم مفسدةو ربما ضرّ إبقاء و إحسان

مالى أرى حوضكم تعفو نصائبهو ذودكم ليلة الأوراد ظمآن

مدفّعين عن الأحواض من ضرعينضو بهامكم ظلم و عدوان

لا يرهب المرء منكم عند حفظتهو لا يراقب يوما و هو غضبان

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۹۴ إن الاولى لا يعزّ الجار بينهمو لا تهان عواليهم لذلّان

كم اصطبار على ضيم و منقصةو كم على الذل إقرار و إذعان

و فيكم الحامل الهمهام مسرحهداج و من حلق الماذىّ أبدان

و الخيل مخطفة الاوساط ضامرةكأنهن على الأطواد ذؤبان

اللّه اللّه أن يبتزّ أمركمراع رعيته المعزىّ و الضان

ثوروا لها و لتهن فيها نفوسكمإن المناقب للأرواح أثمان

فمن إباء الأذى حلّت جماجمهاعلى مناصلها عبس و ذبيان

و عن سيوف إباء الضيم حين سطوامضى بغصته الجعدىّ مروان

فإن تنالوا فقد طالت رماحكمو إن تنالوا فللأقران أقران

ذلك وصف الأسد كما تصوّره جامع الديوان، فماذا ترون فى هذا القصيد؟

إن الشاعر هنا قوىّ الروح جدا، و لا يمكن إدراك قوة الروح هذا فى القصيد إلا بقراءته مرتين أو مرات، و هو شبّه نفسه بالأسد و ساقه ذلك إلى وصف الأسد، و لكن أى وصف؟ انه وقف عند المعانى النفيسة التى تصور ما فى الاسد من عزة و كبرياء.

ثم تحدث عن رفاقه فى الحرب أجمل حديث فجعل المعالى فى بيوتهم بيضا عقائل تحميها الغيرة و يحرسها الإباء.

ثم التفت إلى قومه فعنّفهم على التنابذ و التقاطع، و عجب من أن يتفق الاصل و يختلف الرأى، و جزع من تعدد الاديان مع وحدة الوطن.

ثم استصرخهم الى حماية الحوض، و ذكّرهم بالذين نثروا جماجمهم على

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۹۵

المناصل فى سبيل الحفاظ.

و القصيدة جيدة جدا، و من العجب أن يسكت عنها نقاد المعانى.

و للشريف قصائد طوال قصرها على همومه فى المعالى، منها الميمية

أرى نفسى تتوق الى النجومسأحملها على الخطر العظيم

و فيها يقول:

و لى أمل كصدر الرمح ماضسوى أن الليالى من خصومى

و يمنعنى المدام طروق همىفما يحظى بها الا نديمى

و ما أوفت على العشرين سنىو قد أوفى على الدنيا عزيمى

و له فيها نفثات موجعات:

أرى الأيام عاديةً علينابيض من نوائبها وشيم

يضلّ نفوسنا داء عقامفيسلمنا الى أرض عقيم

و نبتع بالدموع و أىّ دمعيجير و لو أقام على السّجوم

و يفردنا الزمان بلا قريبيذمّ من الزمان و لا حميم

و نلقى قبل لقيان المنايارماح الداء تطعن فى الجسوم

و فيها يقول:

ألا من مبلغ الأحياء أنىقطعت قرائن الزمن القديم

و أنى قد أبيت مقام رحلىبوادى الرمث أو جبل الغميم

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۹۶ و عن قرب سيشغلنى زمانىبرعى الناس عن رعى القروم

و مالى من لقاء الموت بدّفمالى لا أشدّ له حزيمى

سألتمس العلا اما بعربيروّون اللهاذم أو بروم

و هذا كلام نفيس جدا، و هو قوىّ الدلالة على خطر ما كان يصطرع فى تلك النفس من آمال.

و له ميمية أخرى منها هذه الأبيات:

و ما ابن غيل تذيع الموت طلعتهاذا تطلّع غضبانا من الأجم

يجلو دجى شدقه عن صبح عاصلةمطرورة كشبا المطرورة الخذم

يوما بأقدم منى فى ململمة شعواء تعزف بالعقبان و الرّخم

و له ثالثة جمع فيها بين الفخر و النسيب فقال:

ألا خبر عن جانب الغور واردترامى به أيدى المطىّ الرواسم

و انى لأرجو خطوة لوذعيةتجيب بنا داعى العلا و المكارم

نداوى بها من زفرة الشوق أنفساتطلع ما بين اللهى و الحيازم

و انى على ما يوجب الدهر للفتىو لو سامه حمل الامور العظائم

مقيم بأطراف الثنايا صبابةأسائل عن أظعانكم كل قادم

و أرقب خفّاق النسيم اذا حدامن الغرب أعناق الرياح الهواجم

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۹۷ بنات السّرى هذا الذى كان قلبهيسومك أن تصلى بنار العزائم

و من كل وضاح الحسام مشمرااذا شحبت فينا وجوه المظالم

يمسّح أضغان العدوّ و انمايقبّل ثغرا من ثغور الأراقم

اذا شهد الحرب العوان تدافعتصدور المواضى فى الطلى و الجماجم

و عفّر فرسان العدا و دماؤهمجوامد ما بين اللحى و العمائم

حدا فقده كلّ العيون الى البكافقطّع أرسان الدموع السواجم

و ما خطرت منه على المجد زلةفيقرع فى آثارها سنّ نادم

ألا ليت شعرى هل أبيتنّ ليلةألاطم أعناق الرّبا بالمناسم

و هل تقذف البيداء رحلى اليكمتنفّس عن ليلى أنوف المخارم

و لا بدّ أن ألقى العدا فى حميلةمن الخيل تولى بالقنا و الصوارم

و الجمع بين الفخر و النسيب كثير فى شعر الشريف، و هو شاهد على اشتباك النوازع فى تلك الروح، فذلك قلب يجمع بين العنف و اللطف، و القسوة و اللين، هو قلب عامر النواحى، فيه حنان الأطفال، و صيال الأبطال، يرقّ فتحسبه نسيما، و يقسو فتحسبه جحيما، و انظروا كيف يقول و هو يجمع بين الفخر و النسيب:

يا دار ما طربت اليك النوقالا و ربعك شائق و مشوق

جاءتك تمرح فى الأزمّة و البرىو الزجر ورد و السّياط عليق

و نحنّ ما جدّ المسير كأنماكل البلاد محجّر و عقيق

دار تملّكها الفراق فرّقهابالمحل من أسر الغمام طليق

شرقت بأدمعها المطىّ كأنمافيها حنين اليعملات شهيق

الآن أقبل بى الوقار عن الصبافغضضت طرفى و الظباء تروق

و لو أننى لم أعط مجدى حقهأنكرت طعم العز حين أذوق

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۹۸ رمت المعالى فامتنعن و لم يزلأبدا يمانع عاشقا معشوق

و صبرت حتى نلتهنّ و لم أقلضجرا دواء الفارك التطليق

ما كنت أول من جثا بقميصهعبق الفخار و جيبه مخروق

كثرت أمانيّ الرجال و لم تزلمتوسعات و الزمان يضيق

من كل جسم تقتضيه حفرةفكأنه من طينها مخلوق

و القصيدة طويلة جدا، و يكفى أن ننبه إلى بعض المحاسن فيما أنشدناه و الشاعر فى هذا النسيب يجعل المطىّ باكيات، و الشعراء يتصورون المطى باكيات، و لكنها فى هذه المرة تبكى لبكاء الشاعر فهى لا تحن الى العطن الذى ستعود اليه، و انما تبكى على الديار التى يفارقها صاحبها الأمين و يصور الشاعر ما يقع من النزاع بين العقل و الهوى فيقول:

الآن أقبل بى الوقار عن الصبافغضضت طرفى و الظباء تروق

ثم ينص على أن العزّ لا طعم له الا إن ناله الرجل عن طريق الكفاح فيقول:

و لو اننى لم أعط مجدى حقهأنكرت طعم العز حين أذوق

و يرى المعالى معشوقات فيقول:

رقت المعالى فامتنعن و لم يزلأبدا يمانع عاشقا معشوق

و قد صدق: فالعزائم كالقلوب لها صبوات، و المعالى أحق بالعشق من الملاح و يتأثر الخلق النبيل خلق الفتيان الذين يتمدحون بالقميص الممزق، فيقول:

ما كنت أول من جثا بقميصهعبق الفخار و جيبه مخروق

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۱۹۹

و عبق الفخار أشرف من عبق الطيب، و إن غضب الشبان الظرفاء.

و النص على الخشونة و التشعث فى شجعان الفتيان قديم فى الشعر العربى فما ابتكره الشريف، و لكن إلحاحه فى توكيد هذا المعنى له دلالة قوية عند من يعقلون، و انظروا أيضا كيف يقول:

وعدت يا دهر شيئا بتّ أرقبهو ما أرى منك إلا وعد عرقوب

و حاجة أتقاضاها و تمطلنىكأنها حاجة فى نفس يعقوب

لأتعبن على البيداء زاحلةو الليل بالريح خفّاق الجلابيب

فى فتية هجروا الاوطان و اصطنعواأيدى المطايا بإدلاج و تأويب

من كل أشعث ملتاث اللثام لهلحظ تكرّره أجفان مذءوب

يوسّد الرحل خدا ما توسّدهقبل المطالب غير الحسن و الطّيب

و هو فى هذه المرة يجعل جنوده شبانا نشأوا فى النعيم، ثم قهرهم حب المعالى على فراق النعيم، و هذا أبلغ فى تصوير المجد.

و يصور قلق الفتى الصوّال فيقول:

سئمت زمانا تنتحينى صروفهوثوب الأفاعى أو دبيب العقارب

مقام الفتى عجز على ما يضيمهو ذلّ الجرىء القلب إحدى العجائب

سأركبها بزلاء إما لمادحيعدّد أفعالى و إما لنادب

إذا قلّ عزم المرء قلّ انتصارهو أقلع عنه الضيم دامى المخالب

و ما بلغ المرمى البعيد سوى امرىءيروح و يغدو عرضة للجواذب

و ما جرّ ذلّا مثل نفس جزوعةو لا عاق عزما مثل خوف العواقب

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۲۰۰ ألا ليت شعرى هل تسالمنى النوىو تخبو همومى من قراع المصائب

إلى كم أذود العين أن يستفزهاو ميض الأمانى و الظنون الكواذب

حسدت على أنى قنعت فكيف بىإذا ما رمى عزمى مجال الكواكب

و ما زال للانسان حاسد نعمةعلى ظاهر منها قليل و غائب

و أبقت لى الأيام حزما و فطنةو وقّرن جأشى بالأمور الغرائب

توزّع لحمى فى عواجم جمّةو بان على جنبىّ و سم التجارب

و فى هـذه القصـيدة يبـدو الشـريف هادىء النفس، و لكنه هـدوء من يزعجه الهـدوء، و كيف يهـدأ من يتصور الحوادث و هى تـدبّ دبيب العقارب، أو تثب و ثوب الأفاعى؟

و هو يرى مقام الفتى على الـذل عجزا قبيحا، و يرى ذل القلب الجرىء إحـدى الأعاجيب. و انظروا الصورة الشـعرية التى يمثلها الشـطر الثانى من هذا البيت:

إذا قلّ عزم المرء قلّ انتصارهو أقلع عنه الضيم دامى المخالب

و هو يرى الذل من ثمار الجزع، و يرى خوف العواقب داء يقتل عزائم الرجال.

و هناك دالية نرى تنبيهكم اليها من أوجب الفروض، و هى مما جمع فيه بين الفخر و النسيب:

لأى حبيب يحسن الرأى و الودّو أكثر هذا الناس ليس له عهد

أكل قريب لى بعيد بودهو كلّ صديق بين أضلعه حقد

و للّه قلب لا يبلّ غليلهوصال و لا يلهيه عن خله وعد

يكلفنى أن أطلب العز بالمنىو أين العلا إن لم يساعدنى الجدّ

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۲۰۱ أحنّ و ما أهواه رمح و صارمو سابغة زعف و ذو مبعة نهد

فيا لى من قلب معنّى به الحشاو يا لى من دمع قريح به الخد

أريد من الأيام كل عظيمةو ما بين أضلاعى أسد ورد

و ليس فتى من عاق عن حمل سيفهإسار و حلّاه عن الطلب القد

إذا كان لا يمضى الحسام بنفسهفللضارب الماضى بقائمه الحد

و ما العيش إلا أن تصاحب فتيةطواعن لا يعنيهم النحس و السعد

إذا طربوا يوما إلى العز شمّرواو إن ندبوا يوما إلى غارة جدّوا

و كم لى فى يوم الثوية رقدةيضاجعنى فيها المهنّد و الغمد

و لو شاء رمحى سدّ كل ثنيةتطالعنى فيها المغاوير و الجرد

نصلنا على الاكور من عجز ليلةترامى بنا فى صدرها الغور و الوهد

طردنا اليها خفّ كل نجيبةعليها غلام لا يمارسه الوجد

و دسنا بأيدى العيس ليلا كأنماتشابه فى ظلمائه الشّيب و المرد

ألا ليت شعرى هل تبلّغنى المنىو تلقى بى الاعداء أحصنة جرد

يعيد عليها الطعن كل ابن همةكأن دم الأعداء فى فمه شهد

يضارب حتى ما لصارمه قوىو يطعن حتى ما لذابله جهد

إذا عربى لم يكن مثل سيفهمضاء على الأعداء أنكره الجد

و القصيدة طويلة، و فى هذه النفثات كفاية.

و الشـاعر يـذكر أن قلبه يكلفه طلب العز بالأمـانى، ثم يثـور على هـذا المطلب لأـنه يعرف أن المعـالى لاـ تنـال بالأمـانى، و إنمـا تنـال

بالجهاد.

و يرى أن الحسام ان لم يمض بنفسه فليس له حدّ، و إنما الحد للضارب

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۲۰۲

الماضى. و هذا معنى نفيس. و إليكم بيت القصيد:

إذا عربىّ لم يكن مثل سيفهمضاء على الاعداء أنكره الجد

و انظروا روعة الفخر فى هذه الأبيات:

شبابى إن تكن أحسنت يومافقد ظلم المشيب و قد أساء

و يا معطى النعيم بلا حساب‌أتانى من يقترّ لى العطاء

متاع أسلفتناه الليالىو أعجلنا فأسرعنا الأداء

سأمضى للتى لا عيب فيهاو إن لم أستفد إلا عناء

و أطلب غاية إن طوحت بى‌أصابت بى الحمام أو العلاء

أنا ابن السابقين إلى المعالىإذا الامد البعيد ثنى البطاء

إذا ركبوا تضايقت الفيافىو عطّل بعض جمعهم الفضاء

نمانى من أباة الضّيم نام‌أفاض علىّ تلك الكبرياء

شأونا الناس أخلاقا لداناو أيمانا رطابا و اعتلاء

و نحن النازلون بكل ثغرنريق على جوانبه الدماء

و نحن الخائضون لكل هول‌إذا دبّ الجبان به الضّراء

و نحن اللابسون لكل مجدإذا شئنا ادراعا و ارتداء

أقمنا بالتجارب كل أمرأبى إلا اعوجاجا و التواء

تجرّ إلى العداة سلاف جيش‌كعرض الليل يتّبع اللواء

نطيل به صدى الجرد المذاكىإلا أن نورد الاسل الظّماء

أقف عند هذا الحد. أيها السادة، فما يتسع وقتى للنص على جميع المواطن التى تحدّث فيها الشريف عن العلاـ و المعالى، و هى محفوظة فى مذاكراتى،

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۲۰۳

و أنا أضن بها على تلاميذى، لأنى أحب لتلاميذى أن يرجعوا بأنفسهم إلى ديوان الشريف و أن يرفعوا ما أقام أستاذهم من قواعد البناء.

أحب لتلاميذى أن يحفظوا جميع ما قال الشريف فى العلا و المعالى فتلك بوارق من الروحانية تحيى ميت العزائم، و تقيم ما صدّعته أجيال البؤس من النخوة العربية.

أحب أن يرجع تلاميذى فيفتشوا على ما أغفلت من القصائد، أحب لهم أن يطيلوا صحبة هذا الروح المتوقد الذى أقام الشرائع لعزائم الفتيان.

و أنتهز هذه الفرصة، أيها السادة، فأعتب على القدماء من مؤرخى الأدب العربى، فقد رأيت أن هذا الشاعر لم يفتنهم إلا بقصائد الحجازيات و لو أن اللّه كان هداهم فالتفتوا إلى أشعاره فى المعالى كما التفت أبو تمام إلى أشعار العرب فى المعالى لأخرجوا من ديوان الشريف مجموعة نفيسة تنفع أجزل النفع فى توجيه الشبان إلى التخلق بأخلاق الأبطال.

اسمحوا لى أيها السادة أن أبتكر عبارة جديدة هى عبارة «معالى الشريف» فهى عندى أفحل و أصدق من «حجازيات الشريف» و هى أعظم من «زهديات أبى العتاهية» و «تشبيهات ابن المعتز» و «مدائح البحترى» و «خمريات أبى نواس».

إن «معالى الشريف» قصائد مقدودة من الفتوّة، و منحوتة من العزيمة و النظر فيها يعود على الروح بأقباس الفحولة و البطولة، و يدخل على الدم جبروت النار و الحديد.

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۲۰۴

الشريف كاتبا و مؤلفا

۱- فى الرابع عشر من صفر سنة ۱۳۵۷ فرغت من كتاب «عبقرية الشريف الرضى» و أنا اليوم فى السابع و العشرين من المحرّم سنة ۱۳۵۹، و قد لا أفرغ من هذه الحواشى إلا فى الرابع عشر من صفر، لأنى موزّع الوقت و الجهد بين أسفار و شواغل لا تمنحنى من هدوء البال ما أريد.

فأين كنت من صحبة الشريف قبل فراق عامين؟

كنت أنهيت القول فى حياته الشعرية، و لم يبق إلا أن أتحدث عن مكانته فى الكتابة و التأليف، فما الذى جدّ بعد ذلك الفراق؟

ظهرت فصول عن الشريف الرضى فى مجلة «الغرىّ» كتبها سماحة السيد محمد الحسين آل كاشف الغطاء، و هو من أكابر أهل العلم بالنجف، و لكن تلك الفصول لم تحملنى على أن أرجع إلى كتابى بشىء من التغيير أو التعديل: لأن طريقتى فى البحث تختلف عن طريقته كل الاختلاف، و لأنى أحرص دائما على تجنّب الطريق المسلوك عسانى أوفّق إلى رأى طريف.

و قد تلطّف السيد آل كاشف الغطاء فأشار إلى اسمى مرة بالتصريح و مرة بالتلميح فى مواطن أوجبت فيها الأمانة العلمية ان يستأنس بكلامى فعليه منى أجزل الثناء.

۲- و الآن أرجع إلى الشريف الكاتب و المؤلف بعد أن استجمعت عامين فأقول:

لم يصح عندى أن الشريف كان من كتّاب الرسائل القصار أو الطوال، و إن كنت احتفظت بالآثار التى نقلتها مجلة «العرفان» عن كتاب الدرجات

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۲۰۵

الرفيعة، فى أعيان الشيعة، للسيد على خان الشيرازى .

و تعليل ذلك سهل فالشريف غلبت عليه النزعة الشعرية فى كل ما يتصل بنقد المجتمع او الإفصاح عن الوجدان.

و الثروة التى أثرت عنه فى التأليف لا- تنفى ما أقول: لأن تأليف الكتب غير إنشاء الرسائل، فالمؤلف يتخذ أسلوبا فى التعبير يغاير اسلوب النثر الفنى، و قد يبعد عنه اشد البعد فى كثير من الاحايين. الشريف كاتب بلا جدال و لكن طريقته فى التعبير طريقة علمية لا فنّية، و ان غلبت عليها الصنعة فى بعض الاحوال.

و المهمّ هو النص على أن الشريف شاعر أولا- و قبل كل شىء، فحياته الشعرية هى ثروته الباقية على الزمان، و ان كان من أعاظم الباحثين فى الحدود التى تسمح لرجل مثله بأن يكون من أقطاب الحياة الفكرية و العلمية فى عصر «اخوان الصفاء».

و معاذ الأدب أن استخفّ بآثار الشريف فى ميادين الفكر و العقل:

فقد بلغ الغاية فى كتاب «المجازات النبوية» و كتاب «حقائق التأويل» و لو كان الشريف غير شاعر لاستطاع أن يزاحم أماثل العلماء، و لكن عبقريته الشعرية جنت عليه فخفّ ميزانه فى الحياة العلمية بالقياس الى بعض معاصريه و منهم اخوه الذى أتى بالأعاجيب فى الفقه و التوحيد.

و لو أن الرضىّ وقف عند آثاره العلمية لكان له مكان بين أقطاب المؤلفين و لكنه شغل الناس بشعره الفائق فظنوه وسطا بين الباحثين،

و هو عند التأمل من أساطين الفكر المنظم الدقيق.

۳- و هنا تسنح الفرصة لتسجيل خصيصة من خصائص الشريف:

فأشعاره لا تشهد بأنه من المشتغلين بالعلوم اللغوية و الشعرية، لأنها فى

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۲۰۶

الأغلب خالية من السّمات الاصطلاحية، و لأنها أدب صرف لا يعرف البهرج و التزويق الا فى الحدود المقبولة من الصناعة الشعرية، و لو قيل ان الشريف شاعر بدوى ينطق بالفطرة و السليقة و انه أمىّ لا يقرأ و لا يكتب لجاز ذلك فى أذهان من يجهلون مكانته فى التاريخ.

الشريف شاعر بدوىّ منقطع عن الحياة العلمية أشد الانقطاع و هو فى هذه الناحية ظاهر كل الظهور، بحيث يظنّ أنه لم يعرف من حياة العلم ما عرف بشار و أبو نواس و ابن الرومى و المتنبى، الشريف فى شعره بعيد كل العد من اساليب العلماء من نحاة و لغويين و فقهاء، هو شاعر بدوى لا تظهر عليه سيما الحضارة الا فى ترف العقل و الذوق، و هو فى شعره أقل حضارة من عمر بن ابى ربيعة و من الكميت و من جميل، مع انه نشأ فى بغداد و عرف المترفين من أهل فارس و أهل العراق، الشريف فى شعره نموذج للسليقة البدوية التى لم تعرف من الحضارة غير أطياف و لم تسمع بقعقعة النحاة و اللغويين فى بغداد.

فإذا انتقلنا إلى نثر الشريف رأينا شخصية جديدة، رأينا عالما يشهد نثره العلمىّ بأنه من أقطاب الادباء، رأينا رجلا يكتب فى العلوم اللغوية و الشرعية بأسلوب مضمّخ بعطر الأدب الرفيع.

و كذلك نعرف أن للشريف شخصيتين مختلفتين بعض الاختلاف:

شخصية الشارع المطبوع، و شخصية العالم الأديب.

فكيف اتفق لصديقنا الشريف أن يكون كذلك! أغلب الظن أن الرجل كان يعمد إلى الابتكار و الابتداع: كان يرى شعراء عصره قد غلبت عليهم المظاهر الحضرية فآثر التفرد بالشمائل البدوية، فهو بالشعر بدوىّ و هو فى العلم أديب. و تلك خصيصة نادرة

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۲۰۷

فى ذلك الزمان.

و تظهر هذه الخصيصة إذا وازنا بينه و بين أخيه، و قد نشآ فى بيت واحد و تلقّيا العلم فى الحداثة على رجل واحد هو الشيخ المفيد، فأخوه المرتضى يكتب كما يكتب العلماء، و يشعر كما يشعر العلماء، و نفسيته نفسية عالم لا نفسية أديب، حتى قيل إن المرتضى كان يحرص على منافع دنياه حرص الفقهاء، أما الرضى فكان رجلا سمحا يجود بما يملك، و يرى الكرامة أثمن ما يحفظ الاحرار من ذخائر الوجود.

۵- شخصيّة الشريف شخصية معقّدة عند من يجهل، و لكنها فى غاية من البساطة و الوضوح عند من يعرف، هو رجل يحب التفرد بكرائم المعانى، فهو يشتهى أن يكون شاعرا لا كالشعراء، و أن يكون عالما لا كالعلماء و قد وصل إلى ما يريد.

و لو اتسع المجال لدرس خصائص الشريف لوصلنا إلى طرائف: فأنا أعتقد أن لغة الشريف فى شعره تجمع النوادر من الالفاظ البدوية، و أن لغة الشريف فى نثره تجمع الاطايب من المصطلحات العلمية.

و من المحتمل أن لا تكون حياة العلم عرفت باحثا أمضى قلما من الشريف قبل ذلك العهد، و قد قوى عندى الظن بأنه مهّد السبيل لعبد القاهر الجرجانى، فعبد القاهر عندى تلميذ الشريف فى الميادين البيانية، و ليس كتاب «دلائل الإعجاز» إلا خطوة ثانية بعد كتاب «المجازات النبوية» و إن كان الجرجانى أقدر من الرضىّ على الإفاضة و الاستقصاء.

۶- قد أقول: إن البويطى فى «الامّ» هو أول عالم شرح دقائق الفقه بأسلوب أدبىّ، و إن سيبويه فى «الكتاب» هو أول نحوى شرح تكوين الجمل بعبارة أدبية، و لكنى مع ذلك مقهور على الاعتراف بأن

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۲۰۸

الشريف تفرّد من بين سائر الباحثين بأسلوب يجمع بين الرقة و الجزالة فى شرح أغراض القرآن و الحديث.

فكيف اتفق ذلك الشريف.

أعتقد أن مرجع ذلك إلى أخلاقه الشخصية:

فالشريف كان رجلا صريحا فى جميع ما يتناول من الشؤون، و أظهر صفة من صفات الشريف هى بغض النفاق، ألم يتخذ الحج موسم صيد و هو نائب عن خليفة المسلمين؟

كان الشريف يرى أن التعبير الصريح عن أوطار القلوب لا يقع إلا من أشراف الرجال، و بهذا الرأى صح له أن يعبّر عن أحلام هواه بقصائد خالية من شوائب الزور و الرياء.

و قد انساق هذا الطبع السّمح إلى حياته العلمية فعبر عن أغراضه فى اللغة و الفقه و التوحيد بعبارات هى أسلس و أرشق من تبختر الجدول الرّقراق.

۷- و هنالك خصيصة ظاهرة من خصائص الشريف، هى اندماجه اندماجا كليا فى الجوّ الذى يعيش فيه: فهو فى الشعر يخيّل إليك أنه لا يحلّق فى غير الأجواء الشعرية، و يكاد من يطلع على ديوانه يؤمن إيمانا جازما بأنه لم يعرف التعبير عن أغراضه بغير القوافى، و مثله فى ذلك مثل ابن الرومى و قد قيل إن الشعر كان أقل أدواته، و هو قول لا نصدّقه إلا بعناء، لأن شاعرية ابن الرومى أدت إلينا محصولا يمنع من الاطمئنان إلى أنه كان يعبر عن أغراضه بغير القوافى، و قد قرأنا مرة أن البحترى كان من المؤلفين فلم نصدّق، لأن البحترى فيما نرى لا تجود فطرته بغير الغناء.

و قد اتفق لأبى تمام أن يكون مؤلفا، و لكن كيف؟ غلب عليه التصنيف فى اختيار الاشعار، و هو فن ينساق مع ذوق الشاعر كل الانسياق.

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۲۰۹

۸- يمكن للشاعر أن يكون مؤلفا، كما يمكن للمؤلف أن يكون شاعرا، و لكن الذى وقع للشريف عجب من العجب، فمؤلفاته تشهد بأنه أديب، و لكنها توهمك أنه لم يكن شاعرا تعدّ جياد أبياته بالالوف.

ما الذى نراه حين نقرأ مؤلفات الشريف.

نجد رجلا يحيل على مباحثه الماضية بأسلوب يشعرنا بأنه قضى دهره و هو مشغول بالتأليف، نجد رجلا يحدثنا عن مؤلفاته بلغت العشرات فى موضوعات مختلفات، و تشهد قوة تعبيره، و غزارة علمه بأن «المؤلف» هو الشخصية الاصيلة التى تحتل صدر ذلك الباحث الجليل.

و مؤلفات الشريف تقنعنا بأنه لم يعرف غير الحياة العلمية، و لم يعان شواغل السياسة و الشعر و الحب، و لو أن ديوان الشريف كان ضاع و بقيت مؤلفاته لما صدّق أحد أنه كان من أعلام الشعراء، فضلا عن التصديق بانه أشعر قريش.

۹- يضاف إلى ذلك أن الشريف المؤلف كان واسع الافق: فهو يكتب فى الفقه و التوحيد و النحو و البيان، و له إشارات إلى مؤلفات الأكابر تدل على أنه من المطلعين على ذخائر العلوم الادبية و الشرعية، و له توجيهات لكلام، من سبقوه، توجيهات تشهد بانه تناول حياة التاليف بالنقد و التمحيص و التهذيب.

الشريف العالم شخصية هائلة جدا، و هى تنسيك مواهبه الأدبية و السياسية و الوجدانية، و تفرض عليك الإيمان بانه لم يجد غير ذلك الفن من فنون التفكير الحصيف.

فكيف اتفق له ذلك.

لا تنس أنه كان إماما من أئمة الدين «و أن شهرته بالشعر و الحب كانت

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۲۱۰

تؤرّقه من وقت إلى وقت، لأنها كانت دعامة يعتمد عليها أعداؤه فى الغض من مكانته الدينية، مساهم يهوّنون من شانه فيقصونه عن مناصب التشريف باسم الدين.

فهل نستطيع أن نقول إن الشريف كان يتعمد الكتابة فى الشؤون اللغوية و العلمية ليصدّ عن مجده الادبى و السياسى عدوان خصامه و منافسيه.

لذلك شواهد فى العصر الحديث، فقد كان شاع أن الشيخ محمد عبده رجل أديب لا يصل ذهنه إلى قرارة العلوم الازهرية، فحمله ذلك على الدفاع عن سمعته العلمية، فالف فى شؤون دقيقة لا يحسنها إلا الأزهريون المتفوقون.

و كان شاع أن الشيخ محمد المراغى رجل بعد عهده بالعلوم الازهرية فصدّ كيد خصومه بدروس ألقاها فى علم الاصول.

۱۰- لم يبق عندى شكّ فى أن الشريف كان يفهم جيدا أنه معرّض للأكاذيب و الاراجيف بسبب إيغاله فى شعاب الصبابة و الوجد، و بسبب حيرته فى بيداء الحياة السياسية، فلم يكن له بدّ من تمزيق الحبائل التى ينصبها أعداؤه و حاسدوه، و كذلك أقبل على التالف بعزائم الفحول ليقيم الادلة و البراهين على انه أهل للتشريف باسم العلم و الدين.

فما الذى وصل اليه؟

ما زال الرجل يبدىء و يعيد حتى أتى بالغرائب و العجائب فى ميادين الفكر و العقل، و حتى صحّ القول بانه تفرد بآراء لم يهتد إلى مثلها الاسلاف.

۱۱- و هنا تظهر خصيصة جديدة من خصائص الشريف، هى خصيصة العالم المزوّد بادوات الادب، و الادب هو ديوان العرب، و هو

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۲۱۱

التعبير الصادق عن ذوقهم الاصيل.

و لو بقيت آثار الشريف فى التاليف لجاز القول بانه طراز فريد بين أقطاب المؤلفين، و لكانت له منزلة تعز على من رامها و تطول.

على أن الآثار الباقية لهذا الباحث المبتكر لم تخيّب ظنون محبيه، فهى تدلّ على القيمة الاصيلة لمواهبه العقلية، و هى تعرب عن قدرته على التصرف فى علوم القدماء.

۱۲- و ليست اولئك الخصائص هى كل ميزات الشريف المؤلف، فهنالك خصيصة أعظم و أروع، و هى طغيان العقلية العلمية على النزعة المذهبية.

كان الشريف شيعيا، و الشيعة فيما يظهر كانت لهم آراء خاصة فى فهم أغراض القرآن و الحديث، و الشريف نفسه لم يحفظ القرآن إلا فى سن الثلاثين مع أنه نشا فى بيت من بيوتات الدين، و تلك ظاهرة قد توهم أن حفظ القرآن لم يكن عند جماعته فرضا على المشتغلين بالشؤون الدينية، و من اجل ذلك كثرت القالة حول أولئك القوم و احتاجوا إلى الدفاع عن انفسهم من هذا الجانب الدقيق.

و حين زرت السيد آل كاشف الغطاء بالنجف رأيت أمامه نسخة من المصحف الشريف، فحدّق فى وجهى و قال: إشهد أنك رأيت للمصحف فى يدى و قد زرتنى على غير ميعاد! و انما احتاج الرجل الى هذه العبارة لأن فى الشيعة فرقة لا تهتم كثيرا بالمصحف الشريف، و هى فرقة لا يرضى عنها جمهور الشيعة فى العراق.

و المهم هو النص على ان الشريف كان شيعيا سليما، أعنى انه كان مسلما صحيح العقيدة، و التشيع فى جوهره لا ينافى الدين إلا حين يوكل

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۲۱۲

أمره إلى الجهلاء من أهل الانحراف.

و لا يحتاج الشريف إلى من يشهد له بصحة الدين، و هو من عظماء المؤمنين و إنما انساق القول إلى فضل هذا الرجل فى حماية

البيئات الشيعية من ضلالات الذين كفروا باسم التشيع، و هو فضل عظيم.

مثل الشريف بين أهل التشيّع كمثل الجاحظ بين أهل الاعتزال، فالجاحظ لا يدرك مراميه غير الخواصّ، و كذلك الشريف لا يدرك مراميه غير الخواص.

و أقول: إن اهتمام الشريف بشرح خصائص البلاغة القرآنية و البلاغة النبوية هو دحض للمفتريات التى وجهت إلى التشيع، و التى ادعت ان الشيعة لا يهتمون بالقرآن و الحديث.

و من هنا نفهم أن الشريف المؤلّس كان معلّما عظيما، و كان من الساهرين على رعاية الوحدة الإسلامية، و هو بالتكريم خليق.

النفحات السارية فى مؤلفات الشريف هى أنفاس المؤمن الحق، المؤمن الخالص من شوائب الابتداع و التجديف .

۱۳- يؤيد هذا ما أثر عن الشريف من الاهتمام بدرس مذهب الشافعى و هو مذهب سنى أصيل، و لا يقال إن مرجع ذلك إلى عذوبة لسان الشافعى فيما يتصل بأهل البيت، لأن تعظيم أهل البيت مما يرعاه السنيون كما يرعون كرامة سائر أهل العلم و الدين.

و إمارة الحج التى وكلت إلى الشريف و إلى أبيه من قبل تشهد بأن التشيع لم يكن ينظر اليه بعين الغضب و المقت، فقد كان مذهب أهل السنة هو

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۲۱۳

السائد يومئذ فى العراق، و لم يكن السنيون يرون ما يمنع من أن تكون إمارة الحج لرجل شيعىّ فى مثل فضل الشريف.

فما معنى ذلك؟

معناه أن الغلوّ فى التحاقد بين المذاهب الإسلامية لم يكن يقع إلا من أهل الغفلة و الحمق، أما أهل اليقظة و العقل فكانوا يعرفون أن الاختلاف فى الفروع لا يضير مع الاتفاق فى الاصول، و كذلك اشترك عقلاء السنة فى الالتفات حول راية القرآن و الحديث، و لن تمرّ أعوام طوال قبل أن تسود الالفة بين سائر المذاهب الإسلامية، و يحلّ الوفاق مكان الشقاق.

۱۴- و مهما يكن من شىء فالخلاف بين السنة و الشيعة هو جزء من ماضينا، و هو خلاف كان له فضل عظيم فى يقظة العقول و الآراء، فواجبنا اليوم هو الدعوة إلى التآخى الصحيح بحيث يمكن نسيان ما وقع فى ماضينا من صراع و نضال.

و العبرة من هذا الكلام: هى إبراز شهامة الشريف، الشريف الشيعى الذى عاش فى عصور لا تخلو من ظلمات، و استطاع مع ذلك أن يكون مثلا فى السماحة المذهبية، و أن يظفر بعطف من ترجموا له من أهل السنة، و أهل السّنّة رجال ينصبون و الموازين لأقدار الرجال.

۱۵- و هنا ملاحظة تستحق التسجيل.

لما دخلت العراق وجدت قوما من أهل العلم يحقدون علىّ أشفع الحقد بسبب كتاب «الأخلاق عند الغزالى» ثم هالنى أن أعرف أن السيد هبة الدين الشهرستانى من أولئك الحاقدين و هو شيعىّ لا سنىّ، فكيف يتعصب للغزالى و هو خصمه فى المذهب؟

تعصّب الشهرستانى للغزالى لمعنى نبيل هو الغضب للنيل من إمام جليل

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۲۱۴

مثل الغزالى، و كذلك تكون شمائل العلماء.

و رأيت هناك باحثا يعطف علىّ لاهتمامى بدرس أشعار الشريف و هو الاستاذ عباس العزّاوى فقدّرت أنه شيعىّ، ثم عرفت أخيرا انه سنىّ، و كذلك يكون الصدق فى فهم المعانى.

و رأيت الاستاذ طه الراوى يحفظ ديوان الشريف عن ظهر قلب فحسبت ذلك برّا بالعصبية المذهبية، ثم عرفت أنه سنىّ لا شيعى، و طه الراوى من أعيان الفضل و العلم و الذوق فى بغداد.

صديقنا الشريف هو الذى سنّ شريعة التسامح بين المذاهب و الآراء، و فضله على الشيعة عظيم: لأنه خلق لهم صداقات فى البيئات

السنية و حفظ لهم مكانة عالية فى العراق بفضل جهاده فى الأدب و الدين.

و نحن فى مصر لا- نحس الخلافات المذهبية، و يؤذينا أن نعرف أن إخواننا فى الدين يثور بينهم الخلاف من حين إلى حين، فهل أرجو التقرب إلى اللّه بتهوين شأن تلك الخلافات! و هل أستطيع الترحم على الشريف لأنه منحنى الفرصة لهذه الكلمات التى أردت بها التقريب بين القلوب.

اللّه يشهد أنى أكتب هذا و أنا متوجع، فما يرضينى أن يقال إن فى المسلمين أقواما يخاف بعضهم بأس بعض.

الخلاف جميل على شرط أن لا يصل إلى القلوب.

الخلاف نعمة ربانية إذا وقف عند اصطراع العقول، فان جاوز ذلك فهو رجس من عمل الشيطان.

الشقاقات المذهبية لم يعرفها الشرق و الغرب إلا فى عصور الظلمات، و نحن فى عصر النور، فان لم يكن بد من الخلاف فلنختلف فى أساليب الخلاص من أقفاص الظلم و الاضطهاد، و القراء يعرفون ما أعنى و من أعنى.

يرحم اللّه الشريف فقد داس الشهوات المذهبية بقدميه فظفر بالإعزاز

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۲۱۵

و التبجيل من الجميع.

«وَ فِي ذلِكَ فَلْيَتَنافَسِ الْمُتَنافِسُونَ» ۱۶- أيرانى القارىء حددت خصائص الشريف كاتبا و مؤلفا؟

لقد وضعت الاساس لمن يهمه أن يستقصى أحوال الشريف فى الكتابة و التأليف، و لم يبق إلا أن أقدّم بعض الشواهد التى تعين مذاهبه فى التعبير، فما هى تلك المذاهب! أنا أعتمد فى تحديد مذاهبه الإنشائية على كتابين اثنين: المجازات النبوية، و حقائق التأويل.

أما كتاب «المجازات النبوية» فقد طبع أولا فى بغداد طبعا ممسوخا تأذّى به روح المؤلف، ثم طبع أخيرا فى القاهرة بعناية الاستاذ محمود مصطفى المدرس بكلية اللغة العربية، و قد تأنقت مكتبة مصطفى الحلبى بإخراجه فى حلة رقيقة الحواشى.

و أما كتاب «حقائق التأويل» فقد طبع بالنجف و أخرجه «منتدى النشر» فى رونق جميل.

۱۷- ما هى تلك المذاهب الإنشائية؟

نلمح- أولا- ان الشريف الكاتب قصير النفس، فهو لا يطنب إلا فى قليل من الاحايين.

و نلاحظ- ثانيا- أن الشريف الكاتب قليل الفضول فهو لا يتكلم إلا بميزان.

و نرى- ثالثا- ان الشريف المؤلف قليل الاستطراد، و هذا يشهد بأن النزعة الفنية أغلب عليه من النزعة العلمية، لأن العلماء الذين سبقوه كانوا يتخذون الاستطراد وسيلة إلى عرض ما تقضى به المناسبة من

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۲۱۶

المعارف الأدبية و اللغوية و الشرعية.

و نشهد- رابعا- أن الحرفيات قد تسيطر عليه، فقد همّه أن يسجل أن

قول الرسول فى أحد: «هذا جبل يحبنا و نحبّه»

محمول على المجاز، لأن الجبل على الحقيقة لا يحبّ و لا يحب.

و هذا خطأ من الشريف ساقه اليه خضوعه للحرفيات فى بعض الاحوال فالرسول فى رأيى أراد الحقيقة لا- المجاز، و سرّ ذلك لا يدركه غير من يطمئن إلى فكرة «وحدة الوجود».

و نسجّل- خامسا- أن الشريف يحرص بعض الحرص على السجع و الازدواج، لذلك شواهد مبثوثة فى المجازات النبوية و حقائق التأويل يدركها المطالع بدون عناء.

و نقرر- سادسا- أنه قد ينسى الزخرف نسيانا تاما فى بعض المواضع فيصبح اسلوبه و هو مثل أعلى فى سماحة التعبير، كأن يقول فى

تلخيص ما قاله على بن عيسى النحوى فى أحوال كان:

«قال لى فى القراءة عليه: إن لكان أربعة مواضع: أحدها أن تكون مستقلة بالفاعل غير مفتقرة إلى الخبر، نحو: كان الأمر، أى حدث و وقع.

و الثانى أن تكون ممنوعة من الحدث مفتقرة إلى الخبر، نحو: كان زيد منطلقا و يكون عمرو شاخصا. و الثالث أن تكون زائدة، مثل قولهم:

زيد- كان منطلق و ما- كان- أحسن زيدا، أى ما أحسن زيدا، كقول الشاعر:

«و جيران لنا كانوا كرام» إذا لم تجعل «لنا» الخبر و جعلته صفة جيران كأنك قلت: «و جيران لنا كرام كانوا» و الرابع أن تكون كصار، تقول: كان زيد منطلقا، أى صارت حاله هذه تريد هو الآن كذا لا فيما مضى، و أنشد قول الشاعر:

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۲۱۷ بفيفاء قفر و المطىّ كأنهاقطار الحزن قد كانت فراخا بيوضها

يريد صارت فراخا. قلت أنا و الصحيح فى رواية هذا البيت

«قد صارت فراخا بيوضها» و إنما غيّر ليوافق الاستشهاد، فلأجل ذلك ضعف هذا القسم من بين أقسام كان» .

فهذا كلام تقريرى يقوم على أساس الدقة و الجلاء، ثم ختمه بلفتة نقدية تؤرخ عبث النحاة بروايةالشعر ليوافق الاستشهاد! و هذه اللمحة تبيح لنا أن نسجل- سابعا- أن الشريف فى مؤلفاته كثير الاهتمام بشرح الدقائق النحوية، و النحو كان فى تلك العهود ميدانا لسباق الفرائح الجياد.

۱۸- أما بعد فتلك حالة الشريف الكاتب و المؤلف، و هى تجلوه فى صورة تضيف إلى حياته الشعرية ألوانا من الظلال، و هى تؤكد ما قلناه من أنه شاعر مثقّف يرى الوجود فى ظواهره و خوافيه بعين الناقد البصير الذى لا يشغله التأمل فى جمال الوجود عن النظر فى فهم الرجال لحقائق الوجود.

الشريف عجيب حقا، فهو تارة يحدّثك بأنه كان يقرأ على شيخه فلان باب كذا من أبواب النحو و أن شيخه قال له كيت و كيت، و تارة يحدثك بأنه كان يقرأ على شيخه فلان باب كذا من أبواب الفقه و أن شيخه قال له زيت و زيت، و حينا يذكر أنه اختلف فى فهم آية أو حديث، و انه اعترض بكيت فأجيب بزيت، و احيانا يتحدث عن مصاولاته مع اللغويين و ما نقل عنهم من توجيه كلام الأعراب.

و فى هذا الجوّ المشبع بأقباس المجادلات النحوية و الفقهية و الادبية

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۲۱۸

و اللغوية لا ترى الشريف إلا شيخا يجادل أهل العلم و الأدب و الدين فى مساجد بغداد و هو فى زى المجاورين الذين شرّفهم اللّه بالانقطاع إلى البحث و التنقيب فى مخلّفات القدماء.

ثم تلتفت فتسمع أنه كان فارسا لا يشق له غبار.

ثم تنظر فتعرف أنه كان من أقطاب السياسة و من أهل البصر بتدبير المكايد فى ظلام الليل.

ثم يصل إلى علمك أنه كان عاشقا يحسّ الجمال بأروع مما أحسّ عمر و كثير و جميل.

ثم تسمع أنه صال و جال فى اشهر الاقطار الإسلامية بالشرق.

ثم تعلم انه كان مدير مدرسة، و انه مع ذلك تعقب اخبار الماجنين و العابثين.

ثم تعرف انه كان ربّ بيت و له اهل و أبناء.

فما معنى هذا التعقيد الغريب؟

معناه ان الشريف الرضى كان منوّع المواهب، و ذلك فضل اللّه يؤتيه من يشاء، فلا يعجب الكسالى المتزمتون من ظفره بحسن السمعة

فى جميع ما اخترق من الميادين، و لا- يستكثروا عليه ان يكون من افاضل المؤلفين! و أكابر المربين و أشاوس الفرسان، و اماجد العشّاق، و اماثل العارفين الواصلين، و لو عرف قبره على التحقيق لكان مثابة لطلاب الخيرات و البركات، رحمه اللّه و طيّب مثواه، و جعلنا من اصدقائه الاوفياء!!

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۲۱۹

نهج البلاغة و الشريف

۱- خلّف الشريف فيما خلّف كتابا نفيسا هو «نهج البلاغة» و هو مجموعة كبيرة من الخطب و الرسائل و الوصايا و الحكم و المواعظ المنسوبة إلى أمير المؤمنين .

و ما أحب أن أعيد ما قلته عن أمير المؤمنين فى كتاب «المدائح النبوية» و لا ما قلته عن نهج البلاغة فى كتاب «النثر الفنى» أو كتاب «وحى بغداد».

و إنما يهمنى أن أنشىء فصلا جديدا عن نهج البلاغة أحدد به موقع ذلك الكتاب من الأدب العربى، و أكمل به المباحث حتى تعرضت لها من قبل، و أنا بعيد كل البعد من التحيز لذلك الكتاب أو التحامل عليه.

۲- لقد ثارت الشكوك حول نسبة محصول نهج البلاغة إلى أمير المؤمنين، و هذه الشكوك مما يشرّف ماضينا: لأنها فرع من التحقيق العلمى الذى تفوّق فيه أسلافنا أشد التفوّق، و ما يجوز القول بأن تلك الشكوك قامت جميعا على أساس النزعات المذهبية، فقد كان فى أسلافنا رجال لا يهمهم غير الحق و لا يستهويهم غير الصدق، و لا يرضيهم أن يزوّر التاريخ.

۳- و قد حدثنا ابن أبى الحديد عن ألوان تلك الشكوك، و هى تلخّص فى أن كثيرا من أرباب الهوى يقولون إن كثيرا من نهج البلاغة كلام محدث

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۲۲۰

صنعه قوم من فصحاء الشيعة، و ربما عزوا بعضه إلى الرضى أبى الحسن و غيره.

و نحن نعتب على ابن أبى الحديد بعض العتب، فإن عبارة «أرباب الهوى» لا- تخلو من جفاء، و فيها غض من أقدار الباحثين الذين أرادوا أن يمسّوا نهج البلاغة بالوضع و التزييف.

۴- و الحقّ أن الأدب العربى تعرّض إلى شبهات كثيرة من هذا اللون:

فقد كان للاحزاب السياسية و الدينية دخل فى تلوين الآثار الادبية، و قد حدثنا بعض المؤرخين عن أشعار أضيفت إلى كثير من القبائل الجاهلية، ألم ينص صاحب الاغانى على أن يزيد بن المفرّغ هو الذى صنع الأشعار المنسوبة إلى القبائل اليمنية.

۵- و نزاع المذاهب لم يكن أقل من نزاع القبائل، فقد وصل الخصام بين الأمويين و العلويين إلى أقصى حدود القسوة و العنف، و من المستبعد أن يكون أنصار الغلويين قد تفردوا بالتجمّل و إيثار الصدق فى محاربة أعدائهم من الامويين.

و هل يجوز أن يلتزم العلويون الصمت و هم يرون طلائع الشر تفاجئهم من كل باب.

لا يقول بذلك إلا من يجهل كيف تأرّثت نار العداوة بين الحزبين لذلك العهد، العداوة التى قضت بأن يأمر بنو أمية بسبّ علىّ فوق المنابر، و بأن ينهوا الناس عن تسمية أبنائهم باسمه و هذا الحمق السياسى غير مستغرب:

فقد رأينا له شبيها فى زماننا يوم أمرت إحدى الوزارات المصرية بأن لا يذكر اسم سعد زغلول فى الجرائد! فالذى يتّهم الشيعة بأنهم أنطقوا عليّا بأقوال لم يقلها ليؤيدوا قضيتهم

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۲۲۱

المذهبية لا يبعد فى حكمه عن الروح الذى كان سرى فى الخصومات السياسية لتلك العهود.

۶- و لهذا الرأى شاهد من التاريخ: فقد أسرف الشيعة فى تحقير يزيد حتى صار مثلا فى الرقاعة و السّخف، و مع ذلك رأينا من يرفع يزيد إلى صفوف العظماء، كالذى صنع مؤلف «نجباء الأبناء» فهو يرد قالة بقالة، ليرفع عن يزيد إصر الاراجيف.

و على ذلك لا- يستغرب فى شرعة العقل أن تكون مناقب الامويين و العلويين مدخولة فى كثير من الشؤون وفقا لما اصطلح عليه العرف السياسى من تحقير الأعداء و تعظيم الاصدقاء.

و العرف السياسى خلقه أسلافنا، أو سلكوا فيه مسالك اليونان و الرومان و هو عرف يقضى بأن لا ترى فى صديقك غير الحسن، و لا ترى فى عدوّك غير القبيح.

و الادب العربى مدين للافك السياسى أكبر الدّين، فبفضل ذلك الإفك خلقت محامد و مثالب هى صور روائع من الشمائل الإنسانية، و لو خلا- أدبنا من ذلك الافتعال الجميل أو البغيض لصار مثلا فى العجف و الهزال ۶- و أقول بصراحة إن التزيد على أمير المؤمنين أمر واقع، و هذا التزيد يشرّف من اقترفوه، لأنه يشهد بأنهم كانوا رجالا أقوياء يعرفون كيف يتسلحون للحرب السياسية، و هى حرب لا ينهزم فيها غير من يتورعون عن الابتداع و الافتعال.

و سيأتى يوم نعرف فيه أقدار الكتاب البارعين الذين أمدّوا الحرب السياسية بوقود من سحر الفصاحة و البيان، و الذين أذاعوا فى محصول الادب العربى روح القوة و النضال.

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۲۲۲

۷- التزيّد على أمير المؤمنين أمر واقع، و التنصّل منه جهل، و لكن المشكلة هى وضع «نهج البلاغة» فى موضعه الصحيح.

عندنا فى هذا المقام مشكلتان:

الاولى عبقرية علىّ بن أبى طالب، عبقريته الخطابية و الإنشائية.

و الثانية ضمير الشريف الرضى.

و المشكلة الاولى تحدثت عنها فى كتاب «النثر الفنى» فقد كان معروفا ان ابن أبى طالب له مجموعة من الخطب، مجموعة تحدث عنها الجاحظ فى مطلع القرن الثالث، و هل يعقل أن يتضيع آثار ابن أبى طالب ضياعا مطلقا و كان فى زمانه و بشهادة خصومه من أفصح الخطباء.

كان على خطيبا مفوّها، و كان كاتبا فصيحا.

فأين ذهبت آثاره فى الخطابة و الانشاء؟

و هل يعقل أن تضيع آثاره و حوله أشياع يحفظون كلّ ما ينسب اليه؟

هل يعقل أن يحفظ الناس أشعار العابثين و الماجنين من أهل العصر الاموى و ينسوا آثار خطيب قتل بسببه ألوف و ألوف من أبطال الحروب؟

و من الذى يتصور أن الذاكرة العربية تحفظ أشعار النصارى و اليهود و تنسى خطب الرجل الذى غسّل بدمه فى يوم من أيام الفتن العمياء؟

و إذا جاز أن يحفظ الناس ما دسّه المغرضون على أمير المؤمنين فكيف يجوز أن ينسوا اما نسب اليه على وجه صحيح؟

و أين العقل الذى يقبل القول بأن عليّا لم يحى بيانه إلا فى الآثار المفتريات؟

أين و نحن نجزم بأن فى الشيعة أنفسهم رجالا من العرب الصرحاء الذين يؤذيهم الكذب و الافتعال.

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۲۲۳

و هل كان الشيعة إلا قوما تستهويهم السياسة حينا، و يأسرهم الصدق فى أحايين.

لا مفرّ من الاعتراف بأن «نهج البلاغة» له أصل، و إلا فهو شاهد على أن الشيعة كانوا أقدر الناس على صياغة الكلام البليغ.

۸- أما ضمير الشريف الرضىّ فهو عندى فوق الشّبهات، و هو قد خدم التشيّع بالصدق لا بالافتراء، فان كان جمع آثار على بن ابى طالب خدمة سياسية لمذهب التشيّع فهو ذلك، و لكنها خدمة أدّيت بأسلوب مقبول هو إبراز آثار أمير المؤمنين، و لا يعاب على الرجال أن يخدم مذهبه السياسى بجميع الوسائل و الاساليب ما دام فى حدود العقل و الذوق.

فان قيل إن النقد الصحيح يشهد بأن فى مجموعة «نهج البلاغة» أشياء يبعد صدورها من على بن أبى طالب بسبب الغلوّ فى العصبية، أو بسبب ضعف الديباجة، او بسبب التكلف الذى خلت منه لغة الصدر الاول، بسبب الكلمات الاصطلاحية التى لم تشيع فى ذلك العهد، إن قيل ذلك فنحن نجيب بأن إصر تلك الاشياء لا يقع على عاتق الشريف، و إنما يقع على عواتق من سبقوه من الذين طاب لهم ان ينطقوا امير المؤمنين بأقوال رأوها تؤيد مذهبهم بعض التاييد.

انا لا اقول بأن مجموعة «نهج البلاغة» صحيحة النسب الى امير المؤمنين فى كل ما اشتملت عليه، ففيها فقرات و فصول ينكرها الناقد الحصيف.

و لكنى اقول بأن آثار على بن ابى طالب تعرّضت لمثل ما تعرضت له سائر الآثار الادبية و السياسية و الدينية، ثم اجزم بأن ما فات الشريف من التحقيق لم يقع عن عمد، و إنما وقع عن جهل بما تعرضت له تلك الآثار من الوضع و الافتراء.

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۲۲۴

۹- و هذا الحكم القاسى لا يطوّق به عنق الشريف إلا إن ثبت ان مجموعة «نهج البلاغة» لم تعرّض بعد وفاته للزيادات و الإضافات التى توجبها النزعة المذهبية فى عصور وصل فيها الكفاح السياسى إلى ابعد حدود القسوة و العنف، فان ثبت بعد البحث انها سلمت من الزيادات فهى شاهد على ان الشريف كان يعوزه التدقيق فى بعض الاحايين.

اما اتهامه بالكذب على أمير المؤمنين فى سبيل النزعة المذهبية فهو اتهام مردود، و لا يقبله إلا من يجهل اخلاق الشريف.

۱۰- و مهما تكن حال «نهج البلاغة» فهو وثيقة أدبية و تاريخية و سياسية قليلة الامثال، هو إن صحّ صورة من صور النضال السياسى فى مطلع العصر الاموى، و إن لم يصح فهو ايضا صورة لذلك النضال حسبما فهمت الاجيال التى سبقت مولد الشريف، و هو كذلك ثروة أدبية و لغوية تؤرخ اللغة فى ذلك العهد، او تؤرخ ما فهم الناس انها كانت عليه فى ذلك العهد، و هو ايضا يصور ما فهم العرب من اصول السياسة و المعاش و تدبير الملك فى اعقاب عصر النبوّة، او ما تمثلوه بعد ذلك من تلك الاصول.

هو فى جميع الاحتمالات خدمة أدّاها الشريف إلى اللغة و الادب و السياسة و الاخلاق.

و إنى لأعتقد أن النظر فى كتاب نهج البلاغة يورث الرجولة و الشهامة و عظمة النفس، لأنه فيض من روح قهّار واجه المصاعب بعزائم الاسود.

۱۱- و هناك خدمة ثانية أدّاها كتاب نهج البلاغة للغة العربية، فقد كان فرصة ثمينة لحركة الافهام و العقول.

ألا تعرفون شرح ابن ابى الحديد؟

عبقرية الشريف الرضى، ج۱، ص: ۲۲۵

إن ذلك الشرح هو من ذخائر اللغة العربية: ففيه فوائد ادبية و لغوية و تاريخية و فقهية لا يستهين بها إلا الغافلون عما فى ماضينا الادبى و العلمى من اطايب و فرائد و آيات.

۱۲- فإن ذكرتم ان نهج البلاغة شرح نحو اربعين مرة، و إن ذكرتم ان فيه فصولا ترجمت إلى بعض اللغات الشرقية و الغربية، و إن ذكرتم انه فتح امام النقد ابوابا و مذاهب، و إن ذكرتم ان له فضلا على اكثر الفصحاء من الخطباء، و إن ذكرتم انه اشهر مجموعة و اكبر مجموعة حفظة منسوبة إلى عصر الخلفاء، و إن ذكرتم ان له شرق و غرب و لم تخل منه مكتبة عربية او اعجمية من المكتبات التى تستوفى اصول المراجع، و إن ذكرتم ان مفنّديه لم ينكروا قيمته الأدبية ...

إن ذكرتم كل هذه الخصائص عرفتم ان الشريف خدم الادب و اللغة و الاخلاق بجمع أصول ذلك الكتاب الفريد، و صدق ابو فراس

حين قال:

و من شرفى ان لا يزال يعيبنى‌حسود على الامر الذى هو عائب

زكى مبارك مصر الجديدة فى الثامن من صفر سنة ۱۳۵۹

الجزء الثانى

الاصدقاء و الاعداء فى حياة الشريف الرضى

أيها السادة رأيتم فيما سلف ان الشريف الرضى كان يهجم على أقربائه فى بعض الاحيان، و عرفتم تفسير هذه الظاهرة النفسية، فقد كان الشريف رجلا موصول الأواصر بالحياة الاجتماعية و السياسية كان رجل فعلHommed'action و كانت هذه الصفة تمنحه الفرص الثمينة لامتحان الرجال.

و لكن هل معنى ذلك انه لم يكن يعرف المودة و القرابة إلا لغايات نفعية؟

لا، و لكن معناه أنه كان ينتظر من الصديق و القريب أن يكون ساعده الأيمن فى جميع الأحوال، و قد كانت المكاره لا تغزوه إلا من الثغور السياسية و الاجتماعية، فكان من المعقول أن تكون المناصرة فى حروب المجتمع هى أساس ما يرجوه من الاقارب و الأصدقاء.

و يمكن الحكم بأن الشريف تفرد من بين الشعراء بالاسراف فى الكلام عن العدو و الصديق، كما تفرد بالاكثار من شرح العواطف البنوية، و هذه نوازع يرجع بعضها إلى بعض، و ان اختلفت أصولها فى مشاعر الوجدان.

و إلحاح الشريف فى الكلام عن العداوة و الصداقة يشعرنا بأنه كان فى نفسه أعنف عدو، و أكرم صديق.

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۴

و أشعاره تحدثنا بأنه كان يعرف فى نفسه طهارة القلب و عذوبة الروح، و إنه ليخاطب أحد أصدقائه فيقول:

سألقاك بالعهد عند المشيبو ها أنا فى حلية الأمرد

و إنى إذا لم أجد ناصراوجدتك أنصر لى من يدى

خذ الوقت و اعلم بأن اللبيبيأخذ من يومه للغد

فما ينفع المرء بعد المنون قول النوادب لا تبعد

على أننى تحفة للصديقيروح بنجواى أو يغتدى

و انى ليأنس بى الزائرون أنس النواظر بالإثمد

تغمض لى أعين الحاسدين‌كالشمس فى ناظر الأرمد

فلا دخل البعد ما بيننا‌و لا فك منا يدا عن يد

و طول أيامنا بالمقام فى ظل عيش رقيق ندى

و هذه القطعة صريحة بأنه كان يعرف فى نفسه بشاشة القلب و بهجة الروح و هذا الشعور هو الذى كان يدفعه إلى التألم لغربة قلبه بين القلوب كأن يقول:

كفى حزنا أنى صديق و صادقو مالى من بين الأنام صديق

فكيف أريغ الابعدين لخلةو هذا قريب غادر و شقيق

و كان يتلهف إلى الصديق المنشود فيقول:

من لى بغرة صاحب‌لا يستطيل عليه عاب

ما حارب الأيام إلاكان لى و له الغلاب

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۵ هيهات أطلب ما يطول به بعاد و اقتراب

قل الصحاب فان ظفرت بنعمة كثر الصحاب

من لى به سمحا إذاصفرت من القوم الوطاب

من لى به يا دهر و الأيام‌كالحة غضاب

و هذه من نفثات القلوب الظماء إلى موارد الود الرفيق.

و كان الشريف يطرب لاجتماع اخوانه عنده، و يرى أنسه بلقائهم من فرص العيش، و كان يرى إدارة الاحاديث شبيهة بادارة الكؤوس.

كأن يقول و قد اجتمع فى بيته خمسة من الاصفياء:

نظمنا نظام العقد ودا و ألفةو كان لنا البتىّ سلك نظام

أخى و ابن عمى و ابن حمد فانه‌تباريح قلبى خاليا و غرامى

و سادسنا الازدى ما شئت من أب‌جواد و من جد أغر همام

أحاديث تستدعى الوقور إلى الصباو تكسو حليم القوم ثوب عرام

فنضحى لها طربى بغير ترنمو نمسى لها سكرى بغير مدام

تعالوا نول اللائمين تصاممناو نعص على الايام كل ملام

و نغتنم الأوقات إن بقاءهاكمر غمام أو كحلم منام

من اللّه أستبقى صفاء يضمناو طاعة أيام و دار مقام

و أستصرف الاعداء عنا فانناذ اليوم أغراض لكل مرام

و كان الشريف يعرف جيدا كيف يحفظ عهد الصديق، و كان له

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۶

أصدقاء يواسونه أيام البؤس، و فى أحدهم يقول:

يا ذاكر النعماء إن نسيتو مجدد المعروف إن درسا

و منبه الآمال إن رقدتبالطول لا أغفى و لا نعسا

نصل إذا وقف النصول مضى‌جبل إذا اضطرب الجبال رسا

للّه بحر ما هتفت به‌حتى استهل علىّ و انبجسا

أجممت جمته ففاض بهايطا الربا و يبلل اليبسا

زخرت غواربه إلىّ و لم‌يقل الرجاء لعلما و عسى

و أغر مختلس مكارمه‌إن الكريم يرى الندى خلسا

غرس الصنائع ثم عاد به‌عود الندى فسقى الذى غرسا

و له عبارات جيدة فى تصوير الوداد، كأن يقول:

لقد حل ودك من مهجتى‌بحيث يقيل الاسى و الأسا

و كأن يقول:

فلقد حللت من الفؤاد محلةفى حيث ليس من الورى لك جار

فلئن وفيت فما الوفاء ببدعةإن الوفاء لذى الصفاء شعار

و لئن غدرت و لا عجيب إنه‌بعض الزمان ببعضه غدار

نفسى فداء الغادرين تباعدواأو قاربوا أو أنصفوا أو جاروا

و قد أهدى اليه أحد أصدقائه رداء فلم يقبله، فعتب عليه ذلك الصديق

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۷

فكتب اليه الشريف:

عقيد العلا لازلت تستعبد العلاو تعتق منها رق كل أسير

لئن خف من ضافى ردائك عاتقى‌فودك يخطو فى رداء قتيرى

ستعلم أن الثوب يدثر رسمه‌و رسم الهوى فى القلب غير دثور

فلا تشمتن الحاسدين فسرهم‌يشف لظنى من وراء أمور

و قد يشتاق الشريف إلى إخوانه عند البعد و يحن اليهم أرق الحنين، و يظهر أن بغداد على خشونتها فى ذلك العهد لم تبخل عليه كل البخل، فكان له فيها إخوان أوفياء، و إلا فكيف صح له أن يقول:

أخلائى ببغدادجنى دونكم الرمل

و حالت دون لقياكم‌زحاليق النقا الزل

لقد كنت شديد الضن‌أن ينقطع الحبل

و أن ينصدع الشعب الذى لوئم و الشمل و لكنى رعيت الار

ض ما طاب لى البقل‌و عجلت النوى لما

فشا اللأواء و الازل نداماى على الهم

سقى عهدكم الوبل‌و حياكم برياه

جديد النور مخضل عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۸ تذكرتكم و الدمع لا وبل و لا طل‌فما أخلفكم جار

من الماقين منهلّ‌و فى الايام ما يسلى

و لكن أين من يسلو أيها السادة.

ذلكم إحساس الشريف بقيمة الصداقة و الاخوة، و لكن هل هذا كل ما يملك ذلك القلب الطروب؟ هيهات، ففى قلب الشريف بقايا من العاصف، الشوق إلى الاصدقاء الاصفياء، و هو شوق لا نعرفه فى هذه الايام، لاننا نعيش فى زمن عابس متجهم لا نكاد نرى فيه الناس حتى نتخير الاصدقاء، فى قلب الشريف بقايا من الحنان لا يعرفها غير ذلك القلب، و أمثال ذلك القلب، إن كان له أمثال.

هل سمعتم بأخبار أبى الحسن البتى؟ إنه كاتب من كبار الكتاب الذين أنجبهم العراق فى القرن الرابع، و قد نزلت مودته إلى الاعماق من قلب الشريف الرضى، و حسبكم أن تعرفوا أن آخر شعر نظمه الشريف الرضى هو أبياته فى رثاء ذلك الصديق، و أكاد أجزم بأن موت أبى الحسن البتى هو السبب فى موت الشريف الرضى، يشهد ذلك قوله فى ذلك الرثاء:

ما للهموم كأنهانار على قلبى تشب

و الدمع لا يرقى له‌غرب كأن العين غرب

لوداع إخوان الشباب‌مضت مطاياهم تخب

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۹ فارقتهم و العين عين‌بعدهم و القلب قلب

ما كنت أحسب أننى‌جلد على الارزاء صعب

أو أننى أبقى و ظهرى‌بعد أقرانى أجبّ

لا الوجد منقطع الوقودو لا مزار الدار غب

ما أخطأتك النائباتإذا أصابت من تحب

و قد صحت فراسة الشريف، فان النائبات لم تخطئه حين أصابت من يحب، فمات بعد موت ذلك الصديق المحبوب باشهر معدودات، و غربة القلوب تقتل الرجال.

فان سألتم: و أين شعره فى التشوق إلى ذلك الصديق؟ فإنا نقدم اليكم البائية النفيسة التى نعرف بها كيف تسرى المودة فى القلب مسرى السحر فى العيون، و تجول فى شعاب الروح كما يجول الصبا فى قدود الملاح، و تدخل على أصحاب الاذواق دخول البشرى بالامن بعد الخوف، و أنس اللقاء بعد وحشة الفراق، و تصافح الانفس مصافحة الامانى العذاب، و تعاقر أفواه المنشدين فتذكرهم معاقرة الرضاب، قصيدة لا يقولها غير الشريف الرضى، و لا يقدر قيمتها غير أرباب القلوب.

هات يا أبا الحسن ما قلت فى أبى الحسن، فقد اشتقنا اليه و اليك:

أبا حسن أتحسب أن شوقىيقلّ على معارضة الخطوب

و أنك فى اللقاء تهيج وجدىو أمنحك السلوّ على المغيب

و كيف و أنت مجتمع الامانىو مجنى العيش ذى الورق الرطيب

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۰ يهش لكم على العرفان قلبىهشاشته إلى الزور الغريب

و ألفظ غيركم و يسوغ عندىو دادكم مع الماء الشروب

و يسلس فى أكفكم زمامىو يعسو عند غيركم قضيبى

و لى شوق اليك أعلّ قلبىو مالى غير قربك من طبيب

أغار عليك من خلوات غيرىكما غار المحب على الحبيب

و ما أحظى إذا ما غبت عنىبحسن للزمان و لا بطيب

أشاق إذا ذكرتك من بعيدو أطرب إن رأيتك من قريب

كانك قدمة الامل المرجىعلىّ و طلعة الفرج القريب

إذا بشرت عنك بقرب دارنزا قلبى اليك من الوجيب

مراح الركب بشر بعد خمسببارقة تصوب على قليب

أسالم حين أبصرك الليالىو أصفح للزمان عن الذنوب

و أنسى كل ما جنت الرزاياعلىّ من الفوادح و الندوب

تميل بى الشكول اليك حتىأميل إلى المقارب و النسيب

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۱ و تقرب فى قبيل الفضل منىعلى بعد القبائل و الشعوب

أكاد أريب فيك إذا التقينامن الانفاس و النظر المريب

و أين وجدت من قبلى شبابايحن من الغرام على مشيب

إذا قرب المزار فانت منىمكان الروح من عقد الكروب

و إن بعد اللقاء على اشتياقىترامقنا بالحاظ القلوب

و هذا القلب الألوف كان يحمل الشريف الرضى على انتهاب أيام التلاقى خوفا من عدوان الزمان، و انا لنراه يتعجل لقاء بعض اخوانه فيقول:

أأخىّ ما اتسع الزمان على جماعتنا و ضاقا

الا ليعقبنا اجتماعا بالنوائب و افتراقا

سابق فليس تنال أغراض‌المنى إلا سباقا

من قبل أن ترد الخطوب على مودتنا طراقا

فأزيد بعدا من لقائك كلما ازددت اشتياقا

و أراك تمنحنى الصدود و بعد لم أنو انطلاقا

إن كان ذا خوف الفراق فقد تعجلت الفراقا

و هـذا القلب الالـوف هو الـذى كـان يقفه موقف الصـابر المتخشع و هو يعـانى تقلبـات القلوب، و إلاـ فكيف جاز لمثله على إبائه أن يقول:

عذيرى ممن ذم عهدى و قد نبامرارا و قلبى و ادع لا يذمه

تجرّم لما لم يجد لى زلةو أقصدنى باللوم و الجرم جرمه

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۲ تعمدت بعدى عنه من غير سلوةليعلمنى يوم النوى كيف طعمه

و أجممته لا عن غناء و إنمالأشربه فى حر خطب أجمه

و انى و إن والى على القلب حربهلمنتظر أن يعقب الحرب سلمه

و لا تيأسن من عفو حر فإنماتحلمه باق إذا ضاع حلمه

أأطمع أن أنساك يوما و إنماهواك ضجيع القلب منى و حلمه

يقر بعينى منظر أنت قيدهو يعتاق قلبى مطلب أنت غنمه

و للشـريف أشعار كثيرة فى الصفح عن ذنوب الاصدقاء، و لكن الدهر كان يبتليه أحيانا باخوان لا تغفر لهم ذنوب، إخوان يميلون عليه مع الزمان فيسقونه كأس العلقم و الصاب، فنراه يتوجع بمثل هذا الشعر الحزين:

أمسى علىّ مع الزمان أخقد كنت آمل يومه لغد

من كان أحنى عند نائبةمن والدى و أبر من ولدى

لم يثمر الظن الجميل بهفقدى من الظن الجميل قدى

لو كان ما بينى و بينكم‌بينى و بين الذئب و الأسد

لأويت من هذا إلى حرمو لجأت من هذا على عضد

و لأصبحا فى الروع من عددى‌كرما و فى اللأواء من عددى

و لمانعا عنى إذا جعلت‌نوب الزمان تهيض من جلدى

أو كان ما قدمت من مقةسببا إلى البغضاء لم يزد

بل لو قذفت بمدحتى لكم‌فى البحر ذى الامواج و الزبد

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۳ لرمى إلىّ أشف جوهرةو سقى بأعذب مائه بلدى

فلأجعلن عقوبتى أبداأن لا أمد يدى إلى أحد

فتكون أول زلة سبقت‌منى و آخرها إلى الأبد

و هذه الزفرة تنقلنا إلى أشعاره فى الثورة على الغادرين، فنراه أحيانا يقف موقف اليائس من صحة الود فيقول:

تجاذبنى يد الايام نفسىو يوشك أن يكون لها الغلاب

و تغدر بى الأقارب و الأدانىفلا عجب إذا غدر الصحاب

أو يقول:

لأى حبيب يحسن الرأى و الودو أكثر هذا الناس ليس له عهد

أكل قريب لى بعيد بودهو كل صديق بين أضلعه حقد؟

أو يقول:

أشكو النوائب ثم اشكر فعلهالعظيم ما ألقى من الخلان

و إذا أمنت من الزمان فلا تكنإلا على حذر من الاخوان

كم من أخ تدعوه عند ملمةفيكون أعظم من يد الحدثان

و كان للشريف أصدقاء تعوزهم شجاعة الرجال فيسمحون لزوارهم باغتيابه، و كانت الاخوة توجب أن يدفعوا عنه أو ضار الاغتياب، و قد وجه الكلام إلى أحد هؤلاء فقال:

ما رقع الواشون فىّ و لفقواقل لى فاما حاسد أو مشفق

فى كل يوم ظهر دارى مغربلكلامهم و جبين دارك مشرق

و إلى متى عودى على أيديهمملقى ينيب دائما و يحرّق

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۴ كم يسبك الذهب المصفى مرةقد لاح جوهره و بان الرونق

يحلو لهم عرضى فيسترطونهو يصلّ عرضهم الذليل فيبصق

نفضوا عيوبهم علىّ و إنماوجدوا مصحافى الاديم فمزقوا

من لى بمن إن بان عيب خليلهغطاه من شانيه أو من يصدق

و إذا الحليم رمى بسر صديقهعمدا فأولى بالوداد الاحمق

جار الزمان فلا جواد يرتجىللنائبات و لا صديق يشفق

و طغى علىّ فكل رحب ضيقان جلت فيه و كل حبل يخنق

و الشريف الذى يجيد حوك العتاب كان فى بعض أحواله يكره العتاب، أعنى أنه كان ينكر على اخوانه أن يعاتبوه، و هذا وجه آخر من صور النفس، كأن الشريف كان يرى نفسه فوق العتاب، أو كأنه كان يرى أن مثله لا يحتاج فى رعاية الود الى عتاب، و لكن الحالة التى سنشير اليها يختلط فيها العتب بالوعيد، و هى تشرح أصول العداوات التى عاناها الشريف، و الظاهر أنه كان كأكثر الناس يبغض من حيث كان يحب، فأكثر أعدائه هم فى الاصل أصدقاء قدماء، و لا يبتلى الرجل بمحنة أشق من معاداة انسان كان يراه قبلا بعين الصديق.

و شواهد هذه الحالة النفسية كثيرة فى شعر الشريف، و لكنا نكتفى بالقطعة الآتية:

نهنه عتابك الا ان هفا جرمبعض العتاب على الاخلاص متهم

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۵ ما لى أقول فلا تصغى بسامعةتصامم بك عن ذا القول ام صمم

رفقا بأنفك لا تشمخ على مضرو انظر بعينك من زموا و من خطموا

فلست أول من راقت له حللو لست أول من راحت له نعم

من أضمر الصد عمن ليس يضمرهبغيا مشى فى نواحى سره الندم

من أنهضته لقطع الود غدرتهكان المذمم منه الكف و القدم

من ساء ظنا بمن يهواه فارقهو حرضته على إبعاده التهم

متى تجهم غدرا سر عهدكمفان عهدى على غدر بكم حرم

أيها السادة لقد ساقنا الكلام الى ضجر الشريف الرضى من الناس، فلنتذكر أن هذا الرجل عانى فى دهره أشق العداوات، و ابتلته الحوادث بضروب من لؤم الخلائق، و لكنه تماسك و قارع خصومه قراع الفحول، و كان مع ذلك يعود الى نفسه فيدرسها من حين الى حين فيرى نفسه أعدى الاعداء، فهو بذلك من أحكم الناس اذ يقول:

أروم انتصافى من رجال اباعدو نفسى أعدى لى من الناس أجمعا

اذا لم تكن نفس الفتى من صديقهفلا يحدثن فى خلة الدهر مطمعا

و لو انه ألح فى ترديد هذا المعنى لكان له مكان بين أساتذة الاخلاق، و لكن يكفى أنه تنبه الى هذا المعنى، فهو كان يدرك بوحى الفطرة أننا نؤذى أنفسنا قبل أن يؤذينا الناس، و ان الشر لا يسقط علينا سقوط المطر من السماء، و انما نستدعى الشر عامدين بما نسرف فى مكايدة الانداد

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۶

و النظراء، هو كان يفهم انه يتطلع الى انتهاب ما فى أيدى الناس من المناصب العالية، كان يفهم انه يحاول امورا لو طاعت له لتبدلت فى الجو السياسى و الاجتماعى رسوم و شؤون، كان يفهم ان اعلام الناس فى عصره ليسوا أغبياء إلى الحد الذى يسمح بان يجهلوا ما ينطوى عليه مثل صدره من غرض مبيت و سر مكنون.

و الثورة على العيش الضيق و على حياة الخمول هى بداية الحرب بيننا و بين المجتمع، فمن شاء أن يعيش فى سلام مطلق فليكتف بأكل العشب فى البيداء، ثم ليحترس أيضا ففى البيداء خلائق تغار على ما فيها من مساقط الغيث و منابت الاعشاب.

و كذلك نرى الشريف يتنبه الى أسباب العداوة بينه و بين الناس و نراه يدارى الاعداء خوفا من عواقب اللجاجة فى تهييج الضغائن و الحقود، و هو الذى يقول:

تجاف عن الاعداء بقيا فربماكفيت و لم تعقر بناب و لا ظفر

و لا تبر منهم كل عود تخافهفان الاعادى ينبتون مع الدهر

اذا شئت أن تبقى خليا من العدىفعش عيش خال من علاء و من وفر

اذا أنت أفنيت العرانين و الذرىرمتك الليالى عن يد الخامل الغمر

و هبك اتقيت السهم من حيث يتقىفمن ليد ترميك من حيث لا تدرى

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۷

فهو بهذه الابيات يقرر أن سبب العداوة هو بسطة الجاه و المال و يشير بمداراة الاعداء، لأن العداوة كالنار قد تخمد بعض الخمود ان سكتت عنها الريح او تناستها أفواه النافخين، و يذكر ان الذى ينتصر على الاقوياء من الاعداء قد ترميه الليالى بأيدى الضعفاء. و لو كنا نعرف مصادر المخاوف فى كل وقت لدفعناها، و لكن المخاوف تخفى مصادرها فى كثير من الأحايين، فمن الحزم أن لا نعرض أنفسنا للعداوات و هى أسباب المعاطب و الحتوف.

و فى هذه القطعة اشارة الى معان كثيرة. و ليت الشريف احتفل بهذه المعانى، كما يتفق له ذلك فى كثير من الاغراض، و لكن هذه الاشارة تفهمنا انه كان يخاف الضعفاء اكثر مما يخاف الاقوياء، لأن الاقوياء شرهم هين، اذ كانوا يحاربون بأسلحة الرجال، أما الضعفاء فشرهم أخطر و أفظع اذ كانوا يدبون بالوشايات و النمائم كما تدب العقارب فى حلك الظلام، و العدو الضعيف مخلوق خطر، لأن الضعف علمه الدهاء و بصره بأساليب الختل و الخداع، و كان من السهل أن يعمد الأعداء الضعفاء إلى تهوين قدر الشريف فى أنفس أهل العراق. و مثل الشريف كان يعتمد فى حياته السياسية على قوتين: القوة الذاتية و حسن السمعة بين الناس.

و أعيذكم أن تظنوا أنى أتكلف هذا الافتراض، ففى ديوان الشريف شواهد نعرف بها أنه كان مبتلى بأقوام يقرضون عرضه فى الخفاء، و الا فكيف نفسر سكوته عن وصف الخمر مع ان وصفها كان من المذاهب التى سنها شعراء العراق، و كان الشاعر العراقى يصف

الخمر و ان لم تمسسها شفتاه، و الشريف وصف الخمر فعلا و لكنه ينص فى صلب الديوان على أنه سئل وصفها فأجاب.

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۸

و لا تنسوا أن الشريف غلبت عليه الصفة الأدبية- بالرغم من منزلته العلمية التى قضت بأن يكون له مدرسة فيها طلاب يتلقون دروسه فى الصباح و المساء- و الصفة الأدبية حين تغلب على رجل تعرّض سمعته لسيئات الظنون، فقد كان شاع فى البيئات العراقية أن الادباء و الشعراء قوم لا يهمهم غير الهيام بأودية الشياطين.

و لم يكن يسر الشريف الرضى أن يقال انه يتخلق بأخلاق الشعراء لأنه كان يرشح نفسه لمناصب دينية لا يصلح لها إلا المعروفون بطهارة السر و العلانية، و المشهورون بالتقى و العفاف، و حسبكم أن تذكروا أنه كان يرشح نفسه لنقابة الأشراف و إمارة الحج و تولى القضاء، و هى مناصب شائكة توجب على من يسمو اليها أن يتخوف عواقب الأقاويل و الأراجيف قد تسألون: و هل كان الشريف يكتم هذه المعانى؟

و نجيب بأنه كان يصرح بها فى بعض الاحيان، كأن يقول:

و انى إذا أبدى العدو سفاهةحبست عن العوراء فضل لسانيا

و كنت إذا التاث الصديق قطعتهو إن كان يوما رائحا كنت غاديا

و كأن يقول:

و إن مقام مثلى فى الأعادىمقام البدر تنبحه الكلاب

رمونى بالعيوب ملفقاتو قد علموا بأنى لا أعاب

و أنى لا تدنسنى المخازىو أنى لا يروعنى السباب

و لما لم يلاقوا فىّ عيباكسونى من عيوبهم و عابوا

و كأن يقول:

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۹ و جاهل نال من عرضى بلا سببأمسكت عنه بلا عى و لا حصر

حمته عنى المخازى أن أعاقبهكذاك تحمى لحوم الذود بالدبر

و كان الشريف قد امتحن بجماعة من أقربائه يناصبونه العداء، و نحن نعرف أسباب تلك العداوة، فقد كانت هناك مناصب موقوفة على الأشراف، و كانت الحرب على تلك المناصب لا تنفك مسعرة الضريم، و الهجوم على الاخوة و بنى الاعمام باب معروف فى الشعر العربى، و لا يكاد يخلو منه ديوان، فالشريف الرضى لا يبتدع هذا الفن، و لكنه مع ذلك لا يفتعل هذا الفن و لا يقف فيه موقف المحاكين لعواطف القدماء، و إنما يعبر عن عواطف ذاتية أنبتها فى صدره عنف الاهل و لؤم الزمان، و لولا ذلك ما صح له أن يقول:

إذا أشر القريب عليك فاقطعبحد السيف قربى الاقرباء

و كن إن عقك القرباء ممن يميل على الاخوة للاخاء

فرب أخ خليق بالتقالىو مغترب جدير بالصفاء

و أن يقول:

و قل لبنى عمنا الواجدينبنى عمنا بعض هذا الغضب

أ ما آن للراقد المستمرفى ظلم الغىّ أن يستهب

سرحتم سفاهتكم فى العقوقو لم تحفلوا الحلم لما غرب

و لما أرنتم إران الجموحو ماج بكم حبلكم و اضطرب

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۲۰ أقمنا أنابيبكم بالثقافو داوى الهناء مطال الجرب

و يا ربما عاد سوء العقاب‌على المذنبين بحسن الأدب

و أن يقول:

و مولى يعاطينى الكؤوس تجملاو قد ودّ لو أن العقار نجيع

خبأت له ما بين جنبىّ فتكةدهته و يوم الغادرين شنيع

و أن يقول:

غمست يدىّ فى أمر فمن لى؟و أين؟ بنزع كفى و انكفافى

كفانى أننى حرب لقومىو ذلك لى من الضراء كاف

حطمت صعادهم حتى استقاموامجاوزة بهم حدّ الثقاف

فصرت لذمهم غرضا رجيمايرامونى بمثل حصا القذاف

و أكذب بالتصون مدعيهمو ألجم قائليهم بالعفاف

و لو أنى أطعت الرشد يومالأبدلت التحامل بالتجافى

و أغضيت اللواحظ عن ذنوبو موضعها لعينى غير خاف

و لكنّ الحمية فىّ تأبىقرارى للرجال على التكافى عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۲۱ و أنظر سبة و عظيم عاررضاى من المنازع بالكفاف

و لو أنى رميت أصاب سهمىو لكنى أنقب عن شغافى

فما سهمى السديد من النوابىو لا باعى الطويل من الضعاف

ولى أنف كأنف الليث يأبىشميمى للمذلة و استيافى

و قد عرف العدا و بلوا قديماخطاى إلى المنايا و ازدلافى

لى العزم الذى قد جربوهيقدّ مضارب البيض الخفاف

أقلوا لا أبالكم و خلوامطاعنة الاسنة بالأشافى

فقد مدت غيابات المخازىعلى عرصاتكم مد الطراف

صفوت لكم فرنقتم غديرىو أى مضاغن رجع المصافى

و يوشك أن تقام على التقالىأنابيب رجعن إلى التصافى

مضى زمن التمازج و التدانىو ذا زمن التزايل و التنافى

لئن أعلى بناءكم اصطناعىفسوف يثل عرشكم انحرافى

أداوى داءهم فيزيد خبثاو ليس لداء ذى البغضاء شاف

حنوت عليهم و لرب حانعلى جان و إن بعد التلافى

فما قلبى و إن جهلوا بقاسو لا حلمى و إن قطعوا بهاف

فما تغنى القوادم من جناحتحامل إن قعدن به الخوافى

و عندى للزمان مسوّماتمن الاشعار تخترق الفيافى

بوارد للغليل كأن قلبىيعبّ بهن فى برد النطاف

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۲۲ أسر بهن أقواما و أرمىأقيواما بثالثة الاثافى

و يهمنى أن أوجه أنظاركم إلى قوله فى هذا القصيد:

و أكذب بالتصون مدعيهمو ألجم قائليهم بالعفاف

فهو يؤيد ما افترضناه من قبل، و يبين لكم ان الشريف كان يعرف ان هناك جماعة من الانذال يسوئون سمعته و يذيعون عنه الاباطيل ليغضوا من قدره بين الناس، فيخلو لهم الجوّ إذ يقضى عليه التجريح الآثم بالخروج من الميدان.

ايها السادة:

فى ديوان الشريف أشعار كثيرة عن الاقارب و الاصدقاء الذين يعرفون الرجل فى أيام النعماء، و ينكرونه فى أيام البأساء، و هى أشعار جيدة. و لكنها فى مراميها لا تعدّ من المبتكرات، لأنها مما تعاورته سهام الشعراء فى القديم و الحديث.

فلنترك هذه الناحية و نقف لحظة عند الازمة التى وقعت بين الرضى و أخيه المرتضى.

لا- تحدثنا كتب التراجم عن أسباب الجفوة التى وقعت بين ذينك الأخوين، و لكننا نعرف أنهما لم يكونا مؤتلفين كل الائتلاف، لأن مذاهبهما فى الحياة كانت مختلفة بعض الاختلاف، و يمكن الحكم بأن الرضى كان جمهوره من أهل الادب، و أن المرتضى كان جمهوره من أهل

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۲۳

العلم، و هنا تظهر أسباب المنافسة بين الاخوين، فالرضى الشاعر كان عالما جليلا، و المرتضى العالم كان شاعرا مجيدا، و لا ندرى متى يأتى الزمن الذى يسمح بأن نحدد خصائص هذين الا-خوين، و نبين ما يشتركان فيه، و ما يتفرد به كل منهما تفردا لا يتطرق اليه الخلاف.

و لكن لا مندوحة من تقرير الواقع المؤلم، و هو أن ذينك الاخوين عرفا كدر الاخوة بعد الصفاء، و إن جهلنا حقائق الاسباب، و لكن أى كدر؟ تصوروا حال الشريف الرضى الذى مدح أخاه بكثير من القصائد الجياد، و امتزج بحياته البيتية امتزاج الماء بالصهباء، تصوروا حاله و هو يسمع ان اخاه يمسه بقوارص الاغتياب.

و هل فى الدنيا وجه أقبح من وجه الاخ الذى يغتاب أخاه؟ انها بلية دميمة لا يضنّ بها الدهر الغادر على كرام الرجال، و قد شرب الرضى كؤوس العلقم من يد الزمان، و رأى من البلايا ما أنطقه بالشعر و هو فى العشر من سنيه و رماه بالشيب و هو فى سن العشرين، و لكن هل تجور الدنيا إلى هذا الحد فيرى أخاه الشقيق و هو يمضغ عرضه بلا تورع و لا استحياء؟

هل تفسد الدنيا هذا الفساد فنرى المرتضى و الرضى يتباغضان و يتحاقدان بعد أن جمعتهما الايام تحت جناحى أم رءوم تروضهما على المودة و العطف و هى ترى الدنيا فى وجهيهما حين زج زوجها فى غياهب الاعتقال؟

ما هى الاخيلة التى طافت برأس الشريف و هو يعادى أخاه؟ إن الجبال أخف وزنا من الهموم التى تساور الشاعر حين يبغض من يحب، و السم أحلى مذاقا من ورود الشاعر بحر القطيعة، قطيعة الاخ المحبوب، فماذا صنع صديقنا الشريف الرضى فى تلك الايام السود؟ ما الذى عاناه و هو يستعد لذلك النضال المشئوم؟ و ما هو الغم الذى سيطر عليه حتى

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۲۴

استباح لنفسه أن يهجم على أخيه، و هو يعلم أن ذلك الا-خ هو كل ما بقى له من الثروة الروحية فى زمن كان يزخر بالمهالك و الخطوب! و لا تنسوا أيها السادة أننا نتحدث عن شاعر كان يعيش فى بغداد فى النصف الثانى من القرن الرابع، و هو من أقسى العصور التى عانتها بغداد لانها لم تكن تختار ملوكها و لا وزراءها فى ذلك العهد و انما كانت تفرض عليها الملوك وفقا لعدوان المطامع بين الديلم و الاتراك و لم يبق لاهل بغداد من أسباب الجاه الا ما توارثوه من المناصب بفضل التقاليد، و كان من أهم ما توارثوه مناصب القضاء، و كانت هذه المناصب مما يملك الفقهاء البغداديون، السنيون و الشيعيون، فلم يكن بد من أن يتعاطفوا، و تشيع بينهم القالة الحسنة و الصيت الجميل.

فاذا نقل الواشون الى الرضى ان اخاه المرتضى يسلقه فى غيبته بلسان حديد فانما يصورون له مجدا يتقلص و ملكا يضيع.

و ماذا يبقى للرضى ان ضاعت منه مودة ذلك الشقيق؟

هو مع الملوك فى حرب، و مع الخلفاء فى حرب، و مع المنافسين فى نضال، و العراق على اتساع حواضره و بواديه يضيق عن تأسيس الثروة و المجد من جديد، لأن الثورات لم تترك فيه مجالا لأيدى الفلاحين فضلا عن الشعراء و العلماء.

اعذرونى أيها السادة اذا وقفت عند هذه المعضلة النفسية، فأنا أحب أن أعتذر عن الشريف الرضى، احب أن أقول انه لم يهجم على أخيه الا- بعد ان ضاقت فى وجهه مسالك الصفح الجميل، و كان فى مقدورى أن أحكم بأن أهل العراق قوم تغلب عليهم دقة الاحساس فهم يغضبون لأول بادرة، و لا يفكرون فى العواقب عند الصيال و لكن ماضى

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۲۵

العراق يشهد بأن أهله كانوا من أقدر الناس على تحليل العواطف و الاحاسيس و مؤلفات فلاسفته تنطق بأنهم كانوا من أشوق الناس إلى درس أصول الحب و البغض، فمن العسير أن نصدق أن الرضى هجم على أخيه إلا بعد أن طفح الكيل، و عز الوفاق.

و لكن ما بالنا نشغل أنفسنا بهذه الدقائق النفسية؟ يكفى أن نعرف أن الرضى عرف فى حياته لونا أسود هو الاضطغان على الاخ الشقيق، و أنه لم يرد ذلك المورد إلا و هو آسف محزون، و قد نظم فى ذلك قصيدة ضادية هى أعظم ما نظم فى قافية الضاد. و قد تأثر بها الضادية التى اختارها أبو تمام فى الحماسة، فجاءت ضاديته أبلغ و أروع، و الشعراء يعدى بعضهم بعضا بالعواطف و الأحاسيس، و لننظر كيف يقول:

رضيت من الاحباب دون الذى يرضىو دانيت من تقضى الديون و لا يقضى

و قد أنهرت فىّ الليالى جراحهامرارا و أنضانى من الهم ما ينضى

طوى الدهر أسباب الهوى عن جوانحىو حل الصبا عقد الرحائل عن نقضى

و لم يبق لى فى الاعين النجل طربةو لا أرب عند الشباب الذى يمضى

ضحا اليوم عن ظل الشبيبة مفرقىو أبدل مسودّ العذار بمبيض

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۲۶ أتانى و ممطول من النأى بيننا قوارص تنبو بالجفون عن الغمض

و مولى ورى قلبى بلذعة ميسممن الكلم العوراء مضا على مض

فعذرا لأعدائى إذا كان أقربىيشذب من عودى و يعرق من نحضى

إذا ما رمى عرضى القريب بسهمهعذرت بعيد القوم إما رمى عرضى

ألم يأته أنى تفردت بعدهروابى للعلياء جاش لها نهضى

و أنى جعلت الأنف من كل حاسدقبالى و خدى كل مضطغن أرضى

و كم من مقام دون مجدك قمتهعلى زلق بين النوائب أو دحض

و قارعت من أعياك قبل قراعهفدامجنى بعد التشارر و البغض

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۲۷ لقد أمست الارحام منا على شفافأخلق بمشف لا يعلل أن يقضى

رأيت مخيلات العقوق مليحةفلا تجعلن برق الاذى صادق الومض

و لا تشمتن من ودّ لو أننا معاشجيجان تلطينا الجنادل بالارض

إذا كنت أغضى و القواذع جمةفمثلك أولى أن يرمّ و أن يغضى

على غصص لو كنّ فى القدر لم ينرو فى العود لم يورق و فى السهم لم يمض

رزئتك حيا بالقطيعة و القلىو بعض الرزايا قبل يوم الفتى المقضى

أناديك فارجع من قريب فانىإذا ضاق بى ذرعى مضيت كما تمضى

لقد كان فى حكم الوشائج لو رأىعن المجد بطئى أن يبالغ فى حضى

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۲۸ فكيف و لم تحرج مناديح همتىو لا ذمت العلياء بسطى و لا قبضى

إذا هو أغضى ناظرىّ على القذىو كان لمثلى مسخطا فلمن يرضى

خليلى ما عودى لأول غامزو لا زبد وطبى للمقيم على مخضى

فقل للعدا عضوا الاخامص إنكم‌تعرقتم الأيدى علىّ من العض

هم نقضوا ما قد بنى أولوهمو شدنا و هيهات البناء من النقض

أفى كل يوم يصبغ النار منهم‌رداء امرىء و العار باق على الرحض

يريدون أن يخفوا النواقر بيننا‌و قد صاحت الاضغان فى الحدق المرض

ذكرت حفاظى و الحفيظة فى الحشالها نغضان العرق يحفز بالنبض

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۲۹ دعوتكم قبل التى لا شوى لها و قلت لكم فيئوا إلى الخلق المرضى

ردونى نميرا قبل أن أحمل القذىفلا تردوا إلا على الثمد البرض

ولسوا جميمى قبل أن يمنع الحمىإبائى أو يوبى على رعيكم حمضى

و من قبل أن يسدى المعادون بيننابرود الخنا ما شئت فى الطول و العرض

و لا تركبوا سيساء دامية القرابلا حقب تطوى البلاد و لا غرض

تقوا عار حرب لا يعود مثيرهاو إن غلب الاقران إلا على رمض

و لا تولجوا زور العقوق بيوتكم‌أناشدكم باللّه فى الحسب المحض

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۳۰ أراها بعين الظن حمراء جهمةستجرى إلى عار العواقب أو تفضى

تهضمنى من لا يكون لغيره‌من الناس إطراقى على الهون أو غضى

أفوّق نبل القول بينى و بينه‌فيؤلمنى من قبل نزعى بها عرضى

و أرجع لم أولغ لسانى فى دمى‌و لم أدم أعضائى بنهش و لا عض

إذا اضطرمت ما بين جنبىّ غضبةو كاد فمى يمضى من القول ما يمضى

شفعت على نفسى بنفسى فكفكفت‌من الغيظ و استعطفت بعضى على بعضى

و لم تطل الجفوة بين الاخوين فكتب المرتضى إلى أخيه الرضى قصيدة جيدة نتخير منها الأبيات الآتية:

تكشف ظل العتب عن غرة العهدو أعدى اقتراب الوصل منا على البعد

تجنبنى من لست عن بعض هجره‌صفوحا و لا فى قسوة عنه بالجلد

نضته يد الاعتاب عما سخطته‌كما ينتضى العضب الجراز من الغمد

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۳۱ و كنت على ما جره الهجر ممسكابحبل وفاء غير منفصم العقد

أمين نواحى السر لم تسر غدرةببالى و لم أحفل بداعية الصد

تلين على مس الاخاء مضاربى‌و ان كنت فى الاقوام مستخشن الجد

و لما استمر البين فى عدوائه‌تغول عفوى أو ترقى إلى جهدى

أصاحب حسن الظن و الشك مقبل‌بوجهى إلى حيث استمرت عرى الود

إذا اتسعت فى خطة الصد فكرتى‌تجللنى هم يضيق به جلدى

و إن ناكرتنى خلة من خلاله‌تعرض قلبى يفتديها من الحقد

يخال رجال ما رأوا لضلالةو لن تستشف الشمس بالأعين الرمد

إذا تركت يمنى يديك تعلقىفيا ليت شعرى من تمسّك من بعدى

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۳۲ إيابا فلم تشرف على غاية النوىو لم تنأكل النأى عن سنن القصد

و لو لم يلاق الزند قدحا بمثله لما انبعثت شهب الشرار من الزند

هلّم نعد صفو الوداد كما بدااإعادة من لم يلف عن ذاك من بدّ

و نغتنم الايام فهى طوائش‌تواتى بلا قصد و تأبى بلا عمد

و مثلك أهدى أن يقاد إلى الهدىو أرشد أن ينحاز من جهة الرشد

و قد انعطف الرضى حين وصلت اليه هذه القصيدة و جنح إلى السلم، فأرسل إلى أخيه قصيدة طويلة نكتفى منها بالقطعة الآتية:

و أعظم ما لاقيت شجوا ولوعةعتاب أخ فلّ الزمان به حدى

أقيك الردى ما كان ما كان عن قلىو لكن هنات كدن يلعبن بالجد

و لا تحسبن العتب جازت كلومه إلى القلب إلا بعد ما حز فى الجلد

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۳۳ منحتك ما عندى من الصد معلناو عقد ضميرى أن أدوم على الود

و قد كنت أبغى رتبة بعد رتبةفآنف لى من أن أفوز بها وحدى

حفاظا على القربى الرءوم و غيرةعلى الحسب الدانى و بقيا على المجد

حسدت عليك الاجنبين محبةو نافست فيك الابعدين على الود

و قد كان لذع فاتقيت شباتهبقلب على الضراء كالحجر الصلد

تجلدت حتى لم تجد فىّ مغمزاوعدت كما عاد الجراز إلى الغمد

و ها أنا عريان الجنان من التى‌تسوء و منفوض الضلوع من الوجد

أقلّب عينا فى الاخاء صحيحةإذا ارتمت الأعداء بالأعين الرمد

و إنى مذ عاد التودد بيننا‌تجلى الدجى عن ناظرى و ورى زندى

و عاد زمانى بعدما غاض حسنهأنيقا كبرد العصب أو زمن الورد

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۳۴ و كنت سليب الكف من كل ثروةفأصبحت من نيل الامانى على وعد

و فارقت ضيق الصدر عنك إلى الرضاكما نشط المأسور من حلق القد

و قد ضمنى محض الصفاء و صدقهاليك كما ضمت ذراع إلى عضد

أيها السادة:

لقد كان الرضى شاعرا يرضى و يغضب، و يخشن و يلين، كان يأسره الشوق إلى الصديق فيقول:

لقاؤك جرّ علىّ الفراقاو ما زادنى القرب إلا اشتياقا

جلوت علىّ هدىّ الودادفأسلفتها بالقبول الصداقا

و أسرفت بالبشر حتى ظننت أنك أضجعت فيه النفاقا

و حاشاك من تهمة فى المغيب‌فكيف حضور يضم الرفاقا

و كان الزعيم بهذا الإخاء يوما حسوناه كأسا دهاقا

نحرنا الدنان على صدرهفلله أى دماء أراقا

شرقنا بلذاته و السروريلوى ازارا و يرخى نطاقا

سقى اللّه دهرا حبانا الوداد مبتدها فشكرنا العراقا

و ما زلت أعجب من حفظهلنا القرب حتى نسينا الفراقا

أتقتص من جسدى بالبعادو ما زود الباع منك العناقا

و كان يغضب على المغتابين فيقول:

و غر آكل بالغيب لحمىو إن لأكله داء عياء

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۳۵ يسيء القول إما غبت عنهو يحسن لى التجمل و اللقاء

عبأت له و سوف يعبّ فيهامن الضراء آنية ملاء

و كان يوازن بين عداوة الاقارب و عداوة الأباعد فيقول:

للذل بين الأقربين مضاضةو الذل ما بين الاباعد أروح

و إذا رمتك من الرجال قوارصفسهام ذى القربى القريبة أجرح

و كان يتشبث بأبناء عمه فيقول:

إذا لم يكن لى ناصر من عشيرتىفلى من يد المولى و إن ذلّ ناصر

و إنى و إن قلوا لمستمسك بهمو قد تمسك الساق المهيض الجبائر

أو يقول:

لويت إلى ود العشيرة جانبىعلى عظم داء بيننا متفاقم

و نمت عن الاضغان حتى تلاحمتجوائف هاتيك الندوب القدائم

و قامت أظفارى و كنت أعدهالتمزيق قربى بيننا و المحارم

و روّحت حلمى بعد ما عزبت بهذنوب بنى عمى عزوب السوائم

و أوطأت أقوال الوشاة أخاصمىو قد كان سمعى مدرجا للنمائم

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۳۶

أو يمنّ عليهم بالحلم فيقول:

بنى عمى و عزّ على يمينىمن الضراء ما لقيت شمالى

أعود على عقوقكم بحلمىإذا خطر العقوق لكم ببالى

أرونى من يقوم لكم مقامىأرونى من يقول لكم مقالى

و من يحمى الحريم من الأعادىو من يشفى من الداء العضال

يشابح دونكم يوم المنايايو يرمى عنكم يوم النضال

و ربّ قوارص نكتت جنانى أشدّ علىّ من صرد النبال

صبرت لها و لم أردد مقالافكان جزاء قائلها فعالى

أو يهددهم فيقول:

هبوا أصولكم أصلى على مضضما تصنعون بأخلاق تنافينى

كم الهوان كأنى بينكم جملفى كل يوم قطيع الذل يحدونى

لا تأمنن عدوا لان جانبهخشونة الصل عقبى ذلك اللين

و احذر شرارة من أطفأت جمرتهفالثار غض و إن بقّى إلى حين

إنى تهيب بى البقيا و أتبعهافكم أباقى بها من لا يباقينى

توقعوها فقد شبت بوارقهابعارض كضريم الليل مدخون

إذا غدا الافق الغربىّ مختمرامن الغبار فظنوا بى و ظنونى

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۳۷

أو يصارحهم بالقطيعة فيقول:

قد يقدع المرء و إن كان ابن عمو يقطع العضو الكريم للألم

أو يعلن اليأس من الناس جميعا فيقول:

أكرّ طرفى فلا أرى أحداإلا مغيظا علىّ مضطغنا

ينبض لى من لسانه أبدانصال ذم تمزق الجننا

أيها السادة:

تلكم صور نفسية تمر بخواطر الشعراء، و لها فى الشعر القديم و الحديث أمثال، و لكن الشريف تفرد بقصيدة يتيمة لم يقل مثلها أحد من القدماء و المحدثين، فكان أوحد الناس فى الدعوة إلى استبقاء الصديق، إذ يقول:

و كم صاحب كالرمح زاغت كعوبهأبى بعد طول الغمز أن يتقوما

تقبلت منه ظاهرا متبلجاو أدمج دونى باطنا أن متجهما

فأبدى كروض الحزن رقت فروعهو أضمر كالليل الخدارىّ مظلما

و لو أننى كشفته عن ضميرهأقمت على ما بيننا اليوم مأتما

فلا باسطا بالسوء إن نالنى يداو لا فاغرا بالذم إن رابنى فما

كعضو رمت فيه الليالى بقادح و من حمل العضو الاليم تألما

إذا أمر الطب اللبيب بقطعهأقول عسى ضنا به و لعلما

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۳۸ صبرت على إيلامه خوف نقصهو من لام من لا يرعوى كان ألوما

هى الكف مض تركها بعد دائهاو إن قطعت شانت ذراعا و معصما

أراك على قلبى و إن كنت عاصياأعزّ من القلب المطيع و أكرما

حملتك حمل العين لج بها القذىفلا تنجلى يوما و لا تبلغ العمى

دع المرء مطويا على ما ذممتهو لا تنشر الداء العضال فتندما

إذا العضو لم يؤلمك الا قطعتهعلى مضض لم تبق لحما و لا دما

و من لم يوطن للصغير من الأذىتعرض أن يلقى أجل و أعظما

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۳۹

اسرار العلائق بين الرضى و الصابى

أيها السادة:

رأيتم فى المحاضرة الماضية ألوانا من تأثير الصداقة و العداوة فى حياة الشريف الرضى، و شهدتم أننا وقفنا وقفة قصيرة عند صلته بصديقه أبى الحسن البتّى و خصومته مع أخيه الشريف المرتضى، و تذكرون أنه أشار إلى صديق اسمه ابن حمد، إذ قال فى الحديث عمن اجتمعوا عنده فى مجلس أنس.

أخى و ابن عمى و ابن حمد فانه‌تباريح قلبى خاليا و غرامى

فلنقل اليوم إن ابن احمد هذا كانت له مكانة فى أواخر القرن الرابع، و قد رافق الرضى فى طريق الحج سنة ۳۹۴ و فيه يقول:

و كنت إذا ضاقت مناديح خطةدعوت ابن حمد دعوة فأجابها

أخ لى إن اعيت علىّ مطالبى‌رمى لى أغراض المنى فأصابها

إذا استبهمت علياء لا يهتدى لهاقرعت به دون الأخلاء بابها

به خف عنى ثقل فادحة النوى‌و حبب عندى نأيها و اغترابها

ثمانون من ليل التمام نجوبهارفيقين تكسونا الدياجى ثيابها

و هناك صديق آخر يسمى ابن ليلى كان له فى نفس الرضى أثر بليغ، و سنعرض له فى غير هذا الحديث.

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۴۰

و المهم فى هذه الليلة أن نشرح أسرار العلائق بين الرضى و الصابى فنقول:

كانت صلة الصابى باسرة الشريف الرضى قديمة العهد، و كان الرضى و هو طفل يسمع أن فى دنيا الادب و السياسة رجلا كريم الشمائل اسمه أبو اسحاق الصابى، و كان يسمع أنه من أصدقاء أبيه الاصفياء.

و ما نعرف بالضبط متى ابتدأت صداقة الصابى لابى أحمد الموسوى والد الشريف، و لكنا نستطيع أن نؤكد أن شواهدها القوية ظهرت سنة ۳۵۴ قبل أن يولد الشريف باكثر من أربع سنين.

و تلك الشواهد القوية هى العواطف التى ظهرت فى كتابة التقليد و هو المنشور الذى كتبه الصابى عن الخليفة المطيع للّه بتقليد أبى أحمد الموسوى نقابة الطالبيين.

و اليكم فقرات من ذلك المنشور لتعرفوا جوهر تلكم العواطف:

«أما بعد فان أمير المؤمنين لما يعرفه من تيقظك و حزمك و تحفظك يرى أن ينوط بك من سنى الاعمال ما يستمتع فيه بكفايتك و يستثمر معه المخيلة فى دينك و أمانتك، و يفرع بك من أعلاـ المراتب ما يضاهى رأيه فى فى أمثالك من أعيان دولته، و ذوى التحقق بدعوته و الاعتصام بحبله، جريا من أمير المؤمنين على شاكلته فى الارتياد لمواقع معروفه، و تخير من يؤهله لتكريمه و تشريفه، حتى يلبس إنعامه من يستحق التفضل عليه، و يحمد منته من بين أثر التوفيق فى الإحسان اليه ... و لذلك رأى أمير المؤمنين أن يقلدك النقابة على الطالبيين أجمعين من كان فى مدينة السلام و فى غيرها من النواحى و الأمصار ثقة بانك تقع من النهوض بالاعباء بحيث تحقق ظن أمير المؤمنين فيك، و تظهر من الكفاية و الغناء ما يكون

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۴۱

لمزيدك من النعمة مقتضيا، و لمضاعفة الاحسان اليك ممتريا. و اعلم ان أن أمير المؤمنين قد فضلك على أهل بيتك طرا، و رفعك فوقهم جمعا، فجعلك واحدهم بعد أن كنت واحدا منهم، و اختصك دونهم بعد مساواتك لهم، فسر فى تطبيقهم سيرته، و اسلك فى ترتيبهم طريقته، و أوصهم بحسن التأمل لآثار الجماعة، و كفهم عما تنكر بالهيبة و الطاعة، و إنما جعلك أمير المؤمنين أمينه فيهم، و عينه عليهم، لما ضنّ بهم عن الزلل و صانهم عن الغىّ و الخطل، و استهد اللّه أولا و آخرا يهدك، و استكفه باطنا و ظاهرا يكفك، و استمد منه العون يمددك، و اشكر نعمه يزدك».

هذه فقرات تخيرناها من التقليد الذى كتبه الصابى إلى أبى احمد الموسوى عن الخليفة المطيع، و من هذه الفقرات ترون روح الحب الذى كان يكنه الصابى للموسوى والد الشريف.

قد تقولون: هذا كلام أذيع باسم الخليفة فهو يصوّر عواطف الخليفة لا عواطف الصابى.

و نجيب بانه كان مفهوما أن الكتاب يسالون عما يكتبون، لأن الخلفاء و الملوك و الرؤساء لم يكونوا يملون الرسائل، و إنما كانوا

يوصون بشرح الغرض، فكانت للكتاب فرص يعلنون بها ما يضمرون.

و التاريخ يحدثنا أن الخليفة المنصور حقد على ابن المقفع للأمان الذى كتبه لعبد اللّه بن على، فقد جاء فيه:

«و متى غدر أمير المؤمنين بعمه عبد اللّه فنساؤه طوالق، و دوابه حبس، و عبيده أحرار، و المسلمون فى حل من بيعته».

و كان يستطيع المنصور أن يفترض ان ابن المقفع لم يكتب غير ما أملى عليه، و لكنه كان يعرف أن الكتاب يتصرفون فيما يعهد اليهم

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۴۲

من ضروب الانشاء، و كان جزاء ابن المقفع أن يقتل و يحرق و يذرى رماده فى الهواء.

و الصابى نفسه أخذت عليه عبارة كتبها عن الخليفة الطائع فى شأن بختيار و هى:

«و قد جدد له أمير المؤمنين مع هذه المساعى السوابق، و المعالى السوامق، التى تلزم كل دان وقاص، و عام و خاص، أن يعرف له حق ما كرّم به منها، و يتزحزح عن رتبة المماثلة فيها».

فقد غضب عضد الدولة من هذه الكلمة و عدّها تعريضا به، فلما أمكنته الفرصة نكل بالصابى أشنع تنكيل.

و نحن فى هذه الأيام نسمع الرد على خطاب العرش، فهل تظنون أن النواب يجادلون جلالة الملك؟ لا، و إنما هم يجادلون رئيس الوزراء، لأن المفهوم فى عرف الحياة الدستورية أن خطاب العرش من وضع رئيس الوزراء، أو هو خطاب اشترك فى تدوين أصوله جميع الوزراء.

كذلك كان يسأل الكتاب الذين ينشئون الرسائل بأسماء الخلفاء و الملوك.

و إنما سقنا هذه الشواهد لنؤكد أن الثناء على أبى أحمد الموسوى فى الخطاب الذى كتبه الصابى باسم الخليفة المطيع يدل على المودة المتينة التى كانت بين ذينك الرجلين، و هى مودة سمع بأخبارها الشريف و هو طفل، ثم جاءت الحوادث فزادتها توكيدا إلى توكيد.

و لكن ما هى تلك الحوادث؟

حدثناكم من قبل عن الخصومة بين بختيار و عضد الدولة و قلنا إنها انتهت باندحار بختيار و سيطرة عضد الدولة على العراق.

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۴۳

فلنذكر ان عضد الدولة حين انتصر أخذ يصفى حسابه مع خصومه القدماء، فنظر فرأى الصابى، و كان شيخا له بين الكتاب مكان مرموق، ففكر فى أمره غير قليل، ثم هداه الرأى إلى استخدام الصابى فى تأليف كتاب يسجل به مفاخر الدولة الديلمية و يشرح ما قامت به من الحروب و الفتوحات، و رآها الصابى فرصة يستلين بها عضد الدولة و ينجى بها رأسه من السيف، و أخذ فى التأليف، و لكن بعض الأصدقاء دخل عليه و هو مشغول بالتسويد و التبييض فسأله عما يعمل فأجاب و قد خانه الحظ أباطيل أنمقها، و أكاذيب ألفقها! و مضى ذلك الصديق الخؤون فنقل العبارة إلى عضد الدولة، فثارت أحقاد ذلك الطاغية و أمر بأن يلقى الصابى تحت أرجل الفيلة ليقتل أشنع قتل، و لكن لطف اللّه بالصابى شيخ الكتاب، فقد كان فى حضرة عضد الدولة جماعة يرون له الاستاذية عليهم، منهم نصر بن هرون و المطهر بن عبد اللّه و عبد العزيز بن يوسف، فأكبوا على الارض يقبلونها بين يدى عضد الدولة و يستشفعون اليه فى أمره و يتلطفون فى استيهاب دمه، إلى أن أمر باستحيائه مع القبض عليه و استئصال ما يملك من عقار و أموال .

و هنا تذكرون أن عضد الدولة الذى نكب الصابى هو نفسه عضد الدولة الذى اودع ابا احمد الموسوى غياهب الاعتقال.

فان ذكرتم ذلك فهمتم و لا ريب أن الاشتراك فى مصدر النكبة

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۴۴

سيدخل ألوانا جديدة فى نفس الطفل الذى اسمه الشريف الرضى، و فهمتم أن ذلك الطفل سيجعل نكبة الصابى بابا من التلوم على عضد الدولة الذى يضطهد أقطاب الرجال.

اعتقل الصابى سنة ۳۶۷ و لكن عضد الدولة سيموت، و سيتولى ابنه صمصام الدولة و يفرج عن الصابى فى سنة ۳۷۱ فليكن هذا التاريخ هو بداية الصلة الوثيقة بين ابى اسحاق الصابى و الشريف الرضى، و لنعط الشعر فرصة يصور فيها ذلك الوداد.

أيها السادة:

كان الصابى كما تعلمون من اعلام الكتاب، و قد بسطت القول عنه من هذه الناحية فى الجزء الثانى من كتاب النثر الفنى، و كان مع ذلك من أفراد الشعراء، و هو الذى يقول:

إلى اللّه اشكو ما لقيت من الهوىبجارية أمسى بها القلب يلهج

إذا امتزجت أنفاسنا بالتزامناتوهمت ان الروح بالروح تمزج

كأنى و قد قبلتها بعد هجعةو وجدى ما بين الجوانح يلعج

أضفت إلى النفس التى بين اضلعىبأنفاسها نفسا إلى الصدر تولج

فان قيل لى اختر أيما شئت منهمافانى إلى النفس الجديدة أحوج

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۴۵

فيمكن القول بان المودة بينه و بين الشريف نشأت من التوافق فى المذاهب الادبية، و ذلك من أمتن الاسباب فى الجمع بين قلوب الرجال، و لكن يظهر ان التوافق الادبى لم يكن كل شىء، فقد كان الرجلان من جيلين مختلفين، و الالفة الذوقية توجب تقارب السن فى أغلب الاحوال، و كان هذان الرجلان متباعدين فى السن حين جمع بينهما الصفاء، فقد كان الشريف فى مطلع العقد الثانى من عمره، و كان الصابى فى أواخر العقد الثامن، و شعر الصابى نفسه يشهد بانه كان يعظم الشريف قبل أوان التعظيم، اى انه كان يراه طفلا لولا الفراسة التى توحى بان سيكون هذا الطفل من عظماء الرجال، إذ يقول:

ابا حسن لى فى الرجال فراسةتعودت منها أن تقول فتصدقا

و قد خبرتنى عنك انك ماجدسترقى من العلياء ابعد مرتقى

فوفيتك التعظيم قبل اوانهو قلت اطال اللّه للسيد البقا

و أضمرت منه لفظة لم ابح بهاإلى ان ارى اطلاقها لى مطلقا

فان عشت او ان متّ فاذكر بشارتىو اوجب بها حقا عليك محققا

و كن لى فى الاولاد و الأهل حافظااذا ما اطمأنّ الجنب فى موضع النقا

و هذه الأبيات تعطينا مفتاح السر لتلك العلائق، فما هى البشارة التى يسجلها الصابى ليستقضى «حلاوتها» فى مستقبل الزمان؟

لننتظر قليلا حتى نسمع جواب الشريف:

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۴۶ سننت لهذا الرمح غربا مذلقا و أجريت فى ذا الهندوانى رونقا

و سوّمت ذا الطرف الجواد و انماشرعت له نهجا فخبّ و أعنقا

لئن برقت منى مخايل عارضلعينيك تقضى ان يجود و يغدقا

فليس بساق قبل ربعك مربعاو ليس براق قبل جودك مرتقى

و ان صدّقت منه الليالى مخيلةتكن بجديد الماء أول من سقى

و يغدو لمن يروى جنابك مرويازلالا و للاعداء دونك مصقعا

و ان تر ليثا لائذا لفريسةيراصد غرات المقادير مطرقا

فما ذاك الا ان يوفر طعمهاعليك اذا جلى عليك و حققا

و ان يرق يوما فى المعالى فانهسما ليوقى وطء رجلك مزلقا

و ان يسع فى الامر العظيم فانماسعى لك فى ذاك الطريق مطرّقا

و ان يصب السهم الذى راش نصلهفما كان الا فى هواك مفوّقا

و ان ينهض الغرس الذى هو غارسيكن لك مجنى فى الخطوب و معلقا

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۴۷ لتجنيه دون الناس ما كان مثمراو تلبس ظلا منه ما كان مورقا

فنم وادعا و استسقنى فستنتضىحساما إذا ما مر بالعظم طبقا

إلى أن يقول:

فإن راشنى دهرى أكن لك بازيايسرك محصورا و يرضيك مطلقا

أشاطرك العز الذى أستفيدهبصفقة راض أن غنيت و أملقا

فتذهب بالشطر الذى كله غنىو أذهب بالشطر الذى كله شقا

و تأخذ منه ما أنام و ما حلاو آخذ منه ما أمر و أرقا

فغيرى إما طار غادر صحبهدوين المعالى واقعين و حلقا

فان تسلف التبجيل قبل أوانهأعضك به وجها من الود مونقا

و إن تعطنى الاعظام قولا فأننىسأعطيك فعلا منه أذكى و أعبقا

و من هنا نفهم أيها السادة سر العلائق بين ذينك الرجلين، نفهم أن الصابى كان يزين للشريف أن يطلب الخلافة الاسلامية، و هذا التزيين هو وحده كاف لأن يجعل الصابى أعز الناس على الشريف، فقد كان الشريف فى بداية شبابه، و الشبان يحبون من يثق بكفايتهم الذاتية و يرشحهم لجلائل الأعمال.

و هذه أيها السادة ظاهرة نفسية يدركها من يدرس نفوس الشبان

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۴۸

فهم يحبون أن يصلوا إلى قمم المجد فى يوم و ليلة، و يبحثون عمن يزكيهم و يؤيدهم و يدعى لهم التفوق، و قد تلفت الشريف و هو طفل فرأى شيخا جليلا يتنبأ له بمستقبل جليل، فأحبه كل الحب، و مال اليه كل الميل.

و القصيدة التى سقناها من شعر الشريف تشهد بأنه انخدع كل الانخداع فأخذ يتصور الايام التى يقسم فيها الحظوظ و الأرزاق و يؤكد للصابى أنه سيجعله فى مأمن من خطوب الزمان.

و قد ثارت الحمية فى ذلك الغصن الأملود، و استكثر أن تعوقه غضاضة السن عما يريد، فاندفع يقول:

فان قعدت بى السن يوما فانهسينهض بى مجدى اليها محققا

فو اللّه لا كذّبت ظنك انهلعار إذا ما عاد ظنك مخفقا

فان الذى ظن الظنون صوادقانظير الذى قوى الظنون و حققا

على أن الشريف لم يكن بالغافل إذ صدق فراسة الصابى، فهما أديبان، و الادباء قد يطمئن بعضهم إلى بعض، و كان الشريف يعرف أن الصابى له علاقات متينة بكثير من الرؤساء و الوزراء، و لا سيما الصاحب ابن عباد و كان مفهوما فى تلك العهود أن الخلافة العباسية على شفا الهاوية، و أن الامر لملوك بنى بويه، و الاتفاق مع أولئك الملوك ليس بالأمر المستحيل.

و كذلك تطور الحب بين الشريف و بين الصابى، فبعد أن كان الشريف يميل إلى الصابى لانه من أصدقاء أبيه القدماء، و لأنه من خصوم عضد الدولة، و لأنه يعجب بشعره و هو طفل، أصبح يحبه صار من دعاته الاوفياء، و لأنه سيصير فى المستقبل من صنائعه يوم يصبح

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۴۹

أمير المؤمنين.

تلكم أيها السادة أسرار العلائق بين ذينك الرجلين، و لكنها إلى الآن علائق نفعية، فلننظر كيف تطورت مرة خامسة فأصبحت مودة وثيقة تساور لفائف القلوب.

أيها السادة:

لا- تسألوا عن الصابى الذى كان يشجع الشريف على مطامعه السياسية، فتلك شؤون كان الرجلان يروضانها فى الخفاء، و قد مرت أعوام و أعوام و بغداد بين مد و جزر، و أرض العراق معسكرات يتداولها المحاربون بين يوم و يوم، فكان لا بد من التربص لتحقيق ذلك الامل الخطير، و هو لن يحقق برسالة يكتبها الصابى أو قصيدة ينظمها الشريف، و إنما يحقق يوم تتم السيطرة لرجل واحد من البويهيين يسهل معه الاتفاق، و لكن متى يأتى ذلك اليوم؟

إن انتظاره سيطول! و فى انتظار اليوم الموعود يمضى الصديقان فيتساقيان كأس الوداد، و الظاهر أن نفس الشريف كان طال عهدها بالنفرة من الناس، فما كاد يعرف الصابى حتى أقبل على محبته بقلب ملهوف.

و يظهر أيضا أن نفس الصابى كانت ملت الاتصال برجال السياسة الذين أزعجوا شبابه و كهولته بالتلون و التقلب، فما كاد يتصل بالشريف حتى رأى فيه نفسا روحانية قد تستطيع تجديد نوره و هو يجنح راغما إلى الغروب.

و هنا نذكر أن شيخوخة الصابى اعتمدت على دعامتين من أكرم دعائم العطف، الدعامة الاولى هى مودة الصاحب ابن عباد، الرجل

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۵۰

النبيل الذى ظلمناه بعض الظلم فى كتاب النثر الفنى، فقد كان ابن عباد يتلطف فى بر الصابى فيرسل اليه الهدايا المستورة مع الحجاج، و الدعامة الثانية مودة الشريف الرضى، الفتى الفقير الذى يملك من صفاء الروح ما يؤنس الصابى فيرده إلى مرح الشباب.

و لكن حظ الصديقين كان يختلف أشد الاختلاف، فكل شمس تطلع تمد الشريف بقبس من الفتوة، و كل شمس تغرب تذكر الصابى بما ينتظر من الافول.

و سياق الحوادث يشهد بأن ذلك الشيخ الذاوى هو الذى كان يجب عليه أن يتكلف المشقة ليزور ذلك الفتى الفينان، و قد تكلف ذلك الشيخ ما تكلف إلى أن أعجزه المرض عن عبور دجلة فكتب إلى صديقه الفتى يقول:

أقعدتنا زمانة و زمان جائر عن قضاء حق الشريف

و لئن ثقلا عن الخدمة الخطو لعن خاطر اليها خفيف

فاقتصرنا فيما نؤدى من الفرض على الكتب و الرسول الحصيف

و الفتى ذو الشباب يبسط فى التقصير عذر الشيخ العليل الضعيف

و قد أجاب الشريف على هذه الابيات بقصيدة طويلة ابتدأها بجيد النسيب إذ يقول:

كم ذميل اليكم و وجيف و صدود عنا لكم و صدوف

و غرام بكم لو ان غراماجرّ نفعا للواجد المشغوف

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۵۱

فلما وصل إلى خطاب الصابى تلطف فأشار إلى أنه نصيره على الزمان، و شبه وجهه بالدينار و كلامه بالنصول. ثم قال:

إن شكواك للزمان مبينلى عن قدر عقله المضعوف

قدمت غيرك الجدود و أخرتو لكن أناف غير منيف

قصف الدهر فيك رمحا من الكيدو حامى عن المعيب المؤوف

ان حرمت الرزق الذى نال منهفدواء العيىّ داء الحصيف

عمل فاضح و أجمل من بعض الولايات عطلة المصروف

فاصطبر للخطوب رب اصطبارشق فجرا من ليلهن المخوف

كم تحملتها بظهر من الصبر فخفت و العبء غير خفيف

لم تغب عن سواد عينى و إن غبت معنى نوائب و صروف

قرّ عينا بطارقات الشكاياما تجافت مطرقات الحتوف

و من هذه الابيات نفهم ان الصابى كان يشكو علتين: علة الشيخوخة و علة الفقر الديقوع.

ثم اشتدت العلة بالصابى فكان لا ينتقل من مكان إلى مكان إلا و هو محمول، فكتب إلى رفيقه الفتى:

إذا ما تعدت بى و سارت محفة لها ارجل يسعى بها رجلان

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۵۲ و ما كنت من فرسانها غير انهاوقت لى لما خانت القدمان

نزلت اليها عن سراة حصانبحكم مشيبى او فراش حصان

فقد حملت منى ابن تسعين سالكاسبيلا عليها يسلك الثقلان

كما حمل المهد الصبىّ و قبلهاذعرت ليوث الغيل بالنزوان

ولى بعدها اخرى تسمى جنازةجنيبة يوم للمنية دانى

تسير على اقدام اربعة الىديار البلى معدودهن ثمان

و إنى على عيث الردى فى جوانبىو ما كف من خطوى و بطش بنانى

لأعلم انى ميت عاق دفنهذماء قليل فى غد هو فان

و ان فما للأرض غرثان حائما يراصد من اكلى حضور أوان

به شره عمّ الورى بفجائع تركن فلانا ثاكلا لفلان

و هى قصيدة مزعجة يضيق المقام عن سرد ما تشير اليه من الفجائع الانسانية، و المهم ان نشير الى ان الصابى كشف فى هذه القصيدة عن نفسه فرأيناه يرى الشريف الرضى هو الذخيرة التى يتركها لأبنائه يوم يموت، و هذا اجمل ما يمدح به صديقنا الشريف طيب اللّه ثراه.

و قد انزعج الرضى لهذه القصيدة الباكية، و أجابه بقصيدة طويلة نختار منها هذه الابيات الحسان:

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۵۳ و ما زل منك الرأى و الحزم و الحجافناسى إذا ما زلت القدمان

و لو أن لى يوما على الدهر إمرةو كانت لى العدوى على الحدثان

خلعت على عطفيك برد شبيبتىجوادا بعمرى و اقتبال زمانى

و حملت ثقل الشيب عنك مفارقىو إن فل من غربى و غض عنانى

و نابت طويلا عنك فى كل عارضبخط و خطو اخمصى و بنانى

على انه ما انفل من كان دونهحميم يرامى عن يد و لسان

و انك ما استرعيت منى سوى فتىضموم على رعى الأمانة حان

حفيظ إذا ما ضيع المرء قومهوفىّ إذا ما خوّن العضدان

من اللّه أستهدى بقاءك أن تریمحلا لأسباب العلا بمكان

و أسأله ان لا تزال مخلدابملقى سماع بيننا و عيان

اذا ما رعاك اللّه يوما فقد قضىمآرب قلبى كلها و رعانى

ثم لزم الصابى منزله و هو راغم بحكم الضعف و الوهن، فكان آخر ما قال من الشعر قصيدة أرسلها إلى الشريف قبل ان يموت باثنى عشر يوما، و هى قصيدة طويلة نكتفى منها بالأبيات الآتية:

أقيك الردى ليس القلى عنك مقعدىو لكن دهانى بالزمانة ذا الزمن

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۵۴ و غادرنى خلف المضاجع راهناعلى خلة فى الحال و النفس و البدن

فان تنأ منك الدار فالذكر ما نأىو إن بان منى الشخص فالفكر لم يبن

و إن طال عهد الالتقاء فدونهعهود عليها من رعايتنا جنن

و قد أجاب الشريف بقصيدة أطول و أمتع، نكتفى منها بالقطعة الآتية:

من مبلغ لى أبا اسحاق مألكةعن حنو قلب سليم السر و العلن

جرى الوداد له منى و إن بعدتمنا العلائق مجرى الماء فى الغصن

لقد توامق قلبانا كأنهماتراضعا بدم الأحشاء لا اللبن

مسود قصب الأقلام نال بهانيل المحمر أطراف القنا اللدن

إن لم تكن تورد الأرماح موردهافما عدلت إلى الأقلام عن جبن

و الطاعن الطعنة النجلاء عن جلدكالقائل القولة الغراء عن لسن

حار المجارون إذ جاروك فى طلقو أجفلوا عن طريق السابق الارن

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۵۵ ضلوا وراءك حتى قال قائلهمماذا الضلال و ذا يجرى على السنن

ما قدر فضلك ما أصبحت ترزقهليس الحظوظ على الأقدار و المهم

قد كنت قبلك من دهرى على حنقفزاد ما بك من غيظى على الزمن

كم راشنا و برانا غير مكترثبما نعالج برى القدح بالسفن

إن يدن قوم إلى دارى فألقهمو تنأ عنى فأنت الروح فى البدن

فالمرء يسرح فى الآفاق مضطرباو نفسه أبدا تهفو إلى وطن

و البعد عنك بلانى باستكانهم إن الغريب لمضطر إلى السكن

أنت الكرى مؤنسا طرفى و بعضهممثل القذى مانع عينى من الوسن

كم من قريب يرى أنى كلفت بهيمسى شجاى و تضحى دونه شجنى

أشتاقكم و دواعى الشوق تنهضنىاليكم و عوادى الدهر تقعدنى

و أعرض الود أحيانا فيؤنسنىو أذكر البعد أطوارا فيوحشنى

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۵۶ هذا و دجلة ما بينى و بينكمو جانب العبر غير الجانب الخشن

و كانت هذه القصيدة آخر ما مر بسمع الصابى من الطيبات، فقد مات بعد قراءتها بأيام.

و قد رأيتم أن هذين الصديقين كانا يتقارضان الشكاية، فإن تجمل الصابى شكا عنه الشريف، و إن شكا الصابى و اساه الشريف، و ما ندرى كيف استطاع الشريف أن يسكت على قول الصابى فى وصف الزمان.

و غادرنى خلف المضاجع راهناعلى خلة فى الحال و النفس و البدن

و لكنى أرجوكم أن تتذكروا أن الرضى كان فقيرا و أن أملاك أبيه ظلت محجوبة عنه إلى ذلك الحين.

لم يبق أيها السادة إلا أن نحدثكم عما صنع الشريف بعد موت الصابى، و كل أديب يعرف ان الشريف رثى الصابى بقصيدة جيدة بلغت اثنين و ثمانين بيتا، و كل الذين ترجموا للصابى أو الرضى تحدثوا عن تلك المرثية الهائلة، و كان وجه الغرابة أن يبكى شاعر

من عترة الرسول رجلا- من الصابئين، و قد فصلت ذلك فى كتاب النثر الفنى فلا أعود اليه الآن، و لكن الذى يجهله أكثر الادباء أن الشريف لم يرث الصابى مرة واحدة فقد ظل يتفجع عليه إلى آخر حياته، و رثاه بعد أن طال العهد بموته بقصيدتين هما آيتان من آيات الوفاء.

و أعيذكم أن تجهلوا هذا الجانب من نفس الشريف، فالشعراء فى الأغلب يرثون أصدقاءهم يوم الموت، ثم يتناسونهم فينسونهم بعد حين،

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۵۷

و الوفاء فى الدنيا قليل.

و تذكروا أن الصابى لم تكن له عصبية حتى نتهم الشريف بأنه يبحث عن أنصار و أشياع، هيهات، فقد كان الصابئون أقلية لا يحسب لها حساب و كان محرما عليهم أن يتساموا إلى مراتب الوزراء.

و نحن فى الواقع نثق ثقة مطلقة بأمانة الشريف، و لكن البحث النفسى يوجب أن نعرض هذا الجانب، و المؤرخون لذلك العهد نظروا إلى مرثية الشريف نظرة استغراب، و هذا يؤكد أن الشريف لم يرع فى مرثيته غير معانى الوداد.

و يزيد فى قيمة تلك المرثية أن الصابى لم يمت إلا و هو فى فقر مدقع، و لم ير الموت إلا بعد أن تقطعت عنه أسباب المجد، و أقبلت الدنيا على خصومه الألداء.

فالشريف فى رثاء الصابى رجل مفرد بين الرجال، و موقفه أقوى من موقف البحترى فى رثاء المتوكل، لأن البحترى شهد فاجعة أليمة تنطق الجماد، أما الصابى فيرثى صديقا عديم الحول، و قد بلغ أرذل العمر و لم يمت إلا فى الحادية و التسعين و هو على دين «منبوذ» تنكره الدولة و ينكره الناس.

قد تقولون: ان الشريف لم يكن يملك غير ذلك و قد عرف الناس ما بينه و بين الصابى.

و نعترف بأن هذا النوع من الوفاء هو لون من الاثرة الذاتية، و لكن هذه الأثرة فى ذاتها جوهر نبيل، و شرف البواعث مما تنصب له الموازين.

و كيف يتهم فى صدقه من يقول:

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۵۸ أرأيت من حملوا على الأعوادأرأيت كيف خبا ضياء النادى

جبل هوى لو خرّ فى البحر اغتدىمن وقعه متتابع الازباد

ما كنت أعلم قبل حطك فى الثرىأن الثرى يعلو على الاطواد

بعدا ليومك فى الزمان فانهأقذى العيون وفتّ فى الاعضاد

لا ينفد الدمع الذى يبكى بهان القلوب له من الأمداد

كيف انمحى ذاك الجناب و عطلتتلك الفجاج و ضلّ ذاك الهادى

طاحت بتلك المكرمات طوائحو عدت على ذاك الجواد عوادى

قالوا أطاع و قيد فى شطن الردى أيدى المنون ملكت أى قياد

من مصعب لو لم يقده إلهه بقضائه ما كان بالمنقاد

أعزز علىّ بأن يفارق ناظرىلمعان ذاك الكوكب الوقاد

أعزز علىّ بأن أراك بمنزلمتشابه الأمجاد و الأوغاد

عمرى لقد أغمدت منك مهندافى الترب كان ممزق الأغماد

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۵۹ قد كنت أهوى أن اشاطرك الردىلكن أراد اللّه غير مرادى

و لقد كبا طرف الرقاد بناظرى‌أسفا عليك فلا لعا لرقاد

ثكلتك أرض لم تلد لك ثانياأنى و مثلك معوز الميلاد

ان الدموع عليك غير بخيلةو القلب بالسلوان غير جواد

سودت ما بين الفضاء و ناظرىو غسلت من عينىّ كل سواد

رى الخدود من المدامع شاهدأن القلوب من الغليل صواد

ما كنت أخشى أن تضن بلفظةلتقوم بعدك لى مقام الزاد

ماذا الذى منع الفنيق هديره من بعد صولته على الأذواد

ماذا الذى حبس الجواد عن المدىمن بعد سبقته إلى الآماد

ماذا الذى فجع الهمام بوثبةو عدا على دمه و كان العادى

لقضى لسانك مذ ذوت ثمراتهأن لا دوام لنضرة الأعواد

بقيت أعيجاز يضل تبيعهاو مضت هواد للرجال هواد

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۶۰ يا ليت أنى ما اقتنيتك صاحباكم قنية جلبت أسى لفؤادى

برد القلوب لمن تحب بقاءهمما يجر حرارة الاكباد

و يقول من لم يدر كنهك انهمنقصوا به عددا من الاعداد

هيهات أدرج بين برديك الردىرجل الرجال و أوحد الآحاد

لا تطلبى يا نفس خلا بعدهفلمثله أعيا على المرتاد

فقدت ملاءمة الشكوك بفقدهو بقيت بين تباين الاضداد

ما مطعم الدنيا بحلو بعدهأبدا و لا ماء الحيا ببراد

الفضل ناسب بيننا إن لم يكنشرفى مناسبه و لا ميلادى

إن لم تكن من اسرتى و عشيرتىفلأنت أعقلهم يدا بودادى

إن لم يكن وافى الاصول فقد وفىشرف الجدود بسؤدد الأجداد

لا در درى إن مطلتك ذمةفى باطن متغيب أو باد

ان الوفاء كما اقترحت فلو تكنحيا إذن ما كنت بالمزداد

ليس التنافث بيننا بمعاودأبدا و ليس زماننا بمعاد

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۶۱ ضاقت علىّ الأرض بعدك كلهاو تركت أضيقها علىّ بلادى

لك فى الحشا قبر و ان لم تأوهو من الدموع روائح و غواد

سلوا من الأبراد جسمك و انثنىجسمى يسلّ عليك فى الأبراد

فاذهب كما ذهب الربيع و أثرهباق بكل خمائل و نجاد

لا تبعدنّ و أين قربك بعدهاان المنايا غاية الأبعاد

صفح الثرى عن حر وجهك انهمغرى بطىّ محاسن الامجاد

و تماسكت تلك البنان فطالماعبث البلى بأنامل الاجواد

و سقاك فضلك انه أروى حيامن رائح متعرس أو غاد

جدث على أن لا نبات بأرضهوقفت عليه مطالب الرواد

و قد اجتاز الشريف على قبر الصابى بعد موته بأعوام فهاجته الذكرى فقال:

أيعلم قبر بالجنينة أنناأقمنابه ننعى الندى و المعاليا

مررنا به فاستشرفتنا رسومه كما استشرف الروض الظباء الجوازيا

و ما لاح ذاك الترب حتى تحلبتمن الدمع أوشال ملأن الاماقيا

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۶۲ نزلنا اليه عن ظهور جيادنانكفكف بالأيدى الدموع الجواريا

و لما تجاهشنا البكاء و لم نطقعن الوجد إقلاعا عذرنا البواكيا

أقول لركب رائحين تعرّجواارِيكم به فرعا من المجد ذاويا

ألموا عليه عاقرين فانناإذا لم نجد عقرا عقرنا القوافيا

و لو أنصفوا شقوا عليه ضمائراو جزوا رقابا بالظبا لا نواصيا

وقفنا فأرخصنا الدموع و ربماتكون على سوم الغرام غواليا

ألا أيها القبر الذى ضم لحدهقضيبا على هام النوائب ماضيا

هل ابن هلال منذ أودى كعهدناهلالا على ضوء المطالع باقيا

و تلك البنان المورقات من الندىنواضب ماء أم بواق كما هيا

و ما كنت آبى طول لبث بقبرهلو انى اذا استعديته كان عاديا

خلا بعدك الوادى الذى كنت أنسهو أصبح تعروه النوائب واديا

أراحت علينا ثلة الوجد ترتعىضمائرنا أيامها و لياليا

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۶۳ رضيت بحكم الدهر فيك ضرورةو من ذا الذى يغدو بما ساء راضيا

و طاوعت من رام انتزاعك من يدىو لو أجد الاعوان أصبحت عاصيا

و طامنت كيما يعبر الخطب جانبىفألقى على ظهرى و جرّ زماميا

رثيتك كى أسلوك فازددت لوعةلأن المراثى لا تسد المرازيا

و أعلم أن ليس البكاء بنافعليك و لكنى أمنى الامانيا

و فى سنة ۳۹۳ أى بعد موت الصابى بنحو تسع سنين مر الشريف على قبره فقال:

لو لا يذم الركب عندك موقفىحييت قبرك يا أبا اسحاق

كيف اشتياقك مذ نأيت إلى أخقلق الضمير اليك بالاشواق

هل تذكر الزمن الانيق و عيشنايحلو على متأمل و مذاق

و ليالى الصبوات و هى قصائرخطف الوميض بعارض مبراق

لا بدّ للقرناء أن يتزايلوايوما بغدر قلى و عذر فراق

أمضى و تعطفنى اليك نوازعبتنفس كتنفس العشاق

و أذود عن عينى الدموع و لو خلتلجرت عليك بوابل غيداق

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۶۴ و لو أن فى طرفى قذاة من ثرىو أراك ما قذيتها من ماقى

ان تمض فالمجد المرجب خالد أو تفن فالكلم العظام بواقى

إلى آخر القصيدة و كنت أشرت فى كتاب النثر الفنى إلى أن رسائل الصابى لا تصلح لغير أهل عصره فهى غير خليقة بالبقاء. و فاتنى أن أقول ان الشريف كتب اسم الصابى على جبهة الزمان بأصباغ لا تجففها شمس و لا يمحوها هواء.

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۶۵

غرائب الوفاء عند الشريف الرضى

ايها السادة أشرنا قبلا إلى رجل من أصدقاء الشريف يقال له ابن ليلى، و هو رجل لم تتحدث عنه كتب التاريخ، و انما نعرف ان اسمه عمرو، لقول الشريف و هو يرثيه:

و أين كفارس الفرسان عمروإذا رزء من الحدثان فاجا

و نعرف أن كنيته أبو العوّام من قول الشريف:

أين أبو العوّام للعواصيروضها و الخيل و الدلاص

و المفهوم ان ابن ليلى كان رجلا عربيا من سادة البوادى، و المظنون انه كان داعية للشريف، و تشهد أشعار الرضى أن بنى تميم هم الذين قتلوا ذلك الصديق.

تلك هى ترجمة ابن ليلى، فهل كان يستحق أن يبكيه الشريف بأربع قصائد، و أن يجعله فى قصيدة خامسة مثلا أعلى لأشراف الرجال.

ان ابن ليلى رجل صغير القدر عند من تستهويهم عنعنات التواريخ فلو كان لهذا الرجل شأن لأفاض فى أخباره المؤرخون، و لكنا نرى أن ابن ليلى رجلا عظيما جدا، لانه ذكر بالحمد و الثناء فى أثر أعظم من كتب

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۶۶

التواريخ و هو ديوان الشريف.

و الحق ان شخصية ابن ليلى تعطينا صورة من صور الرضى، أو هى تدلنا على بعض مذاهبه فى الحياة، و من الواجب أن ننص بصراحة على صفة أساسية من صفات الشريف هى الفروسية، فقد كان الشريف الرضى فارسا، و كان أبوه فارسا، و كان أقطاب أسرته من الفرسان، و أبطال الفروسية لهم شمائل تقترب من شمائل الأعراب، فليس من المستغرب أن يكون للشريف صديق بدوى يحبه أصدق الحب و يبكيه حين يموت بالقصائد الباقيات.

أضيفوا إلى هذا أن الشريف كان ورث عن أبيه صداقات كثيرة، صداقات بدوية أسسها فى غدوه و رواحه بين العراق و الحجاز، و كان الشريف و أبوه قد عرفا أقطاب البوادى و شياطين الصحراء و هما يحجان، و قد حجا مرات كثيرة بفضل المنصب الموروث، منصب إمارة الحج، و من هنا جاز أن يقال ان ابن ليلى كان داعية الشريف، فليس من المستبعد أن يكون الشريف فكر فى تكوين عصبية عربية يناهض بها خلافة بنى العباس حين تسمح الظروف، و كان ابن ليلى من الذين اصطفاهم لتحقيق ذلك الغرض المرموق، و لكن ستظل هذه القضية ظنونا فى ظنون إلى أن يظهر ما يحققها من شواهد التاريخ.

و المهم أن نقرر أن الشريف تفجع على ابن ليلى أعظم تفجع، و شهدت أشعاره بأنه كان يرى ذلك الرجل من كرام الاصفياء، و الواقع أن البوادى فيها كنوز من الشهامة و الفتوّة و المروءة، و هى عالم مجهول و لكنه موجود، و كان من حظ الشريف أن يعرف ما فى ذلك العالم من شمائل و خصال.

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۶۷

لا نعرف بالضبط متى مات ابن ليلى، و لكن الارجح عندنا أن أقدم قصائد الشريف فى رثائه هى القصيدة التى نظمها فى مطلع سنة ۳۹۳ و الظاهر ان ابن ليلى قتل فى ذلك الحين، فإن الشريف يقول:

تعيف الطير فأنبأنهأن ابن ليلى علقته علوق

و أن سجلا من دم آمنأفرغه الطعن بوادى العتيق

و هى قصيدة بدوية النسج تشهد بأن الشريف أراد أن يلائم بين سمات المبكى و بين سمات الاسلوب، وفعها يقول:

بعدا لأرماح تميم لقدهددن عادى بناء عتيق

قرعن فى أصل كريم الثرىو جلن فى فرع عزيز العروق

حدوا له من حيث لا يتقىعيرا من الطعن ملاء الوسوق

ما كان بالراجع عن نهجهلو وقف السيف له فى المضيق

و فيها توجع الشريف أعنف توجع إذ يقول:

كان هوى للنفس لو أننىفى حلق القدو أنت الطليق

ما كنت بالهائب طرق الردىما سلم العضب و أنت الرفيق

ما أنا باللاقى بذات النقاخيل وغى مشعلة بالعنيق

ماطلها الماء فلما سلتعن الروى ماطلها بالعليق

ولّى ابن ليلى عارضا رمحهيحدو بخفان جمالا و نوق

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۶۸ يأبى إذا الضيم غدا مضغةسلسالة سائغة فى الحلوق

يروح من يرجو له غرةقد خضخض السجل بجال عميق

استبدل الحى بعقبانه اغربة بعدك حمق العنيق

خاطرت الشول بأذنابها لما انطوى قرقار ذاك الفنيق

ما الحىّ بالضاحك عن مثلهو لا وجوه الحى مذغاب روق

لا أغفلت قبرك حنانة خرقاء بالقطر صناع البروق

و لا أغب الارض تمسى بهاظل صفيق و نسيم رقيق

و هناك قصيدة أخرى سلكت هذا المسلك الوعر، أرق ما فيها قوله:

يا قبر بين القور و الدعاص ضمّ على لؤلؤة الغواص

قاد ابن ليلى قائد المعتاص كان سياغى فغدا اغتصاصى

ما أثقل اليأس على الحراص هل لجروح الدهر من قصاص

قد ينزل العالى من الصياصى و قد يطيع الرأس و هو عاصى

و لكن الشريف سيترك هذه الوعورة و يبكى ابن ليلى بالشعر السمح

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۶۹

كأن يقول:

أدارى المقلتين عن ابن ليلىو يأبى دمعها إلا لجاجا

لها ثبط على الأيام باق تجيش به معينا او أجاجا

كأن بها ركية مستميح يخضخضها بكورا و أدلاجا

اذود النفس عنه و ذاك منهاعنان ما ملكت له معاجا

كأن العين بعد اليوم جرحاذا طبوا له غلب العلاجا

تجم على القذى و تفيض دمعامطال الداء و ادع ثم هاجا

و اين كفارس الفرسان عمرواذا رزء من الحدثان فاجا

بحق كان أولهم و لوجاعلى هول و آخرهم خراجا

إذا رسبت حصاة القلب منه‌طفا قلب الجبان به انزعاجا

و هو يحدثنا أن ذلك الرجل كانت اليه قيادة العرب إذ يقول:

فمن يزع العريب إذا تناغت‌و يضرب بين غاربها سياجا

و يذكرها الحلوم على تناس‌و قد بلغت حفائظها الهياجا

يحاججها عن الارحام حتى‌يقر القوم أن له الحجاجا

ثم يختم القصيدة بأقباس الالتياع فيقول:

أقاض حق قبرك ذو غرام‌اعاج الركب عن طرب و عاجا

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۷۰ يريق عليك ماء القلب صرفاو ماء العين يجعله مزاجا

و لو بلغ المنى إنسان عينى‌خلا منها و أسكنك الحجاجا

و ما زال الشريف يبدىء و يعيد فى التفجع على ابن ليلى حتى ذهب الحزن به كل مذهب فخلد ذكره بقصيدة قليلة الامثال، إذ يقول:

لعمر الطير يوم ثوى ابن ليلى‌لقد عكفت على لحم كريم

و إن قنا العدا ليردن منه‌دما لم يجر فى عرق لئيم

كأن الرمح يصدر منه عدواعن الاجمى ذى اللبد الكليم

و اقسم إن ثوبك يا ابن ليلى‌لمجموع على عرض سليم

رزئتك كالوذيلة لم تمتع‌بها بعد الوجود يد العديم

تنام و تترك الاضغان يقظى‌خماشات الذوابل فى تميم

إذا نزعوا الملابس أذكرتهم‌ذحول يديه آثار الكلوم

و من مطل الديون اعد صبراعلى عنت المطالب و الغريم

تداعت لى بمصرعه الليالى‌و أوعبت النوائب فى أديمى

و تقترع القوارع فى جنانى‌قراع النبل فى الغرض الرجيم

أأجزع أن حطمن حجاز أنفى‌و هن يقصن أعناق القروم

و مالى لا اراع و قد رمتنى‌يد الجلى بقارعة التميمى

احنّ اليه و اللقيا ضمار حنين العود للوطن القديم

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۷۱ و انشده و اعلم اين امسى‌مطالا للبلابل و الهموم

كأدماء القر انشدت طلاها و ما وجدان جازية بغوم

تطيع اليأس ثم تعود وجداليه بالمقصة و الشميم

يعارضنى بذكرك كل شىء‌عداد الداء غبّ على السليم

اجدك هل ترى بعد ابن ليلى‌طعانا بين رامة و الغميم

أ أرجو للحواضن كابن ليلى؟أحلت إذن على بطن عقيم

و كان الشريف يذكر ابن ليلى كلما ضجر فى اسفاره، فكأنه كان يراه ملك البيداء.

أيها السادة ليس الذى يهمنى فى هذا المقام هو النص على وفاء الشريف، و انما الذى يهمنى هو تعليل ذلك الوفاء، فالشاعرية التى كانت تتفجر فى صدر الشريف هى التى جعلت الدنيا أمام عينيه منادح للأطراب و الاشجان، فاذا كان من الشعراء من يتكلف اسباب الحنين فيتفجع لغروب الشمس، أو يتوجع لسقوط الاوراق فى الخريف، فان الرضى يجد من نوائبه الوجدانية ينابيع للحزن لا تنضب و

لا تغيض.

و الحزن ايها السادة طيف أسود، و لكنه محبوب، و الشعراء هم الذين

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۷۲

جعلوا وصف الحزن من الشرائع الانسانية، و الحزن لا يكون دائما صفة سلبية كما يتوهم بعض الناس، فهو حين يسمو يكون دليلا على عافية القلب و سلامة الروح، و لا يحزن حق الحزن إلا الاصحاء.

ان الحزن العنيف هو الشاهد على قوة شعورنا بما نفقد، و هو الدليل على أننا نحاول العظائم فنطلب الخلود لكل ما تصطفى أرواحنا فى عالم المحسوس و المعقول.

و ما كان الشريف يبكى أحبابه مرة واحدة ثم يلوذ بالصمت، لا، و إنما كان يصل أحبابه بالذكرى و الحنين فلا يفقد منهم غير الوجود الملموس، فطريق الحج على طوله فى تلك العهود كان يمثل للشريف أمما كثيرة من عوالم الأحياء و الاموات، و لعل ظهور الخيل لم تعرف فتى أقوى شاعرية من ذلك الفتى البكاء، و الفرح و الترح يفيضان من ينبوع واحد، لو تعلمون.

و من عجائب ما وقفت عليه أن الناس كانوا يسألون الشريف أن يبكى موتاهم فيجيب، و الشجى يبعث الشجى، و الدنيا عند الحزين كلها قبر مالك .

أليس من العجيب أن يسأل الشريف بكاء ميت لا يعنيه فيقول:

ألا مخبر فيما يقول جليةيزيل بها الشك المريب يقين

أسائله عن غائب كيف حالهو من نزل الغبراء كيف يكون

و ما كنت أخشى من زمانى أننىأرق على ضرائه و ألين

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۷۳ إلى أن رمانى بالتى لا شوى لهافأعقب من بعد الرنين أنين

و ان أحق المجهشين بعترة و وجد قرين بان عنه قرين

و ما تنفع المرء الشمال وحيدةإذا فارقتها بالمنون يمين

تجرم عام لم أنل منك نظرةو حان و لم يقدر لقاؤك حين

أمر بقبر قد طواك جديدهفأبلس حتى ما أكاد أبين

و تنفضّ بالوجد الاليم أضالعو ترفّض بالدمع الغزير شؤون

و معاذ الأدب أن يكون الشريف فى هذه القصيدة كالنائحة المستأجرة، و هل كانت النائحة المستأجرة تعنى حقا من دعيت للبكاء عليه؟ انها تبكى ودائعها فى التراب فهى نائحة ثكلى مفطورة الفؤاد.

و يظهر جانب المروءة من وفاء الشريف حين نتذكر بعض المواقف التى تجلت فيها شجاعته، فقد اتفق لرجل من عظماء بغداد أن يتألب الجمهور عليه لبعض الاسباب، و كان لذلك الرجل كثير من الاصدقاء و الأشياع، فلما مات خاف أصدقاؤه و أشياعه عواقب التفجع عليه فلم يمش فى جنازته غير ثلاثة منهم الشريف، و فى هذا الحادث البشع يقول:

لعمرى لقد ماطلت لو دفع الردىمطال و قد عاتبت لو سمع الدهر

أ فى كل يوم أنت غاد مشيع‌حبيبا إلى دار يقال لها القبر

لئن كان لى فى كل ما أنا تاركوراء الثرى أجر لقد عظم الاجر

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۷۴ سقيت أبا بكر على البعد و النوىو لا بلّ هام الشامتين بك القطر

أخى ما أقل التابعيك إلى الثرىو اخوانك الادنون من قبلها كثر

لقد كانت النكراء منك خليقةو لا عرف حتى يتقى قبله النكر

ألا إنما الماضون منا هم الالى أراحوا و حطوا و البواقى هم السفر

تتبعه أبصارنا و هو ذاهب كما مال قرن الشمس أو وجب البدر

عليك سلام اللّه فات بك الردى و لم يبق عين للقاء و لا أثر

و من هذا الباب جزع الشريف على أصدقاء لم ترفعهم مواهبهم و لا مقاماتهم لمرتبة النص على أسمائهم فى الديوان، و هم ناس كانوا فى صدر الشريف معارف و كانوا فى زمانهم نكرات، و هؤلاء الاصدقاء المجهولون لا يعرف أقدارهم غير الشعراء، و هل من العدل أن يغلق باب الصداقة فلا يفتح إلا لمن ظفروا بالشهرة و بعد الصيت؟ أليس من حق الشاعر أن يقول: إن أخلص من ودعونى يوم الفراق هو كلبى! ما هذه الغطرسة التى نعتصم بها فلا نهب معانى المودة لغير المشهورين؟ و هل كان المشهورون أصدق من نعرف حتى نقف عليهم لواعج الشوق و الحنين؟

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۷۵

كم رجل حرمته الطبيعة أسباب التفوق فى الميادين المعاشية و الأدبية و السياسية، ثم وهبته قلبا يشعر و لسانا لا يبين! كم رجل خامل الذكر صغير الشأن يقبل عليك بنفس تواقة و قلب حنان! كم امرأة أمية لا تعرف غير شؤون البيت ثم تمد زوجها بأرواح من القوة و الفتوة لا تقدر على مثلها المتخرجات فى السوربون! إن الصداقة لها منابع غير منابع العرفان، و الرجل العالم لا يصادق إلا حين يرجع إلى الفطرة الاولى، فطرة الانسان الحساس.

فلا تلوموا الشريف إن رأيتموه يرثى ناسا لم يسمح مقامه الاجتماعى بذكر أسمائهم فى الديوان، فتلك وثبة فطرية لا تصدر إلا عن كرام الرجال.

و ان وقفات كهذه لأشرف من وقفاته و هو يرثى رجلا من بنى أمية أو رجلا من بنى العباس، لأن فى بكاء العادلين من الخصوم لونا من الأثرة وحب الاعلان، أما بكاء المغمورين المجهولين فهو فيض من الطبع الصادق و الاحساس الامين.

و مثل الشريف فى هذا الباب مثل الفنان الذى ينحت التماثيل، فهو دائما يوهم الجمهور أنه يضع تمثالا لامرأة مجهولة أو رجل مجهول، هو يخدع الناس حين يوهمهم أنه لا يهتم بغير تمثيل المعانى، و لو أبيح له أن يفصح لقال إنه لا ينظر إلى النموذج، و إنما يستوحى صورة هى بعض ما فى ضميره من دفائن الكنوز.

و قد اهتديت إلى هذا المعنى لطول ما عاشرت المثالين، فقد صحبت المسيو بلا نشو و هو يضع تمثال العارية، و صح عندى أن فى التمثال شمائل

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۷۶

لم تكن فى النموذج، فأدركت ان المثال يستعين النموذج على تذكر ما كان فتن به فى عالم العيان.

فالشريف يجسم معانى الاخوة و هو يبكى أصدقاءه المجهولين و هو أيضا يشرع للناس مذاهب الوفاء، و للشعر فى صدر ذلك الرجل جوهر لا يملك مثله إلا من اصطفاهم اللّه للتعبير عن حقائق الوجود.

أيها السادة انكم فى غنى عن التذكير بما فى آداب المجتمع من أوهام و أغاليط فلا تضق صدوركم حين يطوى الشريف أسماء فريق من الذين سكب على قبورهم شابيب الدمع السخين، و إنما أرجوكم أن تتمثلوا ديوان شعره شبيها بمصانع الرسامين و النحاتين فى القديم و الحديث، فليس يعلم إلا اللّه من الذين يعنيهم فنان مثل احمد راسم أو فنان مثل محمود سعيد، كما لا يعلم إلا اللّه من الذين كان يعنيهم البحترى و هو يفتح قصائد المديح بالنسيب.

إن قلب الشاعر كالغابة الشجراء، لا يعرف مجاهلها غير الأيقاظ من الادلاء، و قد دللتكم على قلب الشاعر الذى اسمه الشريف لانه أقدم صديق عرفته فى بغداد، و إنى لأرجو أن يعذرنى حين يرانى نممت عليه، فما أذكر اننا تعاهدنا على كتمان هذه الاحاسيس.

و اليكم شواهد من شعره فى بكاء المغمورين، قال من قصيدة:

مالى أودع كل يوم ظاعنالو كنت آمل للوداع لقاء

و أروح اذكر ما اكون لعهدهفكأننى استودعته الاحشاء

فرغت يدى منه و قد رجعت بهأيدى النوائب و الخطوب ملاء

أحبابى الادنين كم ألقى بكمداء يمض فلا أداوى الداء

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۷۷ أحيا إخاءكم الممات و غيركمجربتهم فثكلتهم أحياء

إلا يكن جسدى أصيب فاننىفرقته فدفنته أعضاء

و قال من قصيدة ثانية

أقول و قد قالوا مضى لسبيلهمضى غير رعديد الحنان و لا نكس

كأن حداد الليل زاد سوادهعليك ورد الضوء من مطلع الشمس

أرى كل رزء دون رزئك قدرهفليس يلاقينى ليومك ما ينسى

و قال من قصيدة ثالثة، و هى فى رجل كانت له شخصية، و لا نعرف السبب فى طىّ اسمه عن الناس:

ما بعد يومك ما يسلو به السالىو مثل يومك لم يخطر على بالى

و كيف يسلو فؤاد هاض جانبهقوارع من جوى هم و بلبال

يا قلب صبرا فان الصبر منزلةبعد الغلوّ اليها يرجع الغالى

نقص الجديدين من عمرى يزيد علىما ينقصان على الأيام من حالى

مضى الذى كنت فى الايام آملهمن الرجال فيا بعدا لآمالى

قد كان شغلى من الدنيا فمذ فرغتمنه يدى زاد طول الوجد أشغالى

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۷۸ تركته لذيول الريح مدرجةو رحت اسحب عنه فضل أذيالى

ما بالى اليوم لم ألحق به كمدااو أنزع الصبر و السلوان من بالى

أيها السادة هناك جانب من غرائب الوفاء عند الشريف هو بكاء النساء، و هذا اغرب الجوانب، و هو يحتاج إلى تأمل و درس، و لا نعرف بالضبط كيف نشأ هذا عند الشريف، فقد كان من المألوف فى التقاليد العربية أن لا يبكى من النساء غير المعشوقات، و بكاء الامهات و الحلائل باب من النبل و لكنه فى شعر العرب قليل، فقد لا يساوى واحدا من خمسين إذا أحصينا ما قيل فى الرثاء، فكيف اتفق للشريف الرضى أن يكثر من تعزية الناس فى أمهاتهم و بناتهم و أخواتهم؟

إن هذه الظاهرة ليس لها عندى غير تعليل واحد، هو أن الشريف الرضى كان (ابن امه) كما يعبر المصريون حين يداعبون من يغضبون لامهاتهم من الاطفال.

و نحن نعرف أن أيام البؤس فى حياة الشريف مضت و هو فى رعاية أمه الرءوم التى باعت أملاكها و حليها لتقيه و تقى أخاه ذل العوز و الاحتياج.

و الام الرءوم لم تجد من يؤرخ فضلها فى اللغة العربية، و يندر بين كتاب العرب من يقول حدثتنى أمى و أنبأتنى اختى و اخبرتنى حليلتى، و إن كان فى شعرائهم من يقبل النعال فى اقدام الملاح! و ما اريد ان اطيل القول فيما اثر عن العرب و الهنود من بغض البنات

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۷۹

فذلك معروف، و انما اريد ان اقف عند هذه النزعة النبيلة من نزعات الشريف، و أنا اجزم بأنه كان يرى المرأة فى صورة امه تلك الام التى وقته مكاره الحياة فى السنين العجاف يوم اودع ابوه غياهب الاعتقال.

و الحق ان اللغة العربية كانت تحتاج إلى من يمجدون الامهات و الاخوات و البنات على نحو ما وقع فى اللغات الاجنبية، فان فى المرأة

عناصر من العطف و التضحية لا يدركها إلا ذوو الألباب، و صاحبنا الشريف قد وفق فى هذه الناحية كل التوفيق.

و رثاء الشريف لامه يشهد بأنه كان يفهم قيمة هذا المذهب النبيل، فهو يجعل موتها بابا لشماتة الاعداء إذ يقول:

كم عبرة موهتها بأناملىو سترتها متجملا بردائى

أبدى التجلد للعدوّ و لو دريبتململى لقد اشتفى اعدائى

و التصريح بأن موت الام باب إلى الشماتة هو اعظم تمجيد لكرائم النساء.

و هو يصرح بأن امه كانت تقيه النوائب، و تنفق عليه و تواسيه، فيقول:

فبأى كف استجنّ و اتقىصرف النوائب ام بأى دعاء

و من المموّل لى إذا ضاقت يدى و من المعلل لى من الادواء

و من الذى إن ساورتنى نكبةكان الموقى لى من الاسواء

رزءان يزدادان طول تجددابد الزمان فناؤها و بقائى

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۸۰قد كنت آمل ان يكون امامهايومى و تشفق أن تكون ورائى

إلى ان يقول:

لو كان يبلغك الصفيح رسائلى او كان يسمعك التراب ندائى

لسمعت طول تأوهى و تفجعىو علمت حسن رعايتى و وفائى

كان ارتكاضى فى حشاك مسبباركض الغليل عليك فى احشائى

و هذا البيت يتضمن صورة حسية لا يصرح بها إلا شاعر يفهم الحقائق فهو يرى حياته فى بطن امه دينا واجب الاداء. و كذلك صح لهذا الشاعر الانسانى ان يعزى بعض الناس فى بنت ماتت بعد بنت فيقول من قصيد طويل:

هذا العزاء و إن تحزن فلا عجبإن البكاء بقدر الحادث الجلل

و لكن ما بالنا نحصر اسباب هذه العاطفة فيما تلقاه الشريف عن امه الرءوم؟ ما الذى يمنع من افتراض ان تكون هذه المعانى اوحيت إليه من التعرف إلى كرائم النساء؟ ما الذى يمنع من التصريح بان اشراف الرجال لا تخلو حيواتهم من مودات شريفة نبيلة يضمرونها لبعض العقائل المصونات؟ ما الذى يمنع من القول بأن فى بنات الاعمام و الاخوال ظلالا من العطف نلوذ بها فى هجير الحياة؟ بل ما الذى يمنع من القول بأن فى

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۸۱

بعض الاجنبيات نفحات من الرفق نتنسم بها أرواح الفردوس؟

و هل قضى علينا سوء الطالع أن لا تكون صلاتنا بالنساء إلا شبهات تحوطها شبهات؟

إن تلك المعانى السود لا ينبغى أن تطيف بأخيلة الكرام من الرجال، فللرجل النبيل كل الحق فى أن يشغل قلبه و ذهنه بشواغل المودة الصادقة لمن يعرف من أشراف النساء، و هذا باب من أنس الضمائر و القلوب عرفه الناس من قديم الزمان و إن جبنوا عن التصريح به فيما يكتبون و ما ينظمون.

و صديقنا الشريف الرضى كان يفهم هذه المعانى، و أكاد أجزم بأنه كان يضمر الاعزاز لكثير من عقائل الكرخ و بغداد، و أذهب إلى أبعد من ذلك فأقول انه كان يصادق كثيرا من نساء البيداء، فان لم تصدقوا ذلك فحدثونى كيف صح له أن يقول فى رثاء سيدة غيبها التراب:

على إى غرس آمن الدهر بعدمارمى قادح الأيام فى الغصن الرطب

ذوى قبل أن تذوى الغصون و عهدهقريب بأيام الربيلة و الخصب

كفى أسفا للقلب ما عشت أننى‌بكفى على عينى حثوت من الترب

جرت خطرة منها و فى القلب عطشةرفعت لها رأسى عن البارد العذب

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۸۲ و قلت لجفنى ردّ دمعا على دمو للقلب عالج قرح ندب على ندب

و مما يطيب النفس بعدك أننى‌على قرب من ماء وردك أو قرب

ألا لا جوى مسّ الفؤاد كذا الجوىو لا ذنب عندى للزمان كذا الذنب

خلا منك طرفى و امتلا منك خاطرى‌كأنك من عينى نقلت إلى قلبى

إى و اللّه، كذلك تسجل مودات الكرائم من النساء، و لو أفنينا الاعمار فى تخليد مآثر الحرائر و فضلهن على أرباب العقول لما بلغنا بعض ما نريد.

أيها السادة إن المقام يضيق عن شرح ما عند الشريف من غرائب الوفاء، و يكفى فى ختام هذه المحاضرة أن نشير إلى ما فى شعره من رقة الحنين، فهو الذى يقول فى رثاء بعض الاصدقاء:

أمسى كأن من القنابأضالعى قرعا و وخزا

يا ثانيا للنفس بل‌يا ثالث العينين عزا

عضو عثث فيه المنية ما أجل و ما أعزا

و هو الذى يقول:

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۸۳ مصابك لم يدع قلبا ضنينابغلته و لا عينا جمادا

كأن الناس بعدك فى ظلامأو الأيام ألبست الحدادا

و كنت أفدت خلته و لكن‌أفادنى الزمان و ما أفادا

فان لم أبكه قربى تلاقتمغارسها بكيت له ودادا

و هو الذى يقول فى التوجع على من فقد من الأهل:

قف موقف الشك لا يأس و لا طمعو غالط العيش لا صبر و لا جزع

و خادع القلب لا يود الغليل بهإن كان قلب على الماضين ينخدع

سائل بصحبى أنى وجهة سلكواعنا و أى الثنايا بعدنا طلعوا

غابوا فغاب عن الدنيا و ساكنهامرأى أنيق عن الدنيا و مستمع

أبكيهم و يد الايام دائبةتدوف لى فضلة الكأس التى جرعوا

لا أمترى اننى مجر إلى أمدجروا اليه قبيل اليوم أو نزعوا

أعتادهم لا أرجى أن يعود لهمإلىّ ماض و لا لى فيهم طمع

فما توهج أحشائى على نفركانوا عوارى للأيام فارتجعوا

ذوائب من لباب المجد ما فجعوابمثل أنفسهم يوما و لا فجعوا

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۸۴ هل تعلمون على نأى الديار بكم‌أن الضمير اليكم شيق ولع

لكم على الدهر من أكبادنا شعل‌من الغليل و من آماقنا دفع

لواعج أفصحت عنها الدموع و قدكادت تجمجمها الأحشاء و الضلع

أنزفت دمعى حتى ما تركت لهغربا يفيض على رزء إذا يقع

ثم اضطررت إلى صبرى فعذت بهو أعرب الصبر لما أعجم الجزع

و من هذه الشواهد ترون أنه كان يخاطب الاحباب الذاهبين، كما يخاطب الأحباب الغائبين، و ذلك فيض من قوة الاحساس.

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۸۵

غراميات الشريف الرضى

أيها السادة لقد شاع فى المشارق و المغارب أن الشريف الرضى كان من المغرمين، فقد كان القدماء يضربون الامثال بقصائده الحجازيات، فيقولون ما معناه:

لا تصقل نفس المتأدب إلا إن حفظ هاشميات الكميت و خمريات أبى نواس و زهديات أبى العتاهية و تشبيهات ابن المعتز و مدائح البحترى و حجازيات الشريف الرضى .

فالشريف كان معروفا عند القدماء بصدق اللوعة و الصبابة، و كانت أشعاره فى الحب كؤوسا يعاقرها المتيمون.

و لكن مرت أجيال و أجيال و الناس منصرفون عن ذلك الجانب المشرق من شعر الشريف، لأن الحياة الاسلامية قد شابها أقذاء التزمت و الجمود، و لم يبق من رجال الدين من تؤثر عنه أطايب الفكاهة و الظرف، أو تروى عنه غرائب الأحاديث.

و إنى لأشعر بالتهيب و أنا أشرح هذا الجانب من عبقرية الشريف الرضى، و لكن يشجعنى أنى أتكلم فى بغداد التى وسع صدرها مئات المذاهب و الآراء فى الدين و الاجتماع.

و أكاد أجزم بأن الشريف الرضى لو عاش فى غير العراق لما استطاع

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۸۶

أن يجمع بين الادب و الدين، لأن الجماهير الاسلامية فى غير العراق لم تكن تسمح لرجل من أساتذة العلوم الدينية أن يطيل القول فى فتنة الخدود و سحر العيون.

و ليس معنى هذا أن العراق خلا خلوّا تاما من التنكر لأخلاق الظرفاء من رجال الدين، لا، و لكنه كان أرق و أظرف من مصر التى لم يعرف علماؤها غير فناء الاعمار فى التدريس و التأليف، و التى تسقط فيها هيبة العالم إن اتهمه حاسدوه بأنه أديب يحفظ بعض ما قيل فى وصف الملاح.

كان الشريف الرضى يحب و يعشق، و قد اتسع عصره و بلده لسماع ما قال فى الحب و العشق، و لكنه مع ذلك حبس عواطفه فى قفص من حديد، لأن المجتمع العراقى على تسامحه لم يكن يبيح لمثله غير التجمل و التوفر و الاستحياء، فكان الشريف يسقى منابت الظرف من مزاجه الرقيق بقراءة ما ينظم معاصروه من أشعار المجون، و هل نسيتم ما أشرنا اليه من اهتمامه بدراسة أشعار ابن حجاج؟

لقد فطر الشريف الرضى على رقة الاحساس، و لكنه منذ نشأته كان مسئولا عن رعاية التقاليد، و هذا السجن الاجتماعى هو الذى أخرج من وجدانه ذلك الشاعر المجيد، لأن المشاعر لا ترهف إلا بقوة الاعتلاج، فلو كان الشريف رجلا مطلق الحرية فى تصرفاته الشخصية لكان من الممكن أن يصير ما جنا يشبه الالوف ممن تنسموا أرواح دجلة و الفرات، و لكن قسوة المجتمع صهرته صهرا عنيفا فأخرجت منه وترا حنانا يشدو فيجيد.

كان الشريف يستطيع أن يملأ الدنيا بالكلام عن التنسك و التقشف و الزهد، و كان يستطيع أن يكون إماما منقطع النظير فى علوم اللغة

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۸۷

و الدين، و كان يستطيع أن يكون رجلا تقبل يمناه لالتماس البركات، و لكنه لو عق فطرته لكان شيخا تافها كألوف المشايخ الذين سمح الدهر المخبول بأن يكونوا من أساتذة الازهر الشريف، فلم يبق إلا أن يتسامح مع فطرته بعض التسامح فيعلن بعض ما فى صدره من الغرام المدفون، و لكن كيف يعلن ذلك؟ سيظل الرجل فى حرب بين المجد و الحب: هو فى نفسه صالح لأن يكون من أقطاب الدولة، و لكن ما هذه النوازع الدقاق التى تنزل به إلى الهوان فى الحياة الغرامية؟ أيصح أن يصبح الفارس المغوار أسيرا لعينين

كحيلتين يشيع فيهما سحر النعاس؟ أيمكن ان يكون المحارب الصوّال فريسة للنحور العاجية التى تعجز عن حمل العقود؟ ما هذه الصلات الطبيعية التى تجمع بين الاضداد فتقرن القلب القاسى بالقلب الرقيق؟ ما هذه الغرائب التى تقضى بأن لا يتم العشق بين رجل و امرأة مختلفين فى العرض و الطول على نحو ما كنا نرى فى شوارع باريس؟ إن الطبيعة تنتقم من الأوضاع و التقاليد، و لكنّ أكثر الناس لا يفقهون! إن الشريف قد تزدهيه الكبرياء فيقول:

تضاجعنى الحسناء و السيف دونهاضجيعان لى و السيف أدناهما منى

إذا دنت البيضاء منى لحاجةأبى الابيض الماضى فأبعدها عنى

و إن نام لى فى الجفن إنسان ناظرتيقظ عنى ناظر لى فى الجفن

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۸۸ أغرت فتاة الحىّ مما ألفتهأغلغله دون الشعار من الضن

و قالت هبوه ليلة الخوف ضمهفما عذره فى ضمه ليلة الأمن

و هذه قطعة نفيسة من حيث المعنى و الخيال، فهل كانت من نفحات الصدق؟ أستبعد ذلك، فالرجل لا يضاجع السيف فى ليلة الوصل الا و هو متكلف، و لا سيما إن صرح بأنه فى أمان.

إنما الصدق ان يفصح عن ذات نفسه فيصرح بأنه يلقى الجمال بوجه متجهم و قلب رقيق، فيقول:

و مقبل كفى وددت لو انهأومأ إلى شفتىّ بالتقبيل

جاذبته فضل العتاب و بيناكبر الملول و ذلة المملول

و لحظت عقد نطاقه فكأنماعقد الجمال بقرطق محلول

جذلان ينفض من فروج قميصهأعطاف غصن البانة المطلول

من لى به و الدار غير بعيدةمن داره و المال غير قليل

و هذه قطعة شرحنا ما تومىء إليه من الاسرار النفسية فى كتاب (مدامع العشاق) منذ سنين، و هى شاهد على النزاع بين العقل و الهوى و الهدى و الضلال، إن صح ان الصدق فى التعبير عن خوالج القلب إثم و إسراف.

الحق ان الشريف كان صورة للنزاع بين العقل و القلب، العقل الذى يوجب ان يكون الرجل من عبيد المجتمع ليسود المجتمع، و القلب الذى يوجب ان يكون الرجل عند وحى الفطرة و الاحساس، و قد صدق فى

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۸۹

التعبير عن هذه المعضلة النفسية حين قال:

و لقد أطلت إلى سلوّك شقتىو جعلت هجرك و التجنب زادى

أهون بما حملتنيه من الضنىلو أن طيفك كان من عوّادى

لا يبعدن قلبى الذى خلفتهوقفا على الاتهام و الانجاد

إن الذى غمر الرقاد و سادهلم يدر كيف نبا علىّ و سادى

لولا هواك لما ذللت و إنماعزى يعيرنى بذل فؤادى

العز يعير بذل الفؤاد؟

تلكم هى القصة الموجزة لحياة الشريف، فهو فى نزاع دائم بين عزة الجاه و ذلة القلب، فان لم يكف هذان الشاهدان فانظروا كيف يقول:

يا صاحب القلب الصحيح أما اشتفىألم الجوى من قلبى المصدوع

هيهات لا تتكلفن لى الهوىفضح التطبع شيمة المطبوع

كم قد نصبت لك الحبائل طامعافنجوت بعد تعرض لوقوع

و تركتنى ظمآن أشرب غلتى‌أسفا على ذاك اللمى الممنوع

قلبى و طرفى منك هذا فى حمى‌قيظ و هذا فى رياض ربيع

كم ليلة جرّعته فى طولهاغصص الملام و مؤلم التقريع

أبكى و يبسم و الدجى ما بيننا‌حتى أضاء بثغره و دموعى

تفلى أنامله التراب تعللاو أناملى فى سنى المقروع

قمر إذا استخجلته بعتابه‌لبس الغروب و لم يعد لطلوع

لو حيث يستمع السرار وقفتمالعجبتما من عزه و خضوعى

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۹۰ أهون عليك إذا امتلأت من الكرى‌أنى أبيت بليلة الملسوع

قد كنت اجزيك الصدود بمثله‌لو أن قلبك كان بين ضلوعى

و هذه اشعار من فيض القلب، و الشريف فى هذه الاشعار ليس هو ذلك الشيخ الجليل الذى أنشأ مدرسة سماها (دار العلم) و اقام فيها مكتبة يتزود منها طلاب اللغة و الدين، و إنما هو إنسان يرى الدنيا بأعين الشعراء الذين يدركون اسرار الوجود.

أيها السادة إن النص على هذا المعنى ضرورى فى هذا البحث، فالشريف الرضى فى غرامياته ليس من تلاميذ بغداد، و انما هو من تلاميذ البيداء، و آية ذلك ان الانفاس البغدادية لا نحسها عنده إلا فى النادر القليل، فهو بعيد كل البعد عن أنفاس الشعراء الذين تمتعت آذانهم و عيونهم بضجيج بغداد و مواكب بغداد، و تعليل هذا سهل: فقد كان رجلا يفهم ان المفروض عليه ان لا يعرف بغير التقى و العفاف و لم تكن دنيا الناس فى ذلك العهد تسمح لرجل مثله ان يخاطر بمركزه الادبى و الدينى فى سبيل الوجد و الصبابة، و إنما كان يقهر على ذلك قهرا بما يتوقد فى صدره من الغرام المشبوب، و هو نفسه قد شعر بهذا الحرج حين قال فى دفع من اتهموه بالخروج على أدب الاتقياء:

و أكذب بالتصون مدعيهمو ألجم قائليهم بالعفاف

و اريد ان اقول بصراحة إن الشريف الرضى كان يحاول التخلص من مذاهب البغداديين فى التشبيب، لأن أكثر الشعراء فى تلك الأيام كانوا

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۹۱

أسرفوا فى العبث و المجون، و كان يرى من موجبات الكرامة أن يترفع فى نسيبه عما ألف اولئك الشعراء من التبذل و الاسفاف، و قد أوغل فى التحفظ حتى كاد يهجر الشعر الرقيق، فلم يتفق له إلا فى الندرة أن يقول:

يا مقلقى قلقى عليك أظنه ذنبى اليكا

أنت الشقيق فلو جنيت لما أخذت على يديكا

أمسيت ثالث ناظرىّ‌فكيف أقذى ناظريكا

و كفاك أنى لست أعقد خنصرى إلا عليكا

أو يقول:

يا ليلة كرم الزمان بها لو ان الليل باقى

كان اتفاق بيننا‌جار على غير اتفاق

و استروح المهجور من‌زفرات هم و اشتياق

فاقتص للحقب المواضى بل تزود للبواقى

حتى إذا نسمت رياح الصبح تؤذن بالفراق

برد السوار لها فأحميت القلائد بالعناق

أو يقول:

كم مقام خضنا حشاه إلى اللهوجميعا و الليل ملقى الرواق

و مزجنا خمر الرضابين فى الرشفبرغم المدام تحت العناق

قم نبادر مرمى الزمان ببينفسهام الخطوب فى الأفواق عبقرية الشريف الرضى ؛ ج۲ ؛ ص۹۲

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۹۲ و اغتنمها قبل الفراق فما تعلم يوما متى يكون التلاقى

نحن غصنان ضمنا عاطف الوجد جميعا فى الحب ضم النطاق

و الأبيات الاخيرة من قصيدة طويلة نص الديوان على أنها فى معنى سئل القول فيه، فكأنه يتهيب الحديث عن ليالى الوصل، و من الشعراء من تحبسهم تقاليد المجتمع فلا يتحدثون عن أهواء النفس إلا بطريق التلميح.

صدقونى أيها السادة إذا حدثتكم أنى تعبت فى البحث عن صور بغداد فى غراميات الشريف الرضى، فلم أجد غير أطياف، كأن يقول:

أنا الفداء لظبى ما اعترضت لهإلا وهتك شوقا لى أستره

لاحظته و النوى تدمى ملاحظه بعارض من رشاش الدمع يمطره

ما انفك من نفس للوجد يكتمهتحت الضلوع و من دمع يوفره

أهوى إلىّ يدا عقد العناق بهاو البين يعذله و الحب يعذره

و قال تذكر هذا بعد فرقتنافقلت ما كنت أنساه فأذكره

فهذه قطعة تذكر بابن المعتز، أشعر خلفاء بغداد و الحق أيها السادة أن الشريف الرضى لم يكن يتكلم اللغة البغدادية إلا حين يأسره الغضب أو الحزن. عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۹۳

كأن يقول:

مواقد نيرانهم قرة و سربال طاهيهم أبيض

إذا حركوا للمساعى أبواو ان انزلوا دار ضيم رضوا

و كأن يقول فى وصف مغن دميم:

تقذى بمنظره العيون إذا بداو تقيء عند غنائه الأسماع

أبذاك نستشفى و من نغماتهتتولد الآلام و الأوجاع

أم كيف يطربنا غناء مشوّهأبدا نهال بوجهه و نراع

نزوى الوجوه تفاديا من صوتهحتى كأن سماعه إسماع

و كأن يقول:

أيا للمجد من قوم لئامألا حر على عرض يغار

فأشجعهم إذا فزعوا جبانو أذكاهم إذا نطقوا حمار

لبونكم تدر لأبعديكم و عندى الذين منها و النفار

لغيرى ضوء ناركم و عندىدواخنها السواطع و الأوار

و كأن يقول فى التحزن للأموات:

رجعت فى إثرهم برغمىبعد نزاع إلى نزوع

أبقى الجوى جرحة بقلبى‌ما عشت مكتومة النجيع

كم غابن الموت عن كريم‌و قارع الخطب عن قريع

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۹۴ بانوا فلم أنتزح عليهم‌دمعى و لم أستذب ضلوعى

و أسفح الدمع للأعادى‌انى إذن فارغ الدموع

قلت إن الشريف لم يكن تلميذ بغداد و إنما كان تلميذ البيداء، و لكن هذا القول لا يخلو من اعتساف، فقد كانت للشريف لفتات إلى معالم العراق، كأن يصرخ:

أقول و قد جاز الرفاق بذى النقاو دون المطايا مربخ وزرود

أتطلب يا قلبى العراق من الحمى‌ليهنك من مرمى عليك بعيد

و إن حديث النفس بالشىء دونه‌رمال النقا من عالج لشديد

ترى اليوم فى بغداد أندية الهوى‌لها مبدىء من بعدنا و معيد

فمن واصف شوقا و من مشتك حشارمته المرامى أعين و خدود

تلفتّ حتى لم يبن من بلادكم‌دخان و لا من نارهن وقود

و إن التفات القلب من بعد طرفه‌طوال الليالى نحوكم ليزيد

و لما تدانى البين قال لى الهوى‌رويدا و قال القلب اين ترید

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۹۵ أتطمع أن تسلى على البعد و النوى‌و أنت على قرب المزار عميد

و لو قال لى الغادون ما أنت مشته‌غداة جزعنا الرمل قلت أعود

أأصبر و الوعساء بينى و بينكم‌و أعلام خبت؟ إننى لجليلد

فهذه القطعة تمثل أصدق الشوق إلى العراق، و تشهد بأنه كان مشغول القلب بأحبابه فى العراق.

و هو أيضا الذى يقول:

دعوا لى أطباء العراق لينظرواسقامى، و ما يغنى الاطباء فى الحب؟

أشاروا بريح المندل اللدن و الشذاو ردّ ذماء النفس بالبارد العذب

يطيلون جس النابضين ضلالةو لو علموا جسوا النوابض من قلبى

و الذى يقول:

ألا إن ليلى بالعراق كأنه‌طليح تجافاه الرجال ظليع

مقيم يعاطينى الهموم و ناظرى‌معنى بأعجاز النجوم ولوع

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۹۶

و الذى يقول:

سقى اللّه دهرا حبانا الوداد مبتدها فشكرنا العراقا

و الذى يقول فى رجوعه من الحج يتشوف إلى قباب بغداد:

عسى اللّه أن يأوى لشعث تناهبواهباب المطايا نصها و انجذابها

و جاسوا بأيديها على علل السرى‌حرار أماعيز الطريق و لابها

فيرمى بها بغداد كل مكبرإذا ما رأى جدرانها و قبابها

فكم دعوة أرسلتها عند كربةاليه فكان الطول منه جوابها

فالشريف لم يكن ينكر بغداد و لا العراق، و لكنه مع ذلك لم يكن مقصور الهوى على بغداد و العراق، فقد كانت له صبابات بالبيداء، صبابات غنمها و اكتوى بنارها فى طريقه إلى الحج، و هو حج مرات و رأى الظباء الحوالى و العواطل بالبيداء، و ربما كان الحج هو السبب الاول فى تفتح عبقرية الشريف، فقد كانت تمر أشهر و هو يراود الخيال فوق ظهر جمل أو سراة جواد، و نحن نعرف فضل هذه الاسفار على الشعراء، فالشعر يحتاج إلى غناء، و هو لا يتيسر فى كل وقت لمن يعيشون فى الحواضر فوق مهاوى المشكلات السياسية، و المعضلات الاجتماعية، و إنما

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۹۷

يحتاج الشعر إلى فراغ من هموم العقل ليستطيع الشاعر أن يعاقر الغناء، و كذلك يمكن القول بأن الشريف لم يدرك كيف يكون اعتلاج الشوق الا و هو يسامر الخيال فى الصحراء، و قد نظر فرأى ثروة الأدب العربى لم تتكون إلا من أصول الأخيلة البدوية، أخيلة الأعراب الذين اتسع وقتهم للغناء، فمضى يتحدث عن مواطن و معالم و منازل لا يمكن أن تتسع لها جميعا مسالك الطريق إلى الحجاز، و بذلك تحول الحب فى قلبه إلى معركة وجدانية لا تعرف الرسوم و الحدود، و إنما تتميز بما ترى القلوب من أشواظ و أقباس.

و كان للشريف فى ذلك المذهب نجاة من فضول الباغين و العادين، فهو يحنّ إلى ديار لا يراها البغداديون إلا إذا استنجدوا طيف الخيال، و هو يذكر أسماء كان لها فى أذهان الناس صور قدسية، لأن الشعراء الأوائل كانوا خلعوا عليها أفوافا من السحر الحلال.

كان طريق الحج فرصة للتعرف إلى طوائف من الحسن المكنون و كان موسم الحج فرصة للتعرف إلى ألوان من الجمال تفرقت فى بلاد اللّه ثم التقت فى ساحات الحجيج، فكان صاحبنا يطالع كتاب الحسن بعناية و إمعان، و كان كتاب الحسن فى موسم الحج مختلف السطور و الخطوط فكانت فيه سطور شامية، و سطور مصرية و تركية، و سطور مغربية و أندلسية، و كانت فيه كلمات بالحروف اليمنية و الجاوية و الهندية، و كان الشريف من أقدر الناس على فهم الرموز من خطوط الجمال.

و هنا يبدأ الخطر على ذلك القلب الحساس من هنا نعرف كيف كان الشريف كثير الأسى و الحنين، فالذى يشهد مواكب الحسن من مختلف الشعوب فى موسم لا يدوم غير أسابيع لا يستطيع

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۹۸

تزويد العين و القلب بغير الحسرات، و هل تسمح طبيعة المجتمع لأمير الحج أن يقضى ليلة فاجرة أو عفيفة مع امرأة حسناء؟ و كيف و هو مقتول الوقت بشرح آداب السعى و الرمى و الطواف؟

الواقع أن تلك المآزق هى التى أوقدت صدر الشريف، فقد كان حاله شبيها بحال من يقضى أسبوعين يزور فيهما المعرض الدولى فى باريس، فيرى من غرائب الجمال ما يعشى الأبصار و القلوب، ثم يعود و هو آثم الضمير طاهر الثياب.

ان اللغة العربية لا تعرف من الذين سجلوا مواسم الحج بقوة و عنف غير شاعرين: الاول صديقنا عمر بن أبى ربيعة، عطر الحب ذكراه! و الثانى أستاذنا الشريف الرضى، نضر اللّه مثواه! أما عمر بن أبى ربيعة فقد كان مطمئن البال، لأنه كان حجازيا يشاهد من مواسم الحج ما يشاء، و لأنه كان خلع العذار فلم يعد يبالى أين يقع هواه، و لأنه كان اشتهر بالحب حتى كان ظريفات النساء لا يرين تمام الحج إلا بمشاهدة وجهه الجميل.

أما الشريف الرضى فانسان آخر، هو رجل يجىء إلى الحج نائبا عن خليفة المسلمين، هو رجل مسئول لا يليق به اللهو و لا المزاح، و معه من أهل العراق رجال لا تخفى عليهم مآثم العيون، و لعل فيهم من ينافسه أو يعاديه، فهو ينظر إلى الجمال المنثور فوق بساط الحج بقلب فاتك و طرف عفيف، و قد يتفق أحيانا أن تعفّ العيون و تفتك القلوب!! أيها السادة لا تحسبونى أتفلسف على حساب الشريف، فقد قضيت سنين و أنا أحاول فهم هذه الدقائق الوجدانية، و أكاد أجزم بأن الشريف لم يكن

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۹۹

يعرف السكون و لو نزل إلى مغارات الكهوف، لان لذكريات العيون و النحور و الخدود ضجيجا يوقظ الاموات و يصم الاحياء، و هو قد رأى من الوجوه الوسيمة، و سمع من الاصوات الرخيمة، ما يسوق العقلاء إلى إلى حظيرة المجانين.

و هل كان يمكن أن تتوفر تلك الثروة الشعرية لرجل يلهو و يلعب؟

هل كان يمكن أن يشهد الشريف غرائب صنع اللّه فى مواكب الحجيج و هو فى عنفوان الشباب، ثم لا يحفظ فى لوحة الذكريات ألف سورة من سور الصباحة و الجمال؟

معاذ الهوى و الادب أن يكون الشريف الرضى عابثا فى الغرام، و هل فى الغرام عبث؟ و هل كان اللعب بالحب إلا كاللعب بالجمر المتوهج؟ ان العبث بالحب ممكن، و لكنه مستحيل على رجل يعيش بالبيداء، أو يمر بالبيداء، فلاهل البيداء و من يجاور البيداء عيون أسحر و أفتك من عيون الظباء، و إنى لأعجب كيف يعيش إنسان فى العراق ثم لا يعشق و هو يرى عيون المها فى كل مكان و فى كل حين؟

و لكن الشريف صعب عليه أن يجعل العراق مرجع هواه، لأن سياسة المجتمع كانت ترفض ذلك، و لأن الرجل كان فى ذاته شعوبى الهوىّ، فكان فى صدره سهام من مصر و الشام و الحجاز و اليمن و المغرب و الهند و فارس و العراق، كان صورة للفؤاد الممزق الذى تعاورته سهام العيون.

أيها السادة لا تلومونى فى هذا اللف و الدوران، فأنا أحاول أمرا يصعب اليه الوصول، أحاول التصريح بأن الاسماء التى وردت فى شعر الشريف لم

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۰۰

تكن لها فى ذهنه مسميات، أريد أن أصرح بأنه كان يسلك المذاهب الرمزية حين قال:

و لم نر كالعيون ظبا سيوف‌أرقن دما و ما رمن الجفونا

عوائد من تذكر آل ليلى‌كأن لها على قلبى ديونا

فآل ليلى لم يكونوا بالفعل آل ليلى، و لعلهم كانوا آل جميلة أو آل ظمياء!- و (ذو الأثل) فى قوله:

تذكرت أياما بذى الاثل بعد ماتقضى أوانى فى الصبا و أوانها

يطيب أنفاس الرياح ترابهاو يخضلّ من دمع النسائم بانها

لم يكن بالفعل ذا الاثل، و لعله كان محلة من محلات بغداد و كذلك يمكن القول فى (أراك الحمى):

يا أراك الحمى ترانى أراكاأى قلب جنى عليه جناكا

أعطش اللّه كل فرع بنعمان من الماطر الروى و سقاكا

أى نور لناظرىّ إذا مامرّ يوم و ناظرى لا يراكا

لا يرى السوء من رآك مدى الدهر و حيّا الآله من حياكا

و رعى كل ناشق لك دلته صبا طلة على رياكا

أو ما تحدث به عن رامة إذ يقول:

و حبست فى طفل العشية نفحةحبست برامة صحبتى و ركابى

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۰۱ متلملمين على الرحال كأنمامروا ببعض منازل الاحباب

فى ساعة لما التفت إلى الصبابعدت مسافته على الطلاب

و تأرجت منها زلازل ريطتى حتى تعارف طيبها اصحابى

فكأنما استعبقت فارة تاجر و بعثت فضلتها إلى أثوابى

أشكو اليك و من هواك شكايتىو يهون عندك أن أبثك ما بى

يا ماطلى بالدين و هو محبب‌من لى بدائم وعدك الكذاب

فهل تظنون أن (رامهٔ) وردت فى هذا الشعر و هى حتما رامهٔ؟ أم تحسبونها بقعهٔ خياليهٔ طافت بخيال الشريف؟

و كذلك يمكن القول بتزوير المواضع فى هذا القصيد:

خليلىّ هل لى لو ظفرت بنيهٔإلى الجزع من وادى الاراك سبيل

و هل أنا فى الركب اليمانين دالجو أيدى المطايا بالرجال تميل

و فى سرعان الريح لى علمتماشفاء و لو أن النسيم عليل

و فى ذلك السرب الذى تريانهأحم غضيض الناظرين كحيل

شهىّ اللمى عاط إلى الركب جيده‌ختول لأيدى القانصين مطول

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۰۲ و كم فيه من حوّ اللثات كأنماجرى ضرب ما بينها و شمول

علقناك يا ظبى الصريم طماعهٔ أعندك من نيل لنا فتنيل

أنل نائلا أو لا فثنّ بنظرهٔفانى بالاولى الغداهٔ قتيل

و انى إذا اصطكت رقاب مطيكمو ثوّر حاد بالرفاق عجول

أخالف بين الراحتين على الحشاو أنظر أنى ملتم فأميل

أحن و تجزينى على الشوق قسوهٔألا غال ما بينى و بينك غول

و ما ذادنى ذكر الاحبهٔ عن كرىو لكن ليلى بالعراق طويل

و قد يتفق له فى قصيدهٔ واحدهٔ أن يشير إلى عدهٔ معالم فيقول:

يا منشط الشيح و الحوذان من يمن حييت فيك غزالا لا يحيينى

ترى الغريم الذى طال اللزوم به‌فى الحىّ موّل من بعدى فيقضينى

إن الخليّ غداهٔ الجزع عيد به‌إلى ضمير معنى اللب مفتون

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۰۳ لو لا ظباء معاطيل سنحن لنا ما كان يذهل عن عقل و عن دين

قد كان ينجو بنجد من عزيمته‌فعارضته عيون الربرب العين

ماء النقيب و لو مقدار مضمضهٔ شفاء و جدى و غير الماء يشفينى

و نشقهٔ من نسيم البان فاح بهاجنح من الليل تجرى فى العرانين

أسقى دموعى إذا ما بات فى سدف‌صرير أثل بداريّا يغنينى

هيهات بابل من نجد لقد بعدت‌عن المطىّ مرامى ذلك البين

فالشريف فى أمثال هذه الاشعار لا يعنى بالضبط ما يقول، فهو يذكر مواضع و منازل لا يعنيها بالذات، و إنما يجعلها حجازا بينه و بين الواشين ممن يسوءهم أن يصرح بمواقع هواه فى الكرخ و بغداد.

أيها السادهٔ لا تظنوا الشريف كان من المخادعين، لا، و إنما كان من المتجملين فقد كان على جانب من الشجاعهٔ حتى صح له ان يصرح بأن الحسن

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۰۴

يسبيه فى الجنسين فيقول:

و اغيد محسود على نور وجهه‌هجرت سوى لحظ البعيد المجانب

و غيداء قيدت للعناق ملكتهافنزّهت عنها بعد وجد ترائبى

و يقول:

و يا أهيفا رمقته العيونو رفت عليه قلوب الامم

تضرّم خداه حتى عجبتلعارضه كيف لم يضطرم

لئن لم تجد طائعا بالنوالقد جاد عنك الخيال الملم

و مثلك ظالمة المقتلين تلاقى الجمال عليها و تم

لها فى الحشا حافز كلماجرى الدمع دلّ عليه و نمّ

أقول لها و القنا شرّعو يرغم من قومها من رغم

لنا دون خدرك نجوى الزفيرو مجرى الدموع و شكوى الألم

و إلا فقرع صدور القناو وقع الظبا و صليل اللجم

و يقول:

و قد كنت آبى أن أزل لصبوةو أن تملك البيض الحسان عقالى

خميصا من الاشجان لا يوضع الهوىبقلبى فلا اجتاز الغرام ببالى

الى ان تراءى السرب بين غزالةترنح فى ثوب الصبا و غزال

فلما التقينا كنت أول واجد و لما افترقنا كنت آخر سالى

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۰۵ و ليلة وصل بات منجز وعدهحبيبى فيها بعد طول مطال

شفيت بها قلبا أطيل غليلهزمانا فكانت ليلة بليالى

فيا زائرا لو أستطيع فديتهبأهلى على عز القبيل و مالى

و لكن هذه الشجاعة لها حدود يعرفها جيدا من يرشح نفسه لامارة الحج و نقابة الأشراف و مناصب القضاء ثم إمارة المؤمنين.

و من أجل هذا كان تصويره للجوانب الحسية من الجمال تصويرا قليل التهاويل، لا رفث فيه و لا فسوق، فلم يستطع أن يكون خليفة الشاعر الذى قيل فيه: ما عصى اللّه بشعر أكثر مما عصى بشعر عمر بن أبى ربيعة، و لم يتحدث أحد بأنه قرأ غراميات الشريف فدعته نفسه إلى مراجعة الضلال، و إنما يستطيع ألوف من الناس أن يقولوا إن شعر الشريف حبب اليهم الغرام النبيل، و ساقهم إلى تمجيد مواسم العيون فى كرائم الأحاسيس.

لا- تنظروا من الشريف أن يهيجكم بالأوصاف الحسية، فما كان يملك ذلك، و كرمكم يتسع للصفح عنه، و قد عرفتم كيف كان مركزه فى المجتمع بل أعذروه إن اكتفى بالاوصاف التى رددها الشعراء فقال:

لقين قلوبنا بجنود حربتطاعن بالدمالج و البرينا

جلون لنا لآلىء واضحاتأضأن بها الذوائب و القرونا

عهدنا الدر مسكنه أجاجفكيف تبدل الثغب المعينا

أو قال:

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۰۶ عطون بأعناق الظباء و أشرقتوجوه عليها نضرة و نعيم

أمطن سجوفا عن خدود نقيةصفا بشر منها ورق أديم

شفوف على أجسادهن رقيقةو در على لباتهن نظيم

يجلن خلاخيل النضار و ملؤهابوادىّ غيل بينهن عميم

تأطر أغصان الأراك أمالهاو قد رق جلباب الظلام نسيم

غرامى جديد بالديار و أهلهاو عهدى بهاتيك الطلول قديم

يقولون ما أبقيت للعين عبرةفقلت جوى لو تعلمون قديم

أيسمح جفنى بالدموع و أغتدىضنينا بها إنى إذن للئيم

و لو بخلت عينى إذن لعتبتهافكيف و دمع الناظرين كريم

أو قال:

هل ناشد لى بعقيق الحمىغزيلا مرّ على الركب

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۰۷ أفلت من قانصه غرةو عاد بالقلب إلى السرب

و أظمأ القلب إلى مالكلا يحسن العدل على القلب

يعجب من عجبى به فى الهوىو اعجنى منه و من عجبى

أقرب بالود و ينأى بهويلى على بعدك من قربى

منعم يعطف منه الصبالعب الصبا بالغصن الرطب

بلادة النعمة فى طبعهو ربما ناقش فى الحب

أما اتقى اللّه على ضعفهمعذب القلب بلا ذنب

يا ماطلا لى بديون الهوىمن دل عينيك على قلبى!

و فى الأبيات الأخيرة بيت عجيب، و هو:

بلادة النعمة فى طبعهو ربما ناقش فى الحب

و قلما يتنبه الشريف إلى أمثال هذه المعانى، فهو قليل التحليل لأهواء الملاح، و لكنه فى هذا البيت تنبه إلى البلادة التى نراها أحيانا فى الجمال المترف، ففى بعض منازل النعيم ألوان من الجمال تشبه فى مداركها جمال التماثيل، و الذكاء فى أهل الجمال قليل الوجود، و لكن هذه أثرة نفسانية فالشعراء يحبون أن تضج الدنيا لهم حين يظهرون، و هم ينسون أن الجمال لو أعلن شعوره بهم فى جميع الاحايين لانقلبت الدنيا إلى مسارح من العبث و المجون.

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۰۸

وصف السود الملاح

أيها السادة حدثتكم منذ أشهر أن ابن سكرة كان أولع بجارية سوداء فقال فيها أولف الأبيات، و حدثتكم أن الشريف الرضى تأثر ذلك الشاعر فى وصف السود الملاح، و فى هذا المساء يتضح لكم أن الشريف وقف عند حده فى الوصف، فلم يتعد الكلام عن اللون، إذ قال على لسان من سأله مدح جارية سوداء:

لاموا و لو وجدوا وجدى لقد عذرواو ذنب من لام مظلما غير مغتفر

لما تمالوا على عذلى أجبتهمبعز معترف لا ذل معتذر

أهوى السواد برأسى ثم أمقتهفكيف يختلف اللونان فى نظرى

تأبى طلائع بيض ذر شارقهافى عارضى أن تكون البيض من وطرى

إنى علقت سواد اللون بعدكمعلاقة تشمت الظلماء بالقمر

لو لم يكن فوق لون البيض ما رقمتصبغ الليالى على الاجياد و العذر

جعلته لسواد الرأس تذكرةأن تفقد العين يرض القلب بالأثر

و الليل أستر للخالى بلذتهو الصبح أفضح للسارى على غرر

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۰۹ و للفتى فى ظلام الليل معذرةو ما له فى الضحى إن ضل من عذر

لا أجمع الحب للبيض الحسان إلىما بيض الدهر و الايام من شعرى

و كيف يذهب عن قلبى و عن بصرىمن كان مثل سواد القلب و البصر

فما هذا الكلام؟ و ما هذا المنطق؟ ان الشريف فى هذه القصيدة يعبث عبث الاطفال! فهل من الحق ان الرجل يعشق السوداء لان سوادها يذكره بسواد الناصية؟

و هل من الحق ان الرجل يبغض البيضاء لأن بياضها يذكره ببياض الشيب؟

نترك هذا: و ننظر قوله من كلمة ثانية:

أحبك يا لون الشباب لأننىرأيتكما فى القلب و العين توأما

سواد يود البدر لو كان رقعةبجلدته أو شق فى وجهه فما

لبغض عندى الصبح ما كان مشرقاو حبب عندى الليل ما كان مظلما

سكنت سواد القلب إذ كنت شبههفلم أدر من عز من القلب منكما

و ما كان سهم الطرف لولا سوادهليبلغ حبات القلوب إذا رمى

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۱۰ إذا كنت تهوى الظبى ألمى فلا تعبجنونى على الظبى الذى كله لمى

فماذا ترون فى هذه الابيات؟ هل غرست فى قلوبكم الميل إلى السواد فى الملاح؟

و لنسايره مرة ثالثة فننظر كيف يقول:

أذات الطوق لم أقرضك قلبىعلى ضنى به ليضيع دينى

كفاك حلى جيدك أن تحلىبأطواق النضار أو اللجين

سكنت القلب حيث خلقت منهفأنت من الحشا و الناظرين

أحبك ان لونك لون قلبىو إن ألبست لونا غير لونى

عدينى و امطلى و عدى فحسبىو صالا أن أراك و أن ترينى

نظرتك نظرة لما التقيناعلى وجلين من هجر و بين

كأنى قد نظرت سواد قلبىبوجهك ظاهرا لسواد عينى

الحق ان اشعار الشريف فى النساء السود كلها لعب فى لعب، و قد جاء فى الديوان أنه سئل أن يقول فى السواد كما قال ابن الرومى فقال، و السكوت كان أولى و أوجب، لأن الشريف لم يكن يستطيع أن يجارى ابن الرومى فى هذا الميدان، و كيف و ابن الرومى شاعر فاجر لا يضيره أن يذكر الخصائص الاصلية فى المليحة السوداء؟ و هل كان يكفى أن يقال ان السواد أفضل من البياض كما فعل الشريف، و كان من الغافلين؟

إن قصيدة ابن الرومى فى محبوبته السوداء قصيدة فريدة فى الشعر

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۱۱

العربى، و ما كان يجوز للشريف أن يتورط فى معارضته، لأن الفصل فى هذه القضية ما كان يمكن لشاعر يتقنع بالحياء، و مركز الشريف فى المجتمع لم يكن يسمح له بأن يخلع قناع الحياء.

الواقع أن الشريف لم يكن يستطيع أن يفضل لونا على لون، أو جنسا على جنس، لأن هذا التفضيل لا يتيسر إلا لجماعة من الشعراء

سيصيرون فيما يقال من حطب الجحيم.

و الشريف فيما نرجح كان رجلا «طيبا» يصف الجمال بالسماع!

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۱۲

عفاف الشريف

أيها السادة رأيتم ما كان يحيط بشاعرنا من المحرجات، و رأيتم انه حرم نفسه أعظم لذة يتغنى بها المشببون، فلم يصف مراتع الانس، و ملاعب الطيش، و لم يتحدث عن أسرار الهوى فى الكرخ أو بغداد.

و قد آن أن تعرفوا بوضوح أن شاعرنا لم يكن له بدّ من الحديث عن العفاف، العفاف المطبوع أو العفاف المصنوع، و من المؤكد عندى ان الشريف كان من المتجملين، و لم يكن من المنافقين، فهو قد عشق بالفعل، و كيف لا يعشق و العراق بفطرته مفطور على تقلب القلوب؟

ألم تروا كيف يتلاعب جوه من صحو إلى غيم، و من برد إلى قيظ؟ ألم تروا إلى أهله كيف يغضبون و يبتسمون فى لحظة واحدة؟ ألم تلاحظوا ان العراق تفرد بمزية غريبة هى الإسراف، ففيه ظهر أعاظم النساك، و فيه نبغ أكابر الفساق؟

إن هذه الطبيعة المزدوجة هى الشاهد على تقلب القلوب، و القلوب لا تتقلب إلا بقوة الاحساس، و الاحساس القوى هو منبع العشق، و العشق على جموحه هو أساس النظام فى حياة الرجال.

و كان من حظ الشريف ان يكون صورة طريفة لذلك الازدواج فلم يكن من النساك و لا من الفساق، و إنما كان قلبه مسرحا لتقلب الاجواء العراقية، فكان فاسق النظر عفيف الخطرات، خطرات القلب

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۱۳

و الروح.

و لم يكن عفاف الشريف بابا من عفاف الضعفاء اصحاب الحب العذرى فالعذريون فى حقيقة الامر كانوا مرضى لا يحسنون صيال الفحول، اما الشريف فكان رجلا قويا، و كانت فحولته تدعوه إلى التفكير فى شريف المصاهرات، و هو قد تزوج بالفعل و أنجب، فلم يبق إلا ان يكون عفافه بابا من التصون ليسلم من ألسنة السفهاء، و التصون هو فى ذاته قوة، لأن كبح النفس يحتاج إلى نضال، و قد ناضل صاحبنا فى سبيل شرفه فلم يمت إلا و هو مرموق الجلال.

أيها السادة لا تحسبونى أتفلسف، فأنا فى هذه المحاضرات من خدام الحقائق و حولى عيون و ارصاد تصدنى عن شطط الخيال.

و قد تأملت ما قال الشريف فى العفاف مرات و مرات قبل أن أدوّن الكلام الذى تسمعون، و صح عندى أن غراميات ذلك الرجل كانت عراكا فى عراك.

هو عفيف، و لكن حديثه عن عفافه يشعرنا بأنه كان يجاهد هواه جهاد المستميت، و انظروا كيف يقول:

تذكرت أياما بذى الاثل بعد ماتقضى أوانى فى الصبا و أوانها

يطيب انفاس الرياح ترابهاو يخضلّ من دمع الغمائم بانها

و لما عطفت الناظرين بلفتةالى الدار عبرة العين شانها

ليالى تثنينى عواطف صبوتىإلى بدويات تثنى لداتها

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۱۴ و لا لذة إلا الحديث كأنهلآل على جيداء واه جمانها

عفاف كما شاء الآله يسرنىو إن سىء منه بكرها و عوانها

فما رأيكم فى هذه الأبيات؟ أعلنوا رأيكم بصراحة، فليس بينى و بينكم حجاب، ألا ترونها جميعا قوية، ألا هذه الشطرة:

عفاف كما شاء الآله يسرنى و إنما أستضعف هذه الشطرة لانى أعتقد أن مشيئة اللّه أقحمت إقحاما فى هذه الأبيات مراعاة لأهواء الجهلاء! و هذه الابيات:

يشكو الحبيب إلىّ شدة شوقهو أنا المشوق و ما يبين جنانى

و إذا هممت بمن أحب أمالنىحصر يعوق و عفة تنهانى

للّه ما أغضت عليه جوانحىو الشوق تحت حجاب قلبى عان

فهل ترون فيها إلا اعتلاجا فى اعتلاج؟ هل ترون إلا رجلا يخشى ثورة المجتمع على من يرشح نفسه لأعظم المناصب الدينية؟ و هذه الأبيات:

و لما أبى الأظعان إلا فراقناو للبين وعد ليس فيه كذاب

رجعت و دمعى جازع من تجلدىيروم نزالا للجوى فيهاب

و أثقل محمول على العين دمعهاإذا بان أحباب و عزّ اياب

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۱۵ فمن كان هذا الوجد يعمر قلبهفقلبى من داء الغرام خراب

و من لعبت بيض الثغور بعقلهفعندى أحر الباردين رضاب

يعف عن الفحشاء ذيلى كأنماعليه نطاق دونها و حجاب

إذا لم أنل من بلدة ما أريدهفما سرنى أن البلاد رحاب

فهل ترون هذه الأبيات إلا صورة من صور النضال بين المجد و الحب؟

ان الشاعر يصرح باللوعة، ثم يثور على هواه فيعلن أن قلبه من داء الغرام خراب، ليصح له أن يقول إن المجد غاية مناه، و ليس من الكثير على مثله أن يدوس الهوى فى سبيل المجد، فتلك ثورة نفسية عرفها أحرار الرجال و لكن من الواجب أن نتذكر هذا لنعرف أن صاحبنا لم يؤثر العفاف و هو طائع، و إنما اختار العفاف لأنه أصلح الصفات لبلوغه من المجد ما يشتهيه و للمجد شهوة أقوى و أفحل من شهوة الجمال.

ثم اسمعوا الابيات الآتية فهى أغرب:

و أبقت لى الأيام حزما و فطنةو وقرن جأشى بالامور الغرائب

توزع لحمى فى عواجم جمةو بان على جنبى و سم التجارب

و أرض بها بعت الصبابة و الصباو ناهض قلبى الهم من كل جانب

و زور من الأضغان نحوى كأنمايلاقيهم شخصى لقاء المحارب

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۱۶ أناسيهم بغضاءهم غير غافلو أسألهم معروفهم غير راغب

و إنى لأطويهم على عظم دائهمو أقعد منهم بين رام و جالب

ألا رب مجد قد ضرحت قذاته و كان على الأيام جم الشوائب

و سر كتمت الناس حتى كتمتهضلوعى و لم أطلع عليه مآربى

و أغيد محسود على نور وجههجرت سوى لحظ البعيد المجانب

و غيداء قيدت للعناق ملكتهافنزهت عنها بعد وجد ترائبى

و ما عفة الانسان إلا غباوةإذا لم يكافح داء وجد مغالب

ألا ترون قوة النفس فى هذا الشعر الغريب؟ ألا تشهدون عثير المعركة بين العقل و القلب؟ ان الرجل يصرح بأن العفة ضرب من الغباوة و الجهل و لا يرى لها أية قيمة إلا إن كانت بابا من الكفاح، الكفاح ضد أدواء الوجد المغالب. و الشاعر بهذه الوثبة الشعرية يؤرخ قلبه

أعظم تأريخ، فهو يدرك نور الوجوه- و لبعض الوجوه أنوار- و يدرك حلاوة العناق- و فى بعض العناق حلاوة تزلزل الجبال- و لكنه بجانب ذلك يتذكر مطالبه العالية فى ساجات المجد، و المجد فيه نور، و فيه رضاب، و فيه عناق، و فيه كل ما تشتهى أنفس الفحول، و هل يشقى الناس أنفسهم فى سبيل المجد إلا إذا رأوه أروع و أفتن و أملح و أعذب من جميع ما تغريهم به بوارق الحسن الفتان؟

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۱۷

و لكن هذا الجبار المتمرد على الحب قد يتفق له أن يرق فيقول:

يقر بعينى أن أرى لك منزلابنعمان يزكو تربه و يطيب

و أرضا بنوّار الاقاحى صقيلةتردد فيها شمال و جنوب

و أى حبيب غيب النأى شخصهو حال زمان دونه و خطوب

تطالت الاعلام بينى و بينهو أصبح نائى الدار و هو قريب

لك اللّه من مطلولة القلب بالهوىقتيلة شوق و الحبيب قريب

أقل سلامى إن رأيتك خيفةو أعرض كيما لا يقال مريب

و أطرق و العينان يومض لحظهااليك و ما بين الضلوع وجيب

يقولون مشغوف الفؤاد مروّعو مشغوفة تدعى به فتجيب

و ما علموا أنا على غير ريبةبقاء الليالى نغتدى و نؤوب

عفافى من دون التقية زاجزو صونك من دون الرقيب رقيب

عشقت و مالى يعلم اللّه حاجةسوى نظرى و العاشقون ضروب

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۱۸ و ما لى يا لمياء بالشعر طائلسوى أن أشعارى عليك نسيب

أحبك حبا لو جزيت ببعضهأطاعك منى قائد و جنيب

و فى القلب داء فى يديك دواؤهألا رب داء لا يراه طبيب

و هذه قطعة تصافح القلوب، و لكن ماذا صنع صاحبنا الشريف؟

لقد ترفق بمحبوبته فمنحها شطرا من الفضل إذ جعل تصونها أعنف الرقباء، و هذا معنى إنسانى نبيل، و هل ينكر منصف أن من النساء من يجاهدن الهوى كما يجاهده أعفاء الرجال؟ هل ينكر منصف أن هناك نساء نعاشرهن طوال السنين و فى قلوبنا وجد مشبوب ثم نكتفى منهن بحلاوة الانس و بشاشة الحديث؟

لا- تقولوا ان الشريف يتكلف العفاف، فان حاله يختلف عن حال أبى نواس و أمثال أبى نواس ممن لا يرون الوجوه الصباح إلا فى المواخير، فان التبذل فى وصف ليالى الانس يقبل من شاعر لا يرى وجه الدنيا إلا فى سراديب الحانات، أما الشعراء الذين تسمح لهم مقاماتهم فى المجتمع بأن يكونوا على صلات مع كرائم «العائلات» فلهم شأن آخر، لانهم يدخلون بيوتا لها قدسية المحاريب، و ليس من التزيد أن أقول انى عرفت هذا النوع من الحياة فرأيته أغرب الالوان فى عالم الشعر و الخيال، و له لذة أنضر و أعمق من لذة العبث و المجون، و لكن أين من يدرك كرائم المعانى؟

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۱۹

ثم اسمعوا أيضا كيف يقول:

و للّه قلبى ما أرق على الهوىو أصبى إلى لثم الخدود النواضر

يحن إلى ما تضمن الخمر و الحلى و يصدف عما فى ضمان المآزر

و لما غدونا للوداع و نقرتصروف النوى دون الخليط المجاور

عنيت من القلب العفيف بعاذل و من خدع الشوق السفيه بعاذر

عشية لا عرس الوفاء بمرملدينا و لا أم الصفاء بعاقر

و من لم ينل أطماعه من حبيبهرضى غير راض بالخيال المزاور

و كنت أذود الدمع إلا أقلهلسقيا حمى من بعد بينك داثر

و إنى لا أرضى إذا ما تحملتاليه مرابيع السحاب المواطر

فهل رأيتم أدق من هذا الوصف؟ و هل رأيتم أظرف من هذا العاشق المنافق؟ ما هو الفرق بين ما يضمر الخمار، و ما يضمن الازار، يا مولانا الشريف؟

الفرق بعيد جدا، فالحنين إلى ما يضمن الخمار هو من النوازع التى يتفرد بها أصحاب الاذواق الرقاق، أما التطلع إلى ما يضمن الازار فهو من شهوات الاذواق الغلاظ! ثم انظروا صورة النزاع بين العقل و القلب، انظروا كيف يبتلى

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۲۰

الرجل بقوتين: قوة العاذر من الشوق السفيه، و قوة العاذل من القلب العفيف لقد سمعتم بما سماه القدماء خيال البحترى، و لعلكم قرأتم تفصيل ذلك فى كتاب (مدامع العشاق) و لكن ألا ترون أن الشريف بلغ الغاية فى وصف تفاهة الفرح بالطيف حين قال:

و من لم ينل أطماعه من حبيبهرضى غير راض بالخيال المزاور

تأملوا عبارة (رضى غير راض) و بعد هذه القطعة أبيات أرى إمتاع أسماعكم بها، فهى عندى من و ثبات الخيال.

كلينى إلى ليل كأن نجومهتغازل طرفى عن عيون الجآذر

أمرّ بدار منك مشجوجة الثرىبمجرى نسيم الآنسات الغرائر

تمر عليها الريح و هى كأنهاتلفت فى أعطاف تلك المقاصر

ألا ترون يا أدباء بغداد كيف يزعم شاعركم ان للطبيعة احاسيس؟

أ لا ترون كيف يدعى ان الرياح تمر بتلك الدار فتتلفت إلى ما فيها من مقاصير؟

ليت الوقت يسمح بأسماعكم فقرات من كتاب (التصوف الاسلامى) لتروا بقوة المنطق ان الشريف لم يكن عابثا، و إنما كان يحس ما سيقوله انصار القول بوحدة الوجود بعد مئات السنين. و هل يعقل أن تمر الريح بالوادى الجديب، كما تمر بالوادى الخصيب؟ هل يعقل أن تمر النسمات

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۲۱

بوجوه اهل البلادة كما تمر بوجوه ارباب القلوب؟

و هل اختلت الموازين فى الدنيا حتى نصدق أن الارض التى تدوسها البهائم كالارض التى تتخطر عليها أقدام الظباء؟

نترك هذه الفلسفة الوجدانية، و ننتقل إلى قول الشريف:

يا وقفة بوراء الليل اعهدهاكانت نتيجة صبر عاقر الوطر

و الوجد يغصبنى قلبا اضن بهو الدمع يمنع عينى لذة النظر

طرقتهم و المطايا يستراب بهاو الليل يرمقنى بالانجم الزهر

اصانع الكلب ان يبدى عقيرته و الحىّ منى إذا اغفوا على غرر

و فى الخباء الذى هام الفؤاد بهنجلاء من اعين الغزلان لا البقر

ابرزتها فتخاصرنا مباعدةعن الخيام نعفى الخطو بالازر

ثم انثنيت و لم ادنس سوى عبق‌على جنوبى لريا بردها العطر

و فى هذه القطعة الفاظ طريفة كعبارة (عاقر الوطر) و نعوذ باللّه من الوطر العاقر، و نسأله السلامة من عقم الامانى! و فيها ايضا سياسة يحسنها المحبون، و هى مصانعة الكلاب، و لا بدّ لكل عاشق من مصانعة الكلاب، بل لا بد لكل رجل من مصانعة الكلاب! و لكنى احب ان انوه بتلك المخاصرة، فما يليق ان يعيش صاحبنا عيش المحروم فى جميع الاحوال، و هل يتفق العفاف مع المخاصرة؟ تلك إحدى المعضلات؟

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۲۲

ان العفاف هنا ليس صورة للعفاف الذى يمضغه ادعياء الدين، و إنما هو عفاف الشاعر الذى يرى ما دون الرذيلة مباحا فى مباح، و يكفى لغفر ذنوبه ان يمتعنا بهذا البيت:

ثم انثنيت و لم ادنس سوى عبق‌على جنوبى لريا بردها العطر

اللّه أكبر! ما هذا السحر يا اظرف الفاسقين! ثم ماذا؟ ثم يقول فى مخاطبة الظباء:

انا من علمتن الغداة نقيةازرى و ضامنة العفاف مآزرى

فاعرفن كيف شمائلى و ضرائبىو انظرن كيف مناقبى و مآثرى

كمعاقد الجبل الاشم معاقدىو مجاور البيت الحرام مجاورى

و كان يمكن أن نعيب عليه النص على المآزر فى هذا الكلام النفيس، و لكن ماذا يصنع و الناس فى سرهم و جهرهم يطوفون حول ذلك الجمر المدفون! و حسبه من الشرف ان يقول:

و مجاور البيت الحرام مجاورى فهذا كلام لا يقوله إلا الفتيان الشرفاء، و فيه صور لا تخفى على اللبيب.

ثم يقول:

و كم ليلة بتنا على غير ريبةعلينا عيون للنهى و مسامع

نفض حديثا عن ختام مودةمعاقلنا احشاؤنا و الاضالع

يكاد غراب الليل عند حديثنايطير ارتياحا و هو فى الوكر واقع

خلونا فكانت عفة لا تعففو قد رفعت فى الحىّ عنا الموانع

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۲۳ سلوا مضجعى عنى و عنها فانارضينا بما يخبرن عنا المضاجع

فالى من توجه هذا الكلام ايها الفاجر العفيف؟

و ما رأيك إذا خبرناك اننا سألنا تلك المضاجع فأنبأتنا ان اكاذيبك الطريفة لن تمنع من دخولك الجنة مع الصادقين؟! ايها السادة تذكروا ان الشريف شاعر، و للشعراء اضاليل افضل من الهداية و اكاذيب اشرف من الصدق، و عبث ماجن هو فى جوهره انضر و اطيب من الجد الرزين.

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۲۴

بكاء الشباب بكاء الشباب بكاء الشباب

حجازيات الشريف

ايها السادة سمعتم فيما سلف ان الشريف الرضى تفتحت عبقريته بفضل طريق الحج، و موسم الحج، و رأيتم أقباسا من جذوات وجده المشبوب.

و نريد اليوم ان نتكلم بالتفصيل عن قصائده الحجازيات.

و لى مع تلك الحجازيات تاريخ، فقد القيت عنها محاضرة فى نادى الموظفين بالقاهرة منذ سنين، ثم كتبت عنها بعد ذلك فصولا مطولة فى جريدة البلاغ، و قد حاولت إحضار تلك الفصول من القاهرة، و لكنى لم استطع. فأنا اكتبها للمرة الثالثة، و ذلك عناء اتقبله فى سبيل الشاعر البكاء الذى خلد مواسم العيون و القلوب.

ايها السادة ان أسلافنا لم يخطئوا حين جعلوا حجازيات الشريف من فرائد الشعر العربى، فهى قصائد تفردت بغرائب من الاحاسيس، و الشريف فى هذه القصائد من فحول الابتكار و الابداع، فهو لا يكرر ما سبق اليه الشعراء، و إنما تتفجر عبقريته عن معان طريفة تشوق الاذواق و العقول.

و الشريف فى الحجازيات كأبى نواس فى الخمريات، فإن أبا نواس ألح إلحاحا شديدا فى وصف الصهباء، و كانت لجاجته فى وصفها خليقة بأن تقذف به فى مهاوى الاسفاف، و لكنه مع ذلك تماسك و ظل دائما من المبدعين.

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۲۵

و كذلك الشريف، فهو لم يكتف فى وصف موسم الحج بقصيدة أو قصيدتين أو ثلاث قصائد أو سبع قصائد، و إنما قال و أعاد، ثم قال و أعاد حتى بلغت قصائده فى الحنين إلى موسم الحج نحو الاربعين.

و أنتم تدركون أيها السادة خطر هذا الاسراف، فقد كان كفيلا بأن يسوقه إلى مدارج الابتذال، و لكن الشاعر ظل قويا، و ظلت معانيه جديدة على الزمان، فهو فى حجازياته قادر على أن يبهر بيرون وجوت و ميسيه، و من اليهم من الشعراء الذين جعلوا الحب شريعة إنسانية لها من الشعر فرقان و انجيل.

و انى لأخشى أيها السادة ان اكون بهذه الاشارة ظلمت الشريف فالشعراء العشاق فى فرنسا و انجلترا و ألمانيا و النمسا و إيطاليا عاشوا فى بلاد لا- تدعى أنها تحرس الدين و التقاليد فى الاندية الادبية، أعنى أنهم نظموا قصائد الحب فى بيئات يغلب عليها المرح، و يصرفها الفتون، فالشاعر كانت تسوقه المغريات إلى التشبيب، و الملاح اللائى يدرن الاندية الادبية إدارة الكؤوس كنّ يطلبن بالقول أو بوحى الملاحظ أن تكون لهن سيرة كالجدائل المعطرة فى قصائد الشعراء، فلم يكن من المستغرب و لا المستبعد أن تتسع مذاهب القول فى وصف الوسامة و الجمال.

أما الشريف فكان ينظم الحجازيات فى مواطن لا يجوز فيها رفث و لا فسوق، و ينشدها بين أقوام يصطحبون و يغتبقون بالتسبيح و التكبير و التهليل.

فأنصفوا الحق أيها السادة و اعترفوا بأن الحجازيات ما كانت تصدر عن شاعر يعيش فى بيئة مثقلة بالتحرج و التعفف و التنسك إلا إن كانت جذوات صدره أقوى و أعنف من أن تطفئها شآبيب التحنف بين زمزم

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۲۶

و الحطيم.

أنتم اليوم فى عصر يسمونه (القرن العشرين) و يزعمون أنه حرر المشاعر و القلوب من رباق التقاليد، فهل فيكم شاعر يملك من الجرأة ما كان يملك الشريف منذ نحو ألف نسمة، يوم كانت قالة السوء تصرف رجلا مثله عن ولاية المظالم و إمارة الحج و نقابة الاشراف؟ هل يستطيع طلعت حرب و هو رجل حر الذهن و العقل أن يضيف إلى الشريط السينمائى: شريط الحج، منظرا يمثل موقعة غرامية فى سفح عرفات؟ انه لو فعل لقامت قيامة المتزمتين فى مصر و المغرب و الشام و اليمن و الحجاز و العراق و قال القائلون انها دسيسة يراد بها انتهاك المناسك، و الغض من هيبة الاسلام.

تصوروا ايها السادة أن وصف الحسن الذى ينثر أيام الصيف على الشواطىء المصرية يضيف الشاعر أو الكاتب إلى عصبة الماجنين، و إن صح لأحد شعرائنا أن يقول فى شاطىء الاسكندرية:

رعاه الحب من شط جميل‌خفيف الروح مصقول أنيق

بهىّ الرمل تحسبه سجوفامطرّزة بحبات العقيق

أطوف به فيغلبنى خشوعى كأنى طفت بالبيت العتيق

أيا حرم الظباء أنرت روحى بمشكاة من الحسن الرفيق

و لو كشفت غشاوتهم لقالواصبايا الخلد تسبح فى الرحيق

إنه لا مفر من الاعتراف بأن الشريف كان مثال الجرأة و الشجاعة حين استطاع أن يؤرخ هواه فى أيام الحج بقصائده الحجازيات، و هذه الجرأة كانت من فيض الشاعرية، فان الشاعر الحق أشجع الناس، و أقدرهم على الاستهانة بالمكاره و الحتوف.

قد تقولون: ان عمر بن أبى ربيعة سبقه إلى هذه الجرأة، و نجيب بأن

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۲۷

الفرق بعيد بين الشاعرين: فعمر بن أبى ربيعة نشأ فى صدر الاسلام يوم كان دينا سمحا لا تثقله الاوهام التى أثقلته فيما بعد حين حمل أوزار الواغلين الذين نقلوا اليه أوضار التزمت و الجمود، فيما ورثوا عن اصولهم فى الشرق أو فى الغرب، من بلادات المتزهدين، و غباوات المتقشفين، و رقاعات المتنسكين، كان عمر بن أبى ربيعة يعيش بين أمراء و خلفاء كانوا فى حقيقة الامر من أشراف الفتيان، و كان الناسكون لعهده رجالا ظرفاء لا ينكرون حقوق الافئدة و القلوب.

أما الشريف فعاش فى الصدر الثانى من القرن الرابع بعد أن حمل الاسلام ما حمل من عسير التقاليد، و بعد أن كانت بغداد قد عرفت ألوانا من التزهد و التقشف تجعل الغزل فى مواسم الحج ضربا من اللهو و الفجور مع استثناء الظرفاء من الصوفيين العراقيين الذين أطفنا بأخبارهم فى كتاب (التصوف الاسلامى).

ذلك فرق بين العصرين: عصر صديقنا عمر و عصر استاذنا الشريف.

و هناك فرق بين الرجلين: فعمر بن أبى ربيعة كان فى يأس من المجد السياسى، فلم يكن ينتظر أبدا ان يكون له مجال فى سياسة الدولة الاسلامية التى استبد بها الامويون، و كذلك اقبل على دنياه ينهب منها ما تسمح به مواسم الحج من التطلع إلى الخدود النواضر، و العيون الفواتك، و يخلق لنفسه آفاقا من السيطرة الوجدانية تعوض ما فاته من السيطرة السياسية و الانسان حيوان لئيم يهمه أن يسيطر فى أى ميدان.

أما الشريف فكان له حال غير تلك الحال، كان الشريف علويا، و العلويون كانت لهم مطامع سياسية توارثوها من جيل إلى جيل، و الذى

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۲۸

يراجع ما فصلناه فى كتاب (المدائح النبوية) يعرف ان اولئك القوم كانوا بلغوا غاية الغايات فى رياضة أبنائهم و أحفادهم و أسباطهم على الايمان بأنهم مظلومون و ان الدنيا لا تصلح إلا إن رجع اليهم الامر فى قيادة المسلمين، و قد وصلوا فى ذلك إلى غاية لا تحتمل و لا تطاق فكانوا يتصورون ان الدنيا- إن لم يسوسوها- ستظل ظلمات من فوقها ظلمات.

و كان الشريف الرضى يرى نفسه أهلا للخلافة الاسلامية، و ساعده على ذلك مركز أبيه فى المجتمع، و تشرفه بالانتساب إلى على بن أبى طالب و كان لعلى بن أبى طالب سلطة روحية هائلة فى تلك العهود، و يكفى أن نحدثكم ان الخليفة القادر أذاع فى الناس انه رأى فى منامه نهر الصليق قد اتسع حتى صار عرض دجلة دفعات و انه سار على حافته فرأى عليه قنطرة عظيمة فأراد أن يعبر فانبثق النهر من حوله فرأى شخصا يناديه اتريد ان تعبر؟ فقال: نعم، فمد يده حتى وصلت اليه و اخذه فعبر به و هاله الفعل فسأل من يكون هذا المتفضل بنجاته؟ فقال صاحب اليد الكريمة:

علىّ بن أبى طالب، هذا الامر صائر اليك، و يطول عمرك فيه، فأحسن إلى ولدى و شيعتى.

و هذه الرؤيا الصحيحة او المخترعة تشهد بأن العلويين فى ذلك العهد كان ينصب لهم ميزان، و كان الخلفاء العباسيون يرون من

السياسة ان يداروهم بالثناء على جدهم امير المؤمنين.

و كانت الظروف تسمح بعض السماح بأن يتطلع الشريف إلى الخلافة فقد كان له فى ذات نفسه خصائص ترشحه لذلك المنصب: كان من اسباط الرسول، و كان متفوقا فى العلوم النقلية و العقلية، و كان جميل الوجه جدا، بحيث استطاع بعض اساتذته ان يقول انه لم يستبح النظر إلى وجهه

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۲۹

إلا بعد ان اخضر شاربه و نبت عارضاه، و الجمال كان من الصفات المأثورة عن الرجل الذى اعز العرب فى بقاع الارض، و خلد لغتهم على وجه الزمان الرجل الذى اسمه احمد صلّى اللّه عليه و سلّم، و حشرنا فى زمرة اصفيائه يوم يقوم الحساب.

كان ذلك ايها السادة حال الشريف، فتصوروا كيف جاز لرجل له مثل تلك الامانى ان يفضح نفسه بين الناس فيصرح بأنه من عبيد النحور و الخدود و العيون؟

ان ذلك لا يقع إلا فى حالين اثنين: حال الشعر و حال الجنون.

و ما اعتقد ان الشريف كان من المجانين، فلم يبق إلا أن يكون من الشعراء.

و ما ادعوكم الى الخروج على تقاليد المجتمع لتعربدوا فى معاقرة الحسن عربدة الشريف، لا، و إنما ارجوكم ان ترحموه و تعطفوا عليه، فهو من سلالة قلّ فيها الشعر جدا، حتى صار من كنايات العرب ان يقال:

فلان من نسل الرسول، و يعنون انه لا يصلح للانتساب الى الشعراء، و ما كان من الحق ان ينسلخ اسباط الرسول من الشاعرية، و انما السبب فى ذلك ان القبائل التى كانت ترشح نفسها للملك لم تكن ترى الشعر مما يليق بالملوك و الخلفاء، و ذلك باب من القول فصلته فى كتاب (النثر الفنى) فلا اعود اليه فى هذا المساء، و يكفى ان تذكروا ان الشاعرية لا تزكو إلا إن عاش الشاعر عيش البلبل يتنقل كيف يشاء بين أماليد الافانين، و التأهب للملك يوجب ان يصير الرجل من عبيد المجتمع، فيعيش كرئيس الجمهورية الفرنسية لا يلقى ايۀ كلمۀ فى أى محفل إلا بعد استئذان.

و اريد ايها السادة ان اقول ان الشريف الرضى لم يكن يصلح لغير

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۳۰

الشعر، و اخشى ان اقول ان امارته للحج لم تكن إلا منحۀ يتفضل بها عليه الخلفاء العباسيون ليكون الفتى الذى اسمه الشريف الرضى خليفۀ للشيخ الذى اسمه ابو احمد الموسوى.

و لكن شاعرنا جمع بين المزيتين، فكان أميرا للحج، اميرا فقيها يقدم إلى الحجيج العراقى ما يبصره بالمشاعر و المناسك، و كان شاعرا يتلهف على الحسن تلهف الظامىء إلى الورد الممنوع.

فان اختال علينا اهل الادب و الذوق من اللاتينيين و السكسونيين و الجرمانيين بأن عندهم قسيسين و رهبانا يدركون اسرار الادب الرفيع فسنقول ان عندنا «شيخا» يؤدى الفرائض و النوافل و يقرأ الاوراد، و هو مع ذلك شاعر حساس يفوق جوت و بيرون و لا مرتين.

فان سألوا: و من هو ذلك الشيخ الشاعر؟

قلنا هو الشيخ الذى ذهب لأداء فريضۀ الحج فبهرته الصباحۀ فقال:

نظرتك نظرۀ بالخيف كانت‌جلاء العين منى بل قذاها

و لم يك غير موقفنا فطارت‌بكل قبيلۀ منا نواها

فواها كيف تجمعنا الليالى‌و آها من تفرقنا و آها

و اقسم بالوقوف على ألال‌و من شهد الجمار و من رماها

و اركان العتيق و بانييهاو زمزم و المقام و من سقاها

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۳۱ لأنت النفس خالصة فان لم‌تكونيها فأنت إذن مناها

نظرت ببطن مكة ام خشف‌تبغم و هى ناشدة طلاها

و اعجبنى ملامح منك فيهافقلت اخا القرينة ام تراها

فلولا اننى رجل حرام‌ضممت قرونها و لثمت فاها

تلكم إحدى طلائع الحجازيات، فلنتناولها بشيء من التحليل و لنبدأ بهذين البيتين:

و لم يك غير موقفنا فطارت‌بكل قبيلة منا نواها

فواها كيف تجمعنا الليالى‌و آها من تفرقنا و آها

فذلكم شاعر يطوف بالبيت فتقع عينه على غرائب الحسن، ثم يكشف الواقع غشاوة هواه، إذ يعرف انها لحظة لن تعود. و من الذى يضمن للشاعر ان يسمح الزمان اللعوب بأن يردّ اليه هوى قلبه بعد عام او عامين؟ و هل يمكن ان تسمح ظروف العيش لانسانة هاجرت فى سبيل الحج من الاندلس او المغرب او مصر او الشام ان تعود لتلك المواقف مرة ثانية؟ من الذى يضمن لك حين تقع عينك على وجه جميل فى بلد غريب ان تجود الايام برؤيته مرة ثانية و لو فى عرض الطريق؟ و هل تعرف المقادير قلب الشاعر فتعطف على جواه؟

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۳۲

إن الشريف يؤلف المقاطع من قلبه الممزّق و هو يقول:

فواها كيف تجمعنا الليالى‌و آها من تفرقنا و آها

و إن حاله لشبيه بحال صديق أعرفه بعض المعرفة، و لعله يلبس إهابى، و ربما كانت معرفتى بذلك الصديق هى السر فى اهتمامى بحجازيات الشريف و كان ذلك الصديق رأى فتاة ألمانية بقطار المترو فى باريس، فدعاها إلى معاقرة الحديث ساعة أو ساعتين، فاعتذرت بأنها على سفر، ثم قالت و هى تواسيه:

Onseverra, peutetre!

و قد ركب صديقنا المترو ألف مرة، و حج باريس مرات، و لم يسمح الزمن بأن تقع عينه مرة ثانية على تلك العيون، فواحر قلباه! و اتفق لذلك الصديق أن يدعوه فريق من أصفيائه إلى زيارة نورمنديا فى كل عام مرة، و لكن الزيارة الاولى لبساتين التفاح كانت فى الوقت الذى فرغ فيه من دراسته بالسوربون، فكانت أيامه بتلك البساتين أول العهد و آخر العهد. و قد رجع إلى فرنسة بعد ذلك، و لكنه وا أسفاه كان يصل بعد (مايو) شهر الأزهار و الرياحين، و قد علمت ان شواغله فى دنياه لن تسمح له أبدا برؤية نورمنديا فى شهر مايو، إلا أن يصبح من تقاليد الحكومات أن ترسل البعثات لتثقيف الذوق و الوجدان! يكفى هذا فى الطواف حول هذين البيتين، و نترك لأذواقكم درس الحسن فى بقية القطعة، و ننتقل إلى الأبيات الآتية و قد قالها فى مدينة الرسول فى المحرم سنة ۳۹۴:

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۳۳ و ما كنت أدرى الحب حتى تعرضت‌عيون ظباء بالمدينة عين

فواللّه ما أدرى الغداة رميناعن النبع أم عن أعين و جفون

بكل حشا منا رميّة نابل‌قوىّ على الأحشاء غير أمين

جلون الحداق النجل و هى سقامناو وارين أجيادا و سود قرون

و لو لا العيون النجل ما قادنا الهوى‌لكل لبان واضح و جبين

يلجلجن قضبان البشام عشية‌على ثغب من ريقهن معين

ترى بردا يعدى إلى القلب برده‌فينقع من قبل المذاق بحين

تماسكت لما خالط اللب لحظهاو قد جن منه القلب أى جنون

و ما كان إلا وقفة ثم لم تدعدواعى النوى منهن غير ظنون

نصصت المطايا أبتغى رشد مذهبىفأقلعن عنى و الغواية دونى

فما رأيكم فى هـذه الابيات؟ قـد تقولون إن فيها معانى مألوفة، و هو كذلك، و لكن هل تغيب عنكم قوة إحساسه بالمألوف من تلك المعانى؟

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۳۴

أرجوكم أن ترجعوا إلى الفصل الذى أنشأناه عن المبتذل و الطريف فى الجزء الأول من كتاب النثر الفنى لتعرفوا بوضوح كيف يكون المعنى مألوفا ثم يكون صاحبه أشعر الناس لأنه أحسّه أقوى إحساس.

و من الذى ينكر قوة الشاعرية فى هذا البيت:

يلجلجن قضبان البشام عشيةعلى ثغب من ريقهن معين

من الذى ينكر أن كلمة (يلجلجن) على ثقلها وقعت أجمل موقع فى هذا البيت؟

و من الذى ينكر طرافة الخيال فى هذا البيت:

ترى بردا يعدى إلى القلب بردهفينقع من قبل المذاق بحين

و المهم عندى هو النص على عبقرية السحر فى هذا البيت:

و ما كان إلا وقفة ثم لم تدعدواعى النوى منهن غير ظنون

المهم ان تتصوروا مبلغ إحساسه بالوحشة لفقد الجمال، و ان تذكروا كيف يتشوق و يلتاع.

و هذه الأبيات:

تذكرت بين المأزمين إلى منىغزالا رمى قلبى و راح سليما

لئن كنت أستحلى مواقع نبلهفانى ألاقى غبهن أليما

أصاب حراما ينشد الاجر حسبةفما عاد مأجورا و عاد أثيما

فلو كان قلبى بارئا ما ألمتهو لكن أسقاما أصبن سقيما

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۳۵ إذا بلّ من داء أعادت له المهانكاسا إذا ما عاد عاد مقيما

يظنوننى استطرفت داء من الهوىو هيهات داء الحب كان قديما

قنصت بجمع شادنا فرحمتهو أخفق قناص يكون رحيما

أ أغدو مهينا بالحبائل ساعةغزالا على قلبى الغداة كريما

تراءت لنا بالخيف نفح لطيمةسرت عنك إلا عبقة و نسيما

و لم أر مثل الماطلات عشيةذوات يسار ما قضين غريما

و هذه أبيات هادئة النفس، و لكن ما رأيكم فى هذا البيت:

أصاب حراما ينشد الاجر حسبةفما عاد مأجورا و عاد أثيما

ان الشريف كان يتوهم انه كحمام الحرم لا يطرد و لا يصاد، و كان يجهل ان الحرم يباح فيه صيد القلوب! .. و هذا البيت:

قنصت بجمع شادنا فرحمتهو أخفق قناص يكون رحيما

فهو يمثل الحسرة اللاذعة التى يحسها من يرحم الجمال، فيضيع منه الجمال.

و هذا البيت:

و لم أر مثل الماطلات عشيةذوات يسار ما قضين غريما

و هو يمثل لؤم الملاح: فهن يملكن الوفاء، ثم لا يقدمن غير الصدود.

و فى منطق الشريف أن المليحة يقبح منها المطل لأنها موسرة، موسرة بالحسن و الصباحة، و الشاعر لا يطلب غير الانس بالحسن و الصباحة، و الجود لا يتلف المحاسن كما يتلف الاموال!

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۳۶

و ما رأيكم فى هذه القصيدة التى ساتر فى المشرقين و المغربين و عارضها جمهور من الشعراء:

يا ظبية البان ترعى فى خمائلهليهنك اليوم ان القلب مرعاك

الماء عندك مبذول لشاربهو ليس يرويك إلا مدمع الباكى

هبت لنا من رياح الغور رائحةبعد الرقاد عرفناها برياك

ثم انثنينا إذا ما هزنا طربعلى الرحال تعللنا بذكراك

سهم أصاب و راميه بذى سلممن العراق لقد أبعدت مرماك

وعد لعينيك عندى ما وفيت بهيا قرب ما كذبت عينىّ عيناك

حكت لحاظك ما فى الريم من ملح يوم اللقاء فكان الفضل للحاكى

كأن طرفك يوم الجزع يخبرنابما طوى عنك من أسماء قتلاك

أنت النعيم لقلبى و العذاب لهفما أمرّك فى قلبى و أحلاك

عندى رسائل شوق لست أذكرهالولا الرقيب لقد بلغتها فاك

سقى منى و ليالى الخيف ما شربتمن الغمام و حياها و حياك

إذ يلتقى كل ذى دين و ماطلهمنا و يجتمع المشكوّ و الشاكى

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۳۷ لما غدا السرب يعطو بين أرحلناما كان فيه غريم القلب إلّاك

هامت بك العين لم تتبع سواك هوىمن علم العين أن القلب يهواك

حتى دنا السرب ما أحييت من كمدقتلى هواك و لا فاديت أسراك

يا حبذا نفحة مرت بفيك لناو نطفة غمست فيها ثناياك

و حبذا وقفة و الركب مغتفلعلى ثرى و خدت فيه مطاياك

لو كانت اللمة السوداء من عددىيوم الغميم لما أفلت أشراكى

فماذا ترون فى هذه القصيدة العصماء؟ خبرونى ماذا ترون فانها تسمو على كل تحليل؟

أيكون السحر فى أن يصبح القلب مرعى تلك الغزالة؟ أيكون السحر فى أن لا يرويها الماء المبذول و إنما يرويها الدمع المسفوح؟ أم يكون فى أن يعرف العاشق مهب الريح بما تحمل عنها من نفحات؟ و ما هو ذلك السهم الذى يبعد مرماه فيصيب و هو بذى سلم أحشاء من فى العراق؟

إن هذه من الحقائق النواصع، لو تعلمون، فالعاشق تقوى عنده ذاكرة النظر و يتصور ملامح معشوقه على بعد الديار و على بعد السنين فتغزوه الملامح الفتانة فى كل وقت، كلما أدار أبصار فكره على ما رأت

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۳۸

عيناه فى عالم الفتون. و الجاهل هو الذى لا يعرف ذلك، الجاهل هو المحروم من نعمة الخيال الوثاب الذى يمثل ما نأى و ما بعد و كأنه مشاهد ملموس، و الشعراء بهذه المنحة الربانية يتمتعون بالمحاسن فى صور مختلفات و يشهدون المنظر الفاتن ألوف المرات، على حين لا يراه الجاهل غير مرة واحدة، إن كان الجاهل يدرك ما يراه، و أكثر أهل الارض جهلاء، و إن ظفروا بأعظم الالقاب، و

على اللّه رزق الدواب.

و يحدثنا الشاعر عن وعد العيون، و للعيون وعود.

فهل يسمح الشريف بأن نعترض على ما نسبه إلى محبوبته من خلف الوعد؟

هل يصدقنا الشريف إذا حكمنا بأن العيون عالم منفصل عن عالم القلوب؟

هل يصدقنا الشريف إذا جزمنا بأن العين تعد و تخلف، و تبرم و تنقض، فى غيبة القلب؟

إن الناس يظنون منذ ألوف السنين ان العيون رسل القلوب، فليعرفوا منذ اليوم ان العين خلق عجيب لا يعرف أسراره غير علام الغيوب.

و لعل الشريف فطن إلى ذلك حين استدرك فقال:

يا قرب ما كذبت عينىّ عيناك و حين قال:

كأن طرفك يوم الجزع يخبرنابما طوى عنك من أسماء قتلاك

فهو يرى للعيون أعمالا يجهلها أهل العيون. و الامر و اللّه كذلك، و لكن أكثر الناس لا يفقهون.

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۳۹

و يقول:

حكت لحاظك ما فى الريم من ملحيوم اللقاء فكان الفضل للحاكى

فيرينا ان الحلاوة فى عيون النساء أمتع من الحلاوة فى عيون الظباء و الحق فى هذه القضية ان عيون الغزلان فى غاية من الروعة، و لكنها محرومة من صفة أساسية فى عيون الملاح، و هى الافصاح، أو ما يعبر عنه الفرنسيون بكلمة Regardexpressif فعين الظبية تروعك، و لكنها لا تحدثك، أما عين المرأة فتروعك و تفضى اليك فى لحظة واحدة بألف حديث و حديث، و لعل الشريف قصد إلى ذلك حين قال:

فكان الفضل للحاكى. و انظروا كيف سجل مناسك الحج بهذين البيتين:

سقى منى و ليالى الخيف ما شربتمن الغمام و حياها و حياك

إذ يلتقى كل ذى دين و ماطلهمنا و يجتمع المشكوّ و الشاكى

فهل رأيتم أظرف من هذا الكلام؟ و هل تدركون ما فيه من دقيق الاشارات؟ اغفروا لى هذه الهفوة، فما اتهمكم بالجهل، و العياذ بالذوق، و إنما أريد أن اهجم على الشريف فأقول انه كان يتخذ ايام الحج مواعيد غرام، و اخشى ان اقول انه لم يكن يفارق مناسك الحج إلا على ميعاد.

و هذا يفسر حرصه على إمارة الحج بالاصالة عن نفسه او بالنيابة عن أبيه، و لا تستكثروا ان يحج الرجل ليرى امرأة يهواها، او ان تحج المرأة لترى رجلا تهواه، فقد كنا ننظم المواعيد فى القطار بين ليون و باريس، مواعيد لعام او عامين، ثم نفى فنلتقى بعد عام أو عامين، و للقلوب

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۴۰

غرائب لا تدركها العقول.

و ما الذى يمنع من مجاراة أبى عمرو بن العلاء فى الحكم بين الأعشى و لبيد؟

أتذكرون ما قال أبو عمرو بن العلاء؟

انه قال: لبيد رجل صالح، و الأعشى رجل شاعر.

و كذلك أحكم بأن الشريف رجل شاعر و ليس برجل صالح.

و هل قلّ الصالحون فى الدنيا حتى نشرفهم بالشريف؟

إن الأغبياء يعدون بالالوف، و ألوف الالوف، و إمارة الحج تولاها مئات ممن يحسنون التسبيح و التهليل، فليكن فيهم رجل واحد يفهم أن الحج معرض من معارض الجمال فى أمة قامت تقاليدها على الاستهانة بالجمال.

لتكن حجازيات الشريف هى الشاهد على أن ماضينا لم يكن كتلة من الجمود، و إنما كان ماضى أمة حية تدرك دقائق الأحاسيس تأملوا هذه الصورة.

لما غدا السرب يعطو بين أرحلناما كان فيه غريم القلب إلّاك

هامت بك العين لم تتبع سواك هوىمن علّم العين أن القلب يهواك

ثم انظروا كيف يضل المرء بين الحسان و ليس له فيهن إلا محبوبة واحدة، و ذلك أظرف أنواع الضلال.

و تأملوا قوله:

و حبذا وقفة و الركب مغتفلعلى ثرى و خدت فيه مطاياك

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۴۱

فهذا البيت يشهد بأن شاعرنا كان ينتهب الفرص التى يغفو فيها الركب ليمتع القلب اليقظ بما يوحى الهوى من انتهاب القبلات.

و ما رأيكم فى هذه الأبيات:

أيها الرائح المغذ تحملحاجة للمعذب المشتاق

اقر عنى السلام أهلى المصلى فبلاغ السلام بعض التلاقى

و إذا ما مررت بالخيف فاشهدان قلبى اليه بالأشواق

و إذا ما سئلت عنى فقل نضو هوى ما أظنه اليوم باقى

ضاع قلبى فانشده لى بين جمعو منى عند بعض تلك الحداق

و ابك عنى فطالما كنت من قبل أعير الدموع للعشاق

ما رأيكم فى إحساس من يحكم بأن

«بلاغ السلام بعض التلاقى» ما رأيكم فيمن يشعر بالانس حين يمر بخاطر من يهواه؟

و الشاعر واثق بأن هناك قلوبا تسأل عنه حين يغيب، و ما أسعد من يشعر بأن فى الدنيا قلوبا تسأل عنه حين يغيب! و شاعرنا لا تفارقه السيطرة العلوية فهو يحب أن يبكيه الأحباب فيوصى الرسول بأن يحدثهم أنه أصبح فى حكم الفانين عساه يظفر منهم بزفرة أو شهقة أو أنين.

و ما هذا البيت:

ضاع قلبى فانشده لى بين جمعو منى عند بعض تلك الحداق

أتعرفون كيف تضيع القلوب، و كيف ينشدها الناشدون؟؟ أتحسون المعنى الملفوف فى هذه الكلمة

«عند بعض تلك الحداق» أتفهمون من هذا

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۴۲

ان الرجل كان له فى الحجاز هوى خاص؟

و هذا البيت:

و ابك عنى فطالما كنت من قبل أعير الدموع للعشاق

أنت كنت تعير الدموع للعشاق؟

ليت العباس بن الاحنف كان رآك قبل أن يقول:

نزف البكاء دموع عينك فاستعرعينا لغيرك دمعها مدرار

من ذا يعيرك عينه تبكى بهاأرأيت عينا للدموع تعار

لقد بكى العشاق عنك، و بكوا ثم بكوا، فان لم تصدق فأنصت من عالم الغيب لترى كيف يسمع أهل العراق أبياتك هذه مرات فى كل يوم من حنجرة أم كلثوم.

و هذه الابيات:

حىّ بين النقا و بين المصلىوقفات الركائب الأنضاء

و رواح الحجيج ليلة جمعو بجمع مجامع الأهواء

و تذكر عنى مناخ مطيىبأعالى منى و مرسى خبائى

و تعمد ذكرى إذا كنت بالخيف لظبى من بعض تلك الظباء

قل له هل تراك تذكر ما كان بباب القبيبة الحمراء

قال لى صاحبى غداة التقينانتشاكى حر القلوب الظماء

كنت خبرتنى بأنك فى الوجد عقيدى و ان داءك دائى

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۴۳

ما ترى النفر و التحمل للبين فماذا انتظارنا للبكاء :

لم يقلها حتى انثنيت لما بىأتلقى دمعى بفضل ردائى

إن الشاعر يحس معنى الحياة فى وقفات الركائب الأنضاء، لأن السفر لا ينضى الركائب إلا بعد أن تصل بالعاشق إلى هواه، فهو يطرب لوقفاتها فى قرار و اطمئنان.

و الشاعر يوصى رفيقه بأن يتذكر عنه مناخ مطاياه، و تلك لفتة شعرية لا يدركها إلا الاقلون.

و كما حدثنا عن «بعض تلك الحداق» يحدثنا عن «بعض تلك الظباء» فيقول:

و تعمد ذكرى إذا كنت بالخيف لظبى من بعض تلك الظباء

قل له هل تراك تذكر ما كان بباب القبيبة الحمراء

و عبارة «ما كان» عبارة لطيفة يوشيها الذوق، و هى أبرع من عبارة ابن المعتز إذ يقول:

و كان ما كان مما لست أذكرهفظن خيرا و لا تسأل عن الخبر

لأن ابن المعتز أحاط عبارته بالشبهات.

أما الابيات الاخيرة فهى تشعركم بأن الشريف لم يكن يودع مناسك الحج بالتلبية و التكبير، و إنما كان يودعها بزفرة الملتاع على ما يفارق من خدود و عيون.

ايها السادة ما رأيكم فى هذا القصيد المرقص:

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۴۴ من معيد لى أيامى بجزع السمرات

و ليالىّ بجمعو منى و الجمرات

و ظباء حاليات كظباء عاطلات

رائحات فى جلابيب الدجا مختمرات

راميات بالعيون النجل قبل الحصيات

ألعقر القلب راحواأم لعقر البدنات

كيف أودعت فؤادى‌أعينا غير ثقات

أيها القانص ما أحسنت صيد الظبيات

فاتك السرب و ما زوّدت غير الحسرات

يا وقوفا ما وقفن فى ظلال السلمات

موقفا يجمع فتيان الهوى و الفتيات

نتشاكى ما عنانابكلام العبرات

نظر يشغل مناكل عين بقذاة

كم نأى بالنفر عنامن غزال و مهاة

آه من جيد إلى الدار كثير اللفتات

و غرام غير ماض‌بلقاء غير آت

فسقى بطن منى و الخيف صوب الغاديات

و زمانا نائم العذّال مأمون الوشاة

فى ليال كاللآلى‌بالغوانى مقمرات

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۴۵ غرست عندى غرس الشوق ممرور الجناةأين راق لغرامى

و طبيب لشكاتى ما رأيكم فيمن يرى أن يسمى هذه القصيدة «أنشودة الحجيج»؟

لا تعجبوا من هذا الاقتراح فمواسم الحج تحتاج إلى ضروب من الاناشيد، مواسم الحج فى شوق إلى من يرجعها إلى عهدها الأول يوم كانت أقدم ما عرف الناس من المعارض الدولية، مواسم الحج تحتاج إلى شاعر كالشريف يفرق بين عقر البدنات و عقر القلوب، و تحتاج إلى شاعر يعلم الناس أدب الصيد فيقول:

أيها القانص ما أحسنت صيد الظبيات

فاتك السرب و ما زوّدت غير الحسرات

و تتشوف إلى من يتلهف على أيامها فيقول:

آه من جيد إلى الدار كثير اللفتات

و غرام غير ماض‌بلقاء غير آت

و أعظم الحسرات ان تتشوف إلى أنس لن يعود، و يرحم اللّه أرباب القلوب! و هذه القصيدة التى تسجل لوعة القلب إلى ما شهد فى طريق الحج من أسباب الفتون:

خذى نفسى يا ريح من جانب الحمى‌فلاقى بها ليلا نسيم ربا نجد

فان بذاك الحىّ إلفا عهدته‌و بالرغم منى أن يطول به عهدى

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۴۶ و لو لا تداوى القلب من ألم الجوى‌بذكر تلاقينا قضيت من الوجد

و يا صاحبىّ اليوم عوجا لتسألاركيبا من الغورين أنضاؤهم تخدى

عن الحىّ بالجرعاء جرعاء مالك‌هل ارتبعوا و اخضر واديهم بعدى

كأن بعينى بعدهم عائر القذى إذا أنا لم أنظر إلى العلم الفرد

شممت بنجد شيحة حاجريةفأمطرتها دمعى و أفرشتها خدى

ذكرت بها ريا الحبيب على النوى‌و هيهات ذا يا بعد بينهما عندى

و إنى لمجلوب لى الشوق كلماتنفس شاك أو تألم ذو وجد

تعرّض رسل الشوق و الركب هاجدفتوقظنى من بين نوامهم وحدى

فقلت لأصحابى ألا تتزافرواورويدكم إن الهوى داؤه يعدى

و ما شرب العشاق إلا بقيتىو لا وردوا فى الحب إلا على وردى

و القصيدة واضحة لا تحتاج إلى من يدل على ما فيها من محاسن،

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۴۷

و لكن لا بد من النص على هذه العبارة:

هل ارتبعوا و اخضر واديهم بعدى فانها تصور فهمه لمعانى السعادة فى البوادى، و قد يكون فى الارتباع و الاخضرار إشارة إلى ما يتخوفه من أن يأنس الاحباب بغير هواه بعد الفراق.

ثم انظن وا احساسه بالفروسية فى الحب اذ يقول:

تعرّض رسل الشوق و الركب هاجدفتوقظنى من بين نوامهم وحدى

و ما شرب العشاق الا بقيتىو لا وردوا فى الحب الا على وردى

و حدثونى عن شعوركم بهذا المعنى الطريف، فذلكم شاعر يرى أن أطياف الشوق تعرفه بين الركب بسيماه، و يعتقد ان العشاق لا يردون فى الحب الاـ على ورده و لا يشربون الا بقاياه، و العشاق كالأنبياء لا تجود الدنيا بهم فى كل يوم، و انما تسمح بهم من جيل الى اجيال:

و ما رأيكم فى هذه الابيات:

تحمّل جيراننا عن منىو قالوا النقا بيننا موعد

و هل نافع قول ذى غلةو قد بعد الركب لا يبعدوا

تنادوا بأن التنائى غدالكك السوء من طالع يا غد

فلله ما جمع المأزمان و جمع لقلبى و المسجد

يضاع فينشد قعب الغبوقو قلبى يضاع و لا ينشد

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۴۸ و غيداء من ماطلات الديونلها بالحمى زمن اغيد

تريع كما التفتت ظبيةبذى البان عنّ لها المورد

نظرت و هيهات من ناظريكظباء تهامة يا منجد

و يا ربما و الهوى ضلةترى العين ما لا تنال اليد

ألا ترون هذه الحسرة الدامية؟ ألا تحسون اللوعة فى هذا البيت:

تنادوا بأن التنائى غدالكك السوء من طالع يا غد!

و أى لوعة آلم و أوجع من لوعة المفارق الذى لا يعرف متى يعود؟ أى لوعة آلم و أوجع من لوعة من يودع ناسا لا يدرى أيلقاهم مرة ثانية أم يكون أنسه بهم آخر العهد فى دنياه؟

و هذا البيت:

و يا ربما و الهوى ضلةترى العين ما لا تنال اليد

و هل فى الدنيا أفظع و أشنع من أن ترى العين ما لا تنال اليد؟ إن هذا أصل الشقاق و النزاع بين طوائف الانسان و الحيوان، و كل شقاء فى عالم الذوق و الوجدان يرجع إلى أصل واحد: هو أن ترى و لا تملك. و هل يعرف أحد حقيقة اللوعة فى قلب الشاعر الذى

يرى امرأة جميلة و هو يعرف أن لن تنالها يده، و أنها مع ذلك قد تكون ملكا لرجل سخيف لا يدرك أسرار الجمال؟

نترك هذا الشطط و ننتقل إلى هذه الأبيات:

ألا يا ليالى الخيف هل يرجع الهوىاليكن لى لا جازكنّ ندى القطر

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۴۹ فيا دين قلبى من ثلاث على منىمضين و لم يبقين غير جوى الذكر

و رامين وهنا بالجمار و إنمارموا بين أحشاء المحبين بالجمر

رموا لا يبالون الحشا و تروّحواخليين و الرامى يصيب و لا يدرى

و قالوا غدا ميعادنا النفر عن منىو ما سرنى أن اللقاء مع النفر

و يا بؤس للقرب الذى لا نذوقهسوى ساعة ثم البعاد مدى الدهر

فيا صاحبى إن تعط صبرا فاننىنزعت يدىّ اليوم من طاعة الصبر

و إن كنت لم تدر البكا قبل هذهفميعاد دمع العين منقلب السفر

و هذا شعر واضح، و لكن لا بدّ من التذكير ببعض المحاسن، كأن ننص على الخيال فى هذا البيت:

و رامين وهنا بالجمار و إنمارموا بين أحشاء المحبين بالجمر

و ما هو بخيال، و إنما هو حقيقة تراها العيون، و من الذى ينكر أنه يتمنى أن يكون شيطانا ترجمه بعض الأنامل الرقاق؟ فهل يستكثر على الشريف أن يقول أن بعض الراميات لا ترمى بالجمار و إنما ترمى الأحشاء بالجمر المشبوب؟

ما هذه البدعة الطريفة التى تفرد بها الحج الاسلامى؟ ما هذا التلطف الظريف الذى شرعه الاسلام و هو يوجب على المرأة المليحة أن تمد

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۵۰

معصمها لترمى الجمار؟

أما خطر ببال أحد الفقهاء أن يتصور أن المعصم الجميل قد يكون أفتن و أخطر من الشيطان الذى يرجمه الحجاج؟

ليت الدهر يسمح بأن نرى مرة كيف ينعم صديقنا الشيطان و هو يتلقى الرميات من أيدى الملاح! إن حظه لو تعلمون عظيم! و هذا البيت:

رموا لا يبالون الحشا و تروّحواخليين و الرامى يصيب و لا يدرى

و المهم هو النص على أن الرامى قد يصيب و هو لا يدرى، ذلك منطق الشريف! و الأغرب منه أن ننص على أن الرامى قد يقصد هدفا واحدا فيصيب هدفين! و هذا البيت:

و يا بؤس للقرب الذى لا نذوقهسوى ساعة ثم البعاد مدى الدهر

فذلك هو المعنى الاصيل الذى يدور حوله الشريف فى سائر الحجازيات.

و هذه الأبيات و قد قالها عند دخول الحجيج إلى مدينة السلام فى شهر صفر سنة ۳۹۵.

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۵۱ عارضا بى ركب الحجاز أسائلهمتى عهده بسكان سلع

و استملّا حديث من سكن الخيف و لا تكتباه إلا بدمعى

فاتنى أن أرى الديار بطرفىفلعلى أرى الديار بسمعى

هل ترون؟ ألا تحسون لوعة المشتاق إلى أنفاس الظباء بالحجاز؟ ذلكم شاعر فاته أن يحج فلم يبق أمامه إلا أن يتنسم أرواح القادمين ليرى الديار بأذنيه و قد فاته أن يراها بعينيه؟ و العاشق يستبيح كل شىء حتى الانس بالخيال، و هو و اللّه مظلوم فقد ينشد القدح الضائع و لا ينشد الفؤاد المفقود ... و هذه الأبيات:

إنى علقت على منى‌لمياء يقتلنى لماها

راحت مع الغزلان قدلعبت بقلبى ما كفاها

تبغى الثواب فمهجتى‌هذى القريحة من رماها

وقف الهوى بى عندهاو سرت بقلبى مقلتاها

بردت علىّ كأنماظل الغمامة عارضاها

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۵۲ شمس أقبل جيدهايوم النوى و أجل فاها

و أذود قلبا ظامئالو قيل وردك ما عداها

و لو استطاع لقد جرى‌مجرى الوشاح على حشاها

يا يوم مفترق الرفاق ترى تعود لملتقاها

قالت سيطرقك الخيال من العقيق على نواها

فعدى بطيفك مقلةإن غبت تطمع فى كراها

إنى شربت من الهوى‌حمراء صرّف ساقياها

يا سرحة بالقاع لم‌يبلل بغير دمى ثراها

ممنوعة لا ظلهايدنو إلىّ و لا جناها

أكذا تذوب عليكمونفسى و ما بلغت مناها؟

أين الوجوه أحبهاو أودّ لو أنى فداها

أمسى لها متفقدافى العائدين و لا أراها

واها و لولا أن يلوم‌اللائمون لقلت آها

ما رأيكم فى هذا الشعر المرقص؟ و ما هى التعابير التى تفصح عما فيه من فتون؟ ما رأيكم فى العذوبة التى تتموّج بين ألفاظه و معانيه كما يتموّج البريق فى الثنايا العذاب؟

حدثونى عند أى بيت نقف لنحدد غرائب البيان؟

انظروا هذا البيت:

إنى علقت على منى‌لمياء يقتلنى لماها

تجدوا المعنى قديما مبذولا تناهبه مئات الشعراء. و لكن ألا توافقون على أن الشريف أداه تأدية رشيقة حتى كاد يصبح من المبتكرات؟ ...

و هذا البيت:

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۵۳ راحت مع الغزلان قدلعبت بقلبى ما كفاها

و هو أيضا معنى قديم، و لكن هل تدركون الصورة الشعرية التى تتمثل فى قوله:

لعبت بقلبى ما كفاها و هو يريد انها لم ترح مع الغزلان إلا بعد أن شبعت لعبا بذلك القلب الخفاق، و هل تشبع الظباء من اللعب بالقلوب! و هذا البيت:

وقف الهوى بى عندهاو سرت بقلبى مقلتاها

فقد يمكن رجع صدره إلى قول دعبل:

وقف الهوى بى حيث أنت فليس لى‌متأخر عنه و لا متقدم

و لكن من الذى يجهل قيمة اللطف فى هذه الشطرة:

و سرت بقلبى مقلتاها و هذا البيت:

بردت علىّ كأنماظل الغمامة عارضاها

و البرد كلمة لها فى التشبيب مدلول خاص، و هى تشبه الكلمة الفرنسيةFraicheur و هذا البيت:

شمس أقبّل جيدهايوم النوى و أجل فاها

هو أيضا معنى قديم، و لكن لا يكذب من يقول إنه من مبتكرات الشريف.

و هذا البيت:

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۵۴ و أذود قلبا ظامئالو قيل وردك ما عداها

و ما أحسبكم تطالبوننى بالتنبيه على ما فى هذا البيت البارع من جمال، فانى أخشى أن تفسده الشروح، و انظروا كيف عقب عليه بهذا البيت:

و لو استطاع لقد جرىمجرى الوشاح على حشاها

و أحب أيها السادة أن تتأملوا الحسن فى هذه الابيات:

يا سرحة بالقاع لميبلل بغير دمى ثراها

ممنوعة لا ظلهايدنو إلىّ و لا جناها

أكذا تذوب عليكمونفسى و ما بلغت مناها

أين الوجوه أحبهاو أود لو أنى فداها

أمسى لها متفقدافى العائدين و لا أراها

واها و لولا أن يلوم اللائمون لقلت آها

أتدركون قيمة العذوبة فى هذا القصيد؟

أعتذر مرة ثانية و ثالثة و رابعة عن الارتياب فى أذواقكم، فمثلى لا يسىء الظن بأذواق أهل العراق، و إنما أعجب حين أرى من يتهمنى بالتعصب للشريف و يطالبنى بكشف ما عنده من عيوب، و أنا و اللّه مستعد لكشف عيوب الشريف، و لكن متى؟ بعد أن يعرف الناس محاسن الشريف.

أ ليس من العجب العاجب أن لا يعرف هذه القصيدة مغن فى تونس أو مراكش أو الجزائر أو صنعاء أو مكة أو المدينة أو دمشق أو بيروت أو القاهرة أو بغداد، و ما إلى أولئك من الحواضر العربية؟

لو كانت هذه القصيدة العذبة مما نظم ميسيه أو بيرون أو جوت

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۵۵

لكانت على جميع الألسنة فى بلاد الفرنسيس و الانجليز و الالمان، و لكنها وا أسفاه من نظم شاعر يجهله أكثر العرب و ينكره بعض أهله فى العراق.

أنا لا أقول بأن الشريف ابتكر جميع معانيه، فلأكثرها اصول عند أسلافه من الشعراء، و لكنى مع ذلك أقول بأن جميع معانيه من المبتكرات لأنه يحسها بأقوى و أعنف ما تتصورون من الاحساس، و قد دعوتكم من قبل إلى مراجعة كتاب النثر الفنى لتروا كلمة الحق و الصدق فى المبتذل و الطريف، و لتعرفوا أنى فى إنصاف هذا الشاعر لم أكن من العابثين.

و هل أستطيع مرة ثالثة أن أدلكم على الحسن فى هذين البيتين:

أين الوجوه أحبهاو أودّ لو انى فداها

أمسى لها متفقدافى العائدين و لا أراها

إن المعنى فيهما مأخوذ من قول بعض الشعراء.

ما أقبح الناس فى عينى و أسمجهمإذا نظرت فلم ابصرك فى الناس

و لكن الصورة مختلفة كل الاختلاف.

و أنا أيها السادة أقدر منكم على تجريح الشعراء، لأنى قضيت عشرين سنة أو تزيد فى تعقب الالفاظ النثرية، و الاخيلة الشعرية، و أستطيع أن أهجم على شاعر مثل المتنبى فأثبت ان معانيه كلها من الحديث المعاد، و لكنى لو فعلت لكنت من الظالمين، لأنى أعرف ان المتنبى أحس معانى شعره أصدق إحساس، و أومن بأنه لم يكن يغير على معانى سواه، و إنما كان يفترع المعانى افتراعا، و إن أنس بها من قبله كثير من الشعراء.

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۵۶

و هل تظنوننى أجبن عن مصارحتكم بكلمة العدل فى هذه القضية و أنا الذى جبهت بها أساتذتى فى السوربون فى محضر جمهور يعد بالمئات؟

هل تظنوننى أجبن عن التصريح بأن النقاد القدماء كانوا يلعبون حين أتعبوا أنفسهم و أتعبوا قراءهم فيما سموه بالسرقات الشعرية؟

لقد آن لنا أن نقيم النقد الادبى على قواعد علم النفس، و أظننى وصلت فى ذلك إلى بعض ما أريد.

ثم ننتقل إلى هذه الابيات:

يا رفيقىّ قفا نضويكمابين أعلام النقا و المنحنى

و انشدا قلبى فقد ضيعتهباختيارى بين جمع و منى

عارضا السرب فان كان فتىبالعيون النجل يقضى فأنا

إن من شاط على ألحاظهاضعف من شاط على طول القنا

تجرح الاعين فينا و الطلىقاتل اللّه الطلى و الأعينا

ثم كانت بقباء وقفةضمنت للشوق قلبا ضمنا

و حديث كان من لذتهاحد يصغى الينا أذنا

غادرونى جسدا تظهرهلهم الشكوى و يخفيه الضنى

حبذا منكم خيال طارقمرّ بالحىّ و لم يلمم بنا

باخل بخل الذى أرسلهسئل النيل و ما جاد لنا

سرحة أعجلها البين و مالبث الظل و لا ذيق الجنى

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۵۷ ما رأت عينى مذ فارقتكميا نزول الحىّ شيئا حسنا

و هذه أبيات تدركون ما فيها من روعة الخيال، و يكفى أن نقف عند هذا البيت:

و حديث كان من لذتهأحد يصغى الينا أذنا

و ليس من العجيب أن تصغى الجبال لأحاديث المحبين، فقد صح لأحد شعرائنا أن يقول:

وقف النجم و ألقى بالهليعدّ اللمح من قلبى و قلبك

ويح هذا النجم مما هالهفى ضمير الليل من حبى و حبك

على أن صبابات الشريف فى مواسم الحج، و فى طريق الحج، و لم تكن كلها من الوجد العابر الذى يمر مرور الطيف و لا يبقى من نعيمه غير العقابيل، فقد حدثنا أنه طاف بمعانى الوصل، إذ قال:

يا ليلة السفح ألّا عدت ثانيه‌سقى زمانك هطال من الديم

ماض من العيش لو يفدى بذلت له‌كرائم المال من خيل و من نعم

لم أقض منك لبانات ظفرت بهافهل لى اليوم إلا زفرة الندم

فليت عهدك إذ لم يبق لى أبدالم يبق عندى عقابيلا من السقم

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۵۸ تعجبوا من تمنى القلب مؤلمه‌و ما دروا أنه خلو من الألم

ردّوا علىّ لياليّ التى سلفت‌لم أنسهن و لا بالعهد من قدم

أقول للّائم المهدى ملامته‌ذق الهوى و إن استطعت الملام لم

و ظبية من ظباء الانس عاطلةتستوقف العين بين الخمص و الهضم

لو أنها بفناء البيت سانحةلصدتها و ابتدعت الصيد فى الحرم

قدرت منها بلا رقبى و لا حذرعلى الذى نام عن ليلى و لم أنم

بتنا ضجيعين فى ثوبى هوى و تقى‌يلفنا الشوق من فرع إلى قدم

و أمست الريح كالغيرى تجاذبناعلى الكثيب فضول الريط و اللمم

يشى بنا الطيب أحيانا و آونةيضيئنا البرق مجتازا على إضم

و بات بارق ذاك الثغر يوضح لى‌مواقع اللثم فى داج من الظلم

و بيننا عفة بايعتها بيدى‌على الوفاء بها و الرعى للذمم

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۵۹ يولّع الطلّ بردينا و قد نسمت‌رويحة الفجر بين الضال و السلم

و أكتم الصبح عنها و هى غافلةحتى تكلم عصفور على علم

فقمت أنفض بردا ما تعلقه‌غير العفاف وراء الغيب و الكرم

و ألمستنى و قد جدّ الوداع بناكفا تشير بقضبان من العنم

و ألثمتنى ثغرا ما عدلت به‌أرى الجنى ببنات الوابل الرذم

ثم انثنينا و قد رابت ظواهرناو فى بواطننا بعد من التهم

يا حبذا لمّة بالرمل ثانية و وقفة ببيوت الحىّ من أمم

و حبذا نهلة من فيك باردةيعدى على حر قلبى بردها بفمى

دين عليك فان تقضيه أحى به‌و أن أبيت تقاضينا إلى حكم

عجبت من باخل عنى بريقته‌و قد بذلت له دون الأنام دمى

ما ساعفتنى الليالى بعد بينهم‌الا بكيت ليالينا بذى سلم

و لا استجدّ فؤادى فى الزمان هوى‌إذا ذكرت هوى أيامنا القدم

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۶۰ لا تطلبنّ لى الأبدال بعدهم‌فان قلبى لا يرضى بغيرهم

و الحسرات فى هذه القصيدة حسرات شاعر، و هى أقوى من حسرات AndreChenier على الجدائل المتموّجة، و الاقدام العارية. و صورة الشاعر مع محبوبته فوق الرمل و بين وشاية الطيب و البرق، و فى هداية الثغر البراق، و فى حراسة العفاف، صورة جذابة جدا، و صورة التوديع الذى عاناه بعد ذلك أرق و أظرف، و أسف الشاعر على تلك الليلة يذيب القلوب.

و الفتوة فى صدر الشريف هى التى أنطقته بهذه المعانى، فمن المؤكد أن الدنيا لعهده لم تكن تخلو من أغبياء يصعب عليهم أن يدركوا كيف يصح العفاف لمن يبيتان ضجيعين، هو رجل خلق للشعر و الخيال لا يصلح للنجاح فى المعترك السياسى، و لكنه يؤدى

لوطنه و قومه خدمات يعجز عنها السياسيون، لأنه يخلق ثقافة الذوق، و يروض النفوس على الاريحية، و يغرس فيها الشوق إلى حب الحياة.

و من الواضح أن حجازيات الشريف لا تصلح دستورا للحجاج، فقد يجب أن تكون لهم شواغل غير التطلع إلى النحور و المباسم و العيون، و لكن هل يدّعى الشاعر أنه يضع الشرائع للناس؟ و هل للشاعر شريعة واضحة الرسوم حتى يفكر فى سنّ الشرائع؟

إن الشعراء كالأنهار يحلو لهم الاعوجاج، أما ترون نهر دجلة يمضى يمنة ثم يرجع يسرة؟ أما ترون نهر السين كيف يسير على غير هدى؟

و بفضل ذلك الاعوجاج حسنت مواقع المدائن التى تقوم على شواطىء الانهار و البحار، و لو كان شاطىء البحر الذى تقوم عليه مدينة الاسكندرية يعرف الاعتدال لكان من المستحيل أن تظفر الاسكندرية

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۶۱

بذلك الموقع البديع الذى يمكن الناظر من أن يراها فى الليل و هى كالعقد على نحر المحيط، و شواطىء الاسكندرية لم تجمل إلا بفضل ذلك الاعوجاج.

كنت أستطيع أن أناقش الشريف فيما ادعاه من العفاف، فأعيد التى جاءت فى الجزء الثانى من كتاب البدائع؟ كلمة استاذنا الدكتور منصور فهمى الذى يرى أن الشهوة قد تخرج من العيون.

و لكن ما رأيكم فى أن اللّه عز شأنه لم يضع عقوبة للشهوة التى تخرج من العيون؟

أنكون أغير من اللّه؟

إن الشريف رجل شاعر، و لا يعيبه أن لا يكون من الصالحين، فان الصلاح المطلق لا يتم إلا لأهل البلادة و الجهل.

كم كنت أتمنى أن أحاسب الشريف على ما ادعاه لنفسه من العفاف، ثم صدنى عن ذلك شعورى بأنه لم يكن منافقا، و أنا رجل يرى الكفر أهون من النفاق.

أيها السادة لقد طال القول فى حجازيات الشريف، و ما نريد الاستقصاء، فلنختم البحث بقصيدته اليائية و قد قالها قبل أن يموت بأربع سنين، قالها عند توجه الناس إلى الحج فى ذى القعدة من سنة ۴۰۰ و هو يتلهف على مواقع عينيه فى أرض الحجيج.

أقول لركب رائحين لعلكم‌تحلون من بعدى العقيق اليمانيا

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۶۲ خذوا نظرة منى فلاقوا بها الحمى‌و نجدا و كثبان اللوى و المطاليا

و مروا على أبيات حىّ برامةفقولوا لديغ يبتغى اليوم راقيا

عدمت دوائى بالعراق فربماوجدتم بنجد لى طبيبا مداويا

و قولوا لجيران على الخيف من منى‌تراكم من استبدلتمو بجواريا

و من حل ذاك الشعب بعدى و راشقت‌لواحظه تلك الظباء الجوازيا

و من ورد الماء الذى كنت وارداه ورعى الروض الذى كنت راعيا

فوا لهفتى كم لى على الحىّ شهقةتذوب عليها قطعة من فؤاديا

صفا العيش من بعدى لحىّ على النقاحلفت لهم لا أقرب الماء صافيا

فيا جبل الريان إن تعر منهموفانى سأكسوك الدموع الجواريا

و يا قرب ما أنكرتم العهد بيننانسيتم و ما استودعتم الود ناسيا

أ أنكرتمو تسليمنا ليلة النقاو موقفنا نرمى الجمار لياليا

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۶۳ عشية جارانى بعينيه شادنحديث النوى حتى رمى بى المراميا

رمى مقتلى من بين سجفى غبيطه فيا راميا لا مسّك السوء راميا

فيا ليتنى لم أعل نشزا اليكموحراما و لم أهبط من الأرض واديا

و لم أدر ما جمع و ما جمرتا منىو لم ألق فى اللاقين حيا يمانيا

و يا ويح قلبى كيف زايدت فى مها بذى البان لا يشرين إلا غواليا

ترحلت عنكم لى أمامى نظرةو عشر و عشر نحوكم لى ورائيا

و من حذر لا أسأل الركب عنكموو أعلاق وجدى باقيات كماهيا

و من يسأل الركبان عن كل غائبفلا بدّ أن يلقى بشيرا و ناعيا

و ما مغزل أدماء تزجى بروضةطلا قاصرا عن غاية السرب وانيا

لها بغمات خلفه تزعج الحشاكجس العذارى يختبرن الملاهيا

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۶۴ يحور اليها بالبغام فتنثنى كما التفت المطلوب يخشى الاعاديا

بأروع من ظمياء قلبا و مهجةغداة سمعنا للتفرق داعيا

تودعنا ما بين شكوى و عبرةو قد أصبح الركب العراقىّ غاديا

فلم أر يوم النفر أكثر ضاحكاو لم أر يوم النفر أكثر باكيا

هـذه أيهـا السـادة انشودة القلب الحزين. و بهـا نختم الحجازيـات، و كنت أحب أن أتناولها بالنقـد و التحليل، و لكنى عرضت لها قبل ذلـك فى مؤلفـاتى عـدة مرات، و مـا أدرى أين عرضت لهـا فقـد كثرت مؤلفاتى و طالت، و ربما كنتم تعرفون عن مؤلفاتى أكثر مما أعرف فارجعوا إلى ما كتبت فى تحليل هذه القصيدة إن كنتم تذكرون!

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۶۵

بكاء الشباب بكاء الشباب بكاء الشباب

أيهـا السـادة رأيتم غراميات الشـريف، و حجازيات الشـريف، فلم يبق إلا أن تروا ما صـنع فى بكاء الشـباب، و أنا أسـتعير هـذا العنوان المفجع من كتاب (مـدامع العشاق) لأن الشـريف بكى شـبابه بكاء لم يتفق لشاعر قديم أو حديث، و ما ظنكم بشاعر لم يعش أكثر من سبع و أربعين سـنة، ثم اتفق له أن يبكى شـبابه فى أكثر من سـبع و أربعين قصـيدة! ما ظنكم بشاعر مؤجـج الاحساس، مرهف الـذوق، مفطور القلب يبكى دنيا الحب بكاء الأطفال، و يخشع أمام ذكريات الشباب خشوع المؤمن أمام المحراب.

ما ظنكم بشاعر لا يمسـى و لا يصـبح إلا و هو على موعد من عيون الظباء، ثم يروعه الشـيب فجأة فيفهم أن الدهر يؤذنه بالقاء السـيف وطىّ اللواء! مـا ظنكم بشـاعر عرف ملاـعب الهوى على شواطىء دجلـة و شواطىء الفرات، و ساقه القلب إلى معاقرة العيون فى شتيت البقـاع، و ذاق أطـايب الخلـوات فى مكـة و المدينـة و بغـداد، ثم ينظر فـاذا هـو مهـدد بالرحيـل عن فردوس الصـبابة العاتيـة و الـوجد المشبوب!

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۶۶

ما ظنكم بشاب حاد الشـباب عنيفه، كما عبر الدكتور طه حسـين و هو يصف بعض الشـبان، ما ظنكم بشاب هذا حاله يتلفت فيرى دنيا العافيـة تهجره و تجفـوه بلاـ ذنب و لاـ جريرة، فيوقن أن دنيـا المحبين إلى زوال! مـا ظنكم بشـاعر يؤمن بـأن اللّه لم يخلق أجمـل من الشـباب، و لـم يبـدع أنضـر من الحب، ثم ينظر مرتاعـا إلى مصـيره فى الشـباب و مصـيره فى الحب! مـا ظنكم بشـاعر يعيش عزيزا بين الملاح، ثم يعترف بالـذل و الضـيم حين يرى فى فوديه طلائع البياض! و البياض يعشق فى كل موضع إلا فى الرأس، البياض يعشق فى الخدود و الصدور و المعاصم و المباسم و لكنه فى الشعر بغيض ممجوج.

البياض فى الزهر بشير الانس و الابتهاج، و لكنه فى الشعر نذير الحزن و الاكتئاب.

و لن أنسى ما حييت تلك اللوعة التى سمعتها من المسيو ما سينيوس فى باريس سنة ۱۹۲۹ و كنا نقرأ بعض الأشعار الغرامية فتنهد و قال: لقد فارقت شبابى! فقلت: لا تجزع، فان الشاعر العربى يقول:

يقولون هل بعد الثلاثين ملعبفقلت و هل قبل الثلاثين ملعب

لقد جلّ خطب الشيب إن كان كلمابدت شيبة يعرى من اللهو مركب

فتنهد مرة ثانية و قال: ان الشاعر قال الثلاثين و لم يقل الخمسين! و سأعيش دهرى كله أتحسر على مصاير من عرفت من الرجال فى

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۶۷

باريس، الرجال الذين رأيتهم يبالغون فى التلطف مع النساء، و ما أتعس الرجل الذى لا تبقى له الأيام من مزية غير التلطف و الترفق فى معاملة الملاح! أيها السادة أتحسبوننى أبكى شبابى؟ و هل عرفت نعيم الشباب، حتى أبكى الشباب؟

إنما أريد أن أهيّىء قلوبكم إلى إحساس الفجيعة التى سيتوجع منها الشريف، الفجيعة القاسية التى تصور سقوط السماء على الأرض و غيض البحار و زوال الجبال!! أريد أن أصنع مثل الذى صنعت و أنا أتكلم عن عمر ابن أبى ربيعة بالجامعة المصرية فى أواخر سنة ۱۹۱۸ و كنت يومئذ طالبا لا يدرى عواقب ما يصنع، فقد دعوت المستمعين إلى استقدام صباباتهم ليدركوا ما تصنع الصبابة بالشاعر اللعوب، و اليوم و أنا ألقى محاضرتى بكلية الحقوق فى أوائل سنة ۱۹۳۸ أدعوكم إلى استقدام صباباتكم ... أستغفر الحب، بل أدعوكم إلى استقدام أساكم و شجاكم لتدركوا ما يصنع الحزن على الشباب بشاعر كان وهّاج الشباب.

و معاذ الأدب أن أدعوكم إلى انتهاب ما توحى الغواية و الفتون، و إن كنت أتمنى أن يكون فيكم خلفاء لعمر بن أبى ربيعة و الشريف الرضى، فقد كان عمر على ضلاله رجلا شهما ينزه شعره عن التزلف، و يترفع عن مدح الخلفاء، فى زمن كان شعراؤه عبيد الخلفاء، و كان الشريف الرضى على غرامه الأثيم- إن كان فى الغرام إثم- رجلا شهما يحسب له فى مصاير الامور ألف حساب، و لم يمت إلا و هو مهيب جليل.

فان عجزتم عن اللحاق بهذين الشاعرين فلا أقل من أن تدركوا ما يهدد

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۶۸

اللغة العربية من القحط: قحط العواطف و القلوب، فان اللغات لا ترقى بالثرثرة اللفظية التى يغرم بها النحويون و الفقهاء، و إنما ترقى اللغات بمن يبدعون فى وصف المشاعر و الأحاسيس، و لكم أن تذكروا كيف ارتقت الانجليزية بأمثال شلى و بيرون، و كيف ارتقت الفرنسية بأمثال ميسيه و لامرتين.

و هل عاشت العبرانية و قد تقوض ملكها منذ أزمان و أزمان إلا بفضل اللوعة المبثوثة فى سفر أيوب؟ و لو أن اللغة العبرانية وقفت عند ما يحسن اليهود فى الميادين الاقتصادية لأدركها الموت منذ مئات السنين، و لكنها مضت تشرح آلام اليهود، و مآتمهم و مآسيهم و أحزانهم و أشجانهم فعاشت على وجه الزمان.

إنما ألح فى شرح هذا المعنى و ألح فرارا من شر المتزمتين، فقد يقولون:

لقد رأت بغداد أديبا يزيّن اللهو و المجون.

و ما أنا بلاه و لا عابث و لا ماجن، و إنما أنا رجل يبكى مصير لغته بين اللغات، و يؤذيه أن تصبح لغته جافة جامدة غبية بليدة لا تتكلم عن غير أسعار القطن و أسعار الحبوب، و لا تروج إلا بحرب الهجاء فى الجرائد و المجلات.

أريد أيها السادة أن تتعبوا قليلا فى إنهاض لغتكم، و هى لن تنهض إلا يوم تصبح قيثارة تعبر عن المآسى الانسانية، و أخطر المآسى هى مآسى القلوب، و لن تصلوا إلى هذه الغاية إلا يوم تدوسون النفاق بأقدامكم كما داسه عمر الخيام الذى خلق للغة الفارسية ألوفا و ملايين من الأنصار و المعجبين. عبقرية الشريف الرضى ؛ ج۲ ؛ ص۱۶۸

ت بلاه، أيها السادة، و لست بماجن و لا عابث، كما قد يتوهم من

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۶۹

لا يفهمون.

و الذين قرأوا منكم كتاب (حب ابن أبى ربيعة) يذكرون أنى دعوت منذ سنين إلى التنبه إلى أثر المرأة فى تلوين العواطف و الاحاسيس، و هى دعوة أجد أثرها اليوم عند بعض الادباء فى مصر، و لكن أدباء مصر على علمهم و ذكائهم لا- يهتمون بأسرار القلوب، كما يهتمون بأهواء العقول.

فما الذى يمنع من إيجاد نهضة أدبية و ذوقية فى العراق؟

ما الذى يمنع من أن تتذكروا ماضيكم الجميل يوم كان علماؤكم أعلم الناس، و شعراؤكم أشعر الناس؟

ما الذى يمنع من أن تقوم المنافسة بين القاهرة و بغداد؟ المنافسة القوية التى يسمو بها الشعر و الفن و الخيال؟

أترونني أجدت الاعتذار عن نفسى؟

أنا أريد أن أنقلكم إلى الاجواء الروحية التى عاش فيها الشريف و هو يبكى صباه.

أنا أريد أن ندرك معا سرائر هذا الروح الحزين لنعيش معه لحظات فى فردوس الوجدان.

و يجب أن نتفق أولا على أن الشاعر قد يزوّر عواطفه فى بعض الأحيان، فتكون مدائحه مثلا ضربا من المجاملة أو الرياء، حتى الحب قد تزوّر فيه العواطف فيكون الدمع فى عين العاشق كالسم فى ناب الثعبان و بعض المحبين يبكون ليخدروا فرائسهم فتعجز عن المقاومة، كما يلدغ الثعبان ليخدر الفريسه ثم يبتلعها بلا عناء.

إن تزوير العواطف مما يعرف الشعراء، و لا أستثنى الشريف،

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۷۰

و لكن هناك عاطفة لا تزوير فيها و لا رياء، و هى سورة الحزن على الشباب.

لكم أن ترابوا فى صدق الشاعر حين يحب أو يبغض، و حين يمدح أو يعاتب، و لكن الارتياب فى صدقه حين يبكى صباه أمر غير مقبول.

و أعيذكم أن تروا فى هذا البكاء لونا من الضعف، لا، فهو من فيض القوة، و أظننى حدثتكم فيما سلف أن الحزن على ما نفقد هو الشاهد على قوة شعورنا بقيمة ما نفقد. و الحزن عاطفة كاد يتفرد بها الانسان من بين سائر الحيوان.

فبكاء الشريف على شبابه هو دليل القوة و الحيوية، و هو يصور إدراكه لمعانى السعادة فى الحياة، و يرينا كيف كانت الدنيا فى عينيه و فى قلبه و فى خياله و فى رؤياه، فالقصائد التى سندرسها معا فى هذا المساء هى عنوان الصدق و عنوان الحيوية، و هى من شعر العافية لا من شعر المرض، كما يتوهم بعض من يعقلون.

أيها السادة نزل الشيب ضيفا ثقيلا برأس الشريف و هو فى الثالثة و العشرين، و الشيب فى مثل تلك السن لا يخيف، و لكن شاعرنا تفجع فقال:

يا ذابلا صوّح فينانهقد آن للذابل أن يختلى

حط برأسى يققا أبيضاكأنما حط به منصلا

قل لعذولى اليوم نم صامتافقد كفانى الشيب ان اعذلا

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۷۱ طبت به نفسا و من لم يجدإلا الردى اذعن و استقبلا

فهو يرى الشيب نذير الموت، و إن كان لا يزال فى ميعة صباه، و يشير على العذول بالصمت و بالنوم، فالشيب أقوى زاجر و أعنف عذول.

ثم يراجع نفسه فيرى الشيب نبت الحلم و السيادة:

رأت شعرات فى عذارى طلقةكما افترّ طفل الروض عن أول الوسمى

فقلت لها ما الشعر سال بعارضىو لكنه نبث السيادة و الحلم

يزيد به وجهى ضياء و بهجةو ما تنقص الظلماء من بهجة النجم

ثم تنقله الايام إلى سن السابعة و العشرين فيقول:

واها على عهد الشباب و طيبهو الغصن من ورق الشباب الناضر

سبع و عشرون اهتصرن شبيبتىو ألنّ عودى للزمان الكاسر

كان المشيب وراء ظل قالصلأخ الصبا و امام عمر قاصر

تعشو إلى ضوء المشيب فتهتدىو تضل فى ليل الشباب الغابر

لو يفتدى ذاك السواد فديتهبسواد عينى بل سواد ضمائرى

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۷۲ أبياض رأس و اسوداد مطالب؟صبرا على حكم الزمان الجائر!

فماذا ترون؟ هذا شاعر يرحب بالمشيب لو انه ظفر بحقوق المشيب و هى السيادة و الملك، و لكنه يجمع بين النكبتين: بياض الرأس و سواد البخت! و بعد أن جاوز الثلاثين بقليل وقع له حادث مزعج فى الحجاز فقد حلق شعره فى منى، ثم تطلع إلى الشعر و هو مرمىّ على الارض فرأى الخصل البيض تختلط بالخصل السود، فتوقع ان يكون ذلك آخر العهد بغلبة السواد على البياض.

لا يبعدن اللّه برد شبيبةالقيته بمنى و رحت سليبا

شعر صحبت به الشباب غرانقا و العيش مخضرّ الجناب رطيبا

بعد الثلاثين انقراض شبيبةعجبا اميم لقد رأيت عجيبا

قد كان لى قططا يزيّن لمتىشروى السنان يزين الانبويا

فاليوم اطّلب الهوى متكلفاحصرا و القى الغانيات مريبا

لو كان يرجع ميت بتفجعو جوى شققت على الشباب جيوبا

و لئن حننت إلى منى من بعدهافلقد دفنت بها الغداة حبيبا

ثم ينقله الدهر إلى السابعة و الثلاثين فيقول:

راحت تعجّب من شيب الم بهو عاذر شيبه التهمام و الاسف

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۷۳ و لا تزال هموم النفس طارقةرسل البياض إلى الفودين تختلف

إن الثلاثين و السبع التوين بهعن الصبا فهو مزورّ و منعطف

فماله صبوة يبكى بها طللو لا له طربة يعلى بها شرف

اين الذين رموا قلبى بسهمهمو لم يداووا لى القرف الذى قرفوا

يشكو فراقهم القلب الذى جرحوامنى و تبكيهم العين التى طرفوا

و يطيب لشاعرنا ان يوازن بين جنايات الليالى، و عنده ان جناية الشيب افظع من جناية الفراق:

قل لليالى قد ملكت فأسجحىو لغيرك الخلق الكريم الاسجح

من اى خطب من خطوبك اشتكىو عن اى ذنب من ذنوبك اصفح

ان اشك فعلك من فراق احبتىفلسوء فعلك فى عذارى اقبح

ضوء تشعشع فى سواد ذوائبىلا استضىء به و لا استصبح

بعت الشباب به على مقة لهبيع العليم بأنه لا يربح

لا تنكرن من الزمان غريبةان الخطوب قليبها لا ينزح

و هو قد اشار مرة إلى بلواه بالشيب و العذل:

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۷۴ قل للعواذل مهلا فالمشيب غدايغدو عقالا لذى القلب الذى طمحا

هيهات أحوج مع شيبى إلى عذلفالشيب أعذل ممن لا منى و لحا

و تكرير هذا المعنى يشهد بأنه كان يعرف أن الجمهور لا ينظر إلى غرامياته بعين الارتياح. و هو يبادر بانتهاب اللذات و يراها إمارة يتولاها الرجل بالشباب و يعزل عنها بالمشيب:

سواد الرأس سلم للتصابىو بين البيض و البيض الحروب

و ولّاك الشباب على الغوانىفبادر قبل يعزلك المشيب

و هو لا يعجب من أن يعيش بعد فراق الأحباب، لأنه عاش بعد فراق الشباب:

غدا فى الجيرة الغادين لبىجميعا ثم راجعنى وئابا

لئن فارقتها و بقيت حيالقد فارقت بعدهم الشبابا

و يرجع إلى التفكير فى النكبتين: بياض الرأس و سواد البخت، فيقول:

صحبنا الدهر و الأيام بيضو نحن نواضر سود الشعور

فلما اسودت الدنيا برزنالها بيض الذوائب بالقتير

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۷۵

و تقهره البلية، بلية الشيب، على عرفان الحق، فيذكر أن الشيب قد يفسد ما بينه و بين الحسان من وثيق الصلات.

يا قاتل اللّه الغوانى لقدسقيننى الطرق بعيد الجمام

أعرضن عنى حين ولى الصباو اختلج الهم بقايا العرام

و شاعت البيضاء فى مفرقىشعشعة الصبح وراء الظلام

سيان عندى أبدت شيبةفى الفود أو طبق عضب حسام

ألقى بذل الشيب من بعدهامن كنت ألقاه بدلّ الغلام

ترى جميم الشيب لما ذوىيراجع العظلم بعد الثغام

كم جدن بالأجياد لى و الطلىفاليوم يبخلن برد السلام

و كنت إن أقبلت أسمعننىقعاقع الحلى وراء القرام

و يرى تعبيره بالشيب لؤما و قلة أدب، لأنه لم يبتدع الشيب حتى يحاسب عليه:

تعيرنى شيبى كأنى ابتدعتهو من لى أن يبقى بياض المفارق

و إن وراء الشيب ما لا أجوزهبعائق تنسى جميع العوائق

و ليس نهار الشيب عندى بمزمعرجوعا إلى ليل الشباب الغرانق

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۷۶

و يؤكد لمحبوبته أنه لم يفوّف برد الشيب، و إنما فوّفته الأيام:

لا تأخذينى بالمشيب فانهتفويف ذى الأيام لا تفويفى

لو أستطيع نضوت عنى بردهو رميت شمس نهاره بكسوف

كان الشباب دجنّة فتمزقتعن ضوء لا حسن و لا مألوف

و لئن تعجل بالنصول فخلفهروحات سوق للمنون عفيف

و إذا نظرت إلى الزمان رأيتهتعب الشريف و راحة المشروف

و توجعه سخرية الغوانى فيقول:

تشاهقن لما أن رأين بمفرقىبياضا كأن الشيب عندى من البدع

و قلن عهدنا فوق عاتق ذا الفتىرداء من الحوك الرقيق فما صنع؟

و لم أر عضبا عيب منه صقالهو كان حبيبا للقلوب على الطبع

و قالوا غلام زيّن الشيب رأسهفبعدا لرأس زانه الشيب و النزع

تسلّى الغوانى عنه من بعد صبوهو ما أبعد النبت الهشيم من النجع

و كنّ يخرّقن السجوف إذا بدافصرن يرقّعن الخروق إذا طلع

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۷۷

و يرى دنياه كلها تذهب بذهاب الشباب: فلا حب و لا قتال، يرى نفسه كالقوس بلا وتر، و الثعبان بلا ناب، و الغصن بلا ورق، و الغمد بلا سيف، و الخميلة بلا أزهار:

من شافعى و ذنوبى عندها الكبر؟إن المشيب لذنب ليس يغتفر

راحت تريح عليك الهم صاحيهو عند قلبك من غىّ الهوى سكر

رأت بياضك مسودا مطالعهما فيه للحب لا عين و لا أثر

و أى ذنب للون راق منظرهإذا أراك خلاف الصبغة الأثر

و ما عليك و نفسى فيك واحدهإذا تلون فى ألوانه الشعر

أنساك طول نهار الشيب آخرهو كل ليل شباب عيبه القصر

إن السواد على لذاته لعمى كما البياض على علاته بصر

البيض أوفى و أبقى لى مصاحبهو السود مستوفزات للنوى غدر

كنت البهيم و أعلاق الهوى جددو أخلقتك حجول الشيب و الغرر

و ليس كل ظلام دام غيهبهيسر خاطبه أن يطلع القمر

أما ترينى كصل تحت هضبتهبالرمل أطرق لا ناب و لا ظفر

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۷۸ مسالما يأمن الأقران عدوتهملقى الحنية عرّى متنها الوتر

كالفرع ساقط ما يعلوه من ورقو الجفن أفرد عنه الصارم الذكر

إن أشهد القوم لا أعلم نجيهمماذا قضوا و يجمجم دونى الخبر

كان الشباب الذى أنضيت مندله عقب الخميلة لما صوح الزهر

من بعد ما كنت أستسبى المها شغفاأمست تراع بى الغزلان و البقر

لم أدر أن الصبا تبلى خميصته و أن منصات ذاك العون ينأطر

إن أمس لا يتقى زجرى و لا غضبىولائد الحىّ مملولا لى العمر

فقد أردّ العفرنى عن أكيلته و أزجر الضيغم العادى فينزجر

فما رأيكم فى هذه القصيدة؟

إن جامع الديوان لم يذكر متى قالها الشريف، و لكن يظهر من روح الشاعر أنه قالها بعد الأربعين، و نراه مع ذلك يمتلك عزيمته أقوى

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۷۹

امتلاك، و هل يستطيع رجل فان أن يقول هذا البيت:

راحت تريح عليك الهم صاحيةو عند قلبك من غيّ الهوى سكر

ففى هذا البيت صورة شعرية يدرك قيمتها من تستبيهم كرائم المعانى، و الشاعر يؤكد لمحبوبته أن قلبه لم يتلون، و إن كان شعره تلون:

و ما عليك و نفسى فيك واحدةإذا تلون فى ألوانه الشعر

و يغالط نفسه فيزعم أن السواد عمى على ما فيه من لذات، و أن البياض بصر على ما فيه من علات، و يزعم ان الشعر الأبيض أوفى لأنه لا يفارق الرأس، و أن الشعر الأسود غادر لأنه يهجر وطنه فى الرأس ثم لا يرجع.

ان السواد على لذاته لعمى كما البياض على علاته بصر

البيض أوفى و أبقى لى مصاحبةو السود مستوفزات للنوى غدر

و يبالغ فى تضليل نفسه فيزعم أنه كان كالجواد البهيم يوم كان أسود الشعر، ثم عاد كالجواد الاغر المحجل منذ اختلط البياض بالسواد

كنت البهيم و أعلاق الهوى جددو أخلقتك حجول الشيب و الغرر

ثم يفيق فيقول:

و ليس كل ظلام دام غيهبهيسر خاطبه أن يطلع القمر

ثم يقع الحزن على صدره وقوع الصواعق، صواعق الغدر التى تتفزع من هولها صدور الاوفياء، فيقول:

أما ترينى كصل تحت هضبتهبالرمل أطرق لا ناب و لا ظفر

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۸۰

و هذا بيت قليل الامثال، و هو يصور جزع الشريف على صباه، و هل هناك صورة تحزن و توجع كصورة الصل و هو يطرق بالرمل إطراق المساكين لأن الشيخوخة أسقطت ما كان يملك من أنياب حداد؟

مسالما يأمن الاقران عدوتهملقى الحنية عرّى متنها الوتر

و هل رأى الراءون أذل من القوس و هى معرّاة من الوتر.

ثم ماذا؟ ثم يرى الشريف أنه أمسى:

كالفرع ساقط ما يعلوه من ورقو الجفن أفرد عنه الصارم الذكر

فهل تحسون جزع الغصن حين يسقط عنه الورق؟ لقد أحسست هذا المعنى منذ أعوام قبل ان يقول بعض العلماء باحساس النبات. و هل تحسون جزع الغمد على فراق السيف؟ ارجو ان لا يطويكم الموت قبل ان تدركوا هذه المعانى، فما أحب لاحدكم ان يلقى اللّه إلا و هو من الاذكياء.

ثم ماذا؟ ثم يبكى شاعرنا فيقول:

إن اشهد القوم لا اعلم نجّيهموماذا قضوا و يجمجم دونى الخبر

و هذا البيت مزعج، و هو يردنى إلى حادثة لن انساها طول حياتى، يوم رأيت ابناء عمى يطوون بعض الاخبار عن ابى، فمضيت اتوجع فى مقال نشرته بجريدة البلاغ، ثم وقعت مخاوفى مع الاسف القتّال فمات أبى بعد اسابيع:

رحمك اللّه يا ابى، و طيّب مثواك! ثم ماذا؟ ثم يقول الشريف:

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۸۱ كان الشباب الذى انضيت مندلهعقب الخميلة لما صوّح الزهر

و انتم تعرفون مصاير الخمائل بعد ذبول الأزهار و هلاك الرياحين ثم ماذا؟ ثم يذكر الشاعر خلاصة حياته فيقول:

من بعد ما كنت استسبى المها شغفاأمست تراع بى الغزلان و البقر

لم أدر ان الصبا تبلى خميصتهو ان منصات ذاك العود ينأطر

إن امس لا يتقى زجرى و لا غضبىولائد الحىّ مملولا لى العمر

فقد ارد العفرنى عن اكيلتهو ازجر الضيغم العادى فينزجر

و ليس فى الدنيا آلم و لا اوجع من ان يصبح الرجل بلا حول و لا طول بعد ان كان ينتهب طعام الاسود.

و ليس هذا كل ما عند الشريف فى بكاء الشباب، فله و قفات يحلل فيها مصاير الرجال، كأن يقول:

و طيف حبيب راع نومى خيالهو عرّفنى طول الليالى ملمه

و ما زارنى إلا ليخجل طيبهنسيم الصبا او يفضح الليل ظلمه

تطلّع من ارجاء عينى دمعهاو ما كان لولا الوجد ينقاد سجمه

الا هل لحب فات اولاه رجعةو إن زاد عندى او تضاعف وسمه

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۸۲ ليالى اسرى فى اصيحاب لذةو مخ الدجارار و قد دق عظمه

و أغدو على ريعان خيل تلفهاصدور القنا و النقع عال أحمّه

رأيت الفتى يهوى الثراء و عمرهيرى كل يوم زائدا منه عدمه

عقيب شباب المرء شيب يخصهإذا طال عمر او فناء يعمه

طليعة شيب بعدها فيلق الردى برأسى لها نقع و بالقلب كلمه

اغالط عن نفسى حمامى و إنماادارى عدوا مارقا فىّ سهمه

و ليس يقوم المرء يوما بحجةإذا حضر المقدار و الموت خصمه

فوا عجبا للمرء و الداء خلفهو من حوله المقدار و الموت امه

يسر بماضى يومه و هو حتفهو يلتذ ما يغذى به و هو سمه

ورود من الآجال لا يستجمناو ورد من الآمال لا نستجمه

فماذا ترون فى هذه القطعة؟ ماذا ترون؟ حدثونى فانى اخشى ان تقولو انها من الحديث المعاد، ففيها معان عرفها الشعراء قبل الشريف، و هذا حق، و لكن تذكروا ما حدثتكم به فى المحاضرة الماضية، تذكروا انى قلت لكم إن اساس الابتكار هو الاحساس، فالعاشق الذى يخاطب هواه فيقول «احبك» لا يتهم بالمحاكاة و التزييف بحجة ان هذه الجملة قالها قبله الناس منذ اجيال و اجيال، و كذلك كان شاعرنا، فهو يحس المعانى اصدق احساس.

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۸۳

و قد فهمت من جملة حاله أنه كان يشكو مرضا يكتمه عن الاطباء، و لذلك شواهد كثيرة فى شعره نكتمها عنكم، و بسبب ذلك المرض المكتوم لم يعش نصف ما عاش أبوه، و قد حملته تلك العلة على بغض العيش، و هذه القطعة تمثل إحساسه بما كان يعانيه، و قد كان مع ذلك قليل البخت فلم يجد من يتوجع على بلواه، و لو فكرتم لرأيتم أنه طاف حول المعانى التى فصّلها ناظم «سفر أيوب» و لكن ناظم «سفر أيوب» وجد من ينصفه بعد مئات السنين، وجد الشاعر الفرنسى العظيم «لا مرتين» الذى كتب عن «سفر أيوب» كتابا وجدانيا حملنى و أنا طالب فى باريس على أن أبيع ساعتى و طائفة من ثيابى لأشترى نسخة أنيقة من التوراة.

أراكم تستغربون هذا الحديث؟ لا بأس، فهو و اللّه غريب، فمن أدب هذا الزمان أن ننسى ماضينا و أن نصرح بأن الأدب الحق لا يكون

إلا عند اللاتينيين و السكسونيين و الجرمان.

ارجعوا إلى هذه القطعة مرة أو مرتين أو مرات، ثم انظروا كيف بكى شاعرنا مصير الانسانية، و كيف توجع لمصير الرجال.

انظروا إلى هذين البيتين:

عقيب شباب المرء شيب يخصهإذا طال عمر أو فناء يعمه

طليعة شيب بعدها فيلق الردىبرأسى له نقع و بالقلب كلمه

انظروا إلى هذين البيتين ثم اسألوا أنفسكم كيف جمع مصاير الرجال فى بيتين، و كيف لوّن هذه الصورة تلوينا أخاذا تنفطر له القلوب القاسية و تنزعج منه راجحات العقول.

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۸۴

و هذا البيت:

فوا عجبا للمرء و الداء خلفهو من حوله الاقدار و الموت أمه

فهو يصور الانسان فى حومة حرب مع الداء و مع الاقدار و مع الموت.

ثم؟ ثم ماذا؟

ثم يتوجع الشاعر و يلتاع حين يرى مصيره بين العذال و عند الملاح فيقول:

يا عذوليّ قد غضضت جماحىفاذهبا حيث شئتما بزمامى

بعد لوثى عمامة الشيب أختال ببردى بطالة و عرام!!

خفضت نزوة الشباب و حالالهم بين الحشا و بين الغرام

غالطونى عن المشيب و قالوالا ترع انه جلاء الحسام

أبها الصبح زل ذميما فما أظلم يومى من بعد ذاك الظلام

أرمضت شمسك المنيرة فوديّفمن لى بظل ذاك الغمام

قلت ما أمن على الرأس منهصارم الجد فى يد الايام

إن ذنبى إلى الغوانى بشيبىذنب ذئب الغضا إلى الآرام

كن يبكين قبله من وداعىفبكاهن بعده من سلامى

أترون كيف قال الشاعر «يا عذوليّ» و الشعراء جميعا يقولون «يا خليليّ» و البيت الاول مختلس برفق من قول مالك بن الريب.

خذانى فجرّانى ببردى اليكمافقد كنت قبل اليوم صعبا قياديا

و لكن هذا الاختلاس هو الشاهد على براعة الشريف، فقد نقل موقف

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۸۵

الموت إلى موقف الشيب، و صح له أن يقول:

يا عذوليّ قد غضضت جماحىفاذهبا حيث شئتما بزمامى

و إلى أين يذهب العاذلان بزمام الشاعر الأشيب؟ إلى أين؟ إلى المساجد؟

و لكن الشاعر كان يتقرب إلى ربه و هو شاب بالتأمل فى ملكوت النحور و الثغور و الخدود و العيون، و اليوم يتقرب إلى ربه بالعظة و الاعتبار فيكبر و يسبح كلما رأى جنازة فى الطريق! و يرى الشاعر أن لا مجال لبرد البطالة و برد الفتك بعد أن لبس عمامة الشيب، و كيف يفتك أو يصول بعد أن خمدت نزوة الشباب و حال الهم بين حشاه و بين الغرام؟ و يذكر أنهم غالطوه فزعموا ان الشيب جلاء الحسام فيصرخ كما صرخ من قبله مئات الشعراء:

أيها الصبح زل ذميما فما أظلم‌يومى من بعد ذاك الظلام

أرمدت شمسك المنيرة فوديّ‌فمن لى بظل ذاك الغمام

ثم يذكر ما أجاب به من غالطوه:

قلت ما أمن من على الرأس منه‌صارم الجد فى يد الايام

و لكم أن تتأملوا عبارة «صارم الجد» فهى من غرائب التعابير.

ثم يحدد مصيره فيقول:

إن ذنبى إلى الغوانى بشيبى‌ذنب ذئب الغضا إلى الآرام

كن يبكين قبله من وداعى‌فبكاهن بعده من سلامى

و هو يصور الشيب أفظع تصوير فيرى موقفه و هو أشيب موقف الذئب من الآرام، و كان موقفه و هو شاب موقف الذئب من الآرام أيضا، و لكن الفرق بين الموقفين بعيد، فقد كانت الآرام فى عهد شبابه

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۸۶

تشتهى أن يفترسها، ثم أصبحت و هو أشيب يؤذيها الافتراس.

ثم ماذا؟ ثم يرى أن لا مفر من تحية الشيب لأنه رسول الموت فيقول:

ألا حيّ ضيف الشيب إن طروقه‌رسول الردى قدامه و دليله

لقد كان يبكينى لشعرى نزوله‌فقد صار يبكينى لعمرى رحيله

و معنى ذلك أنه كان يبكى أولا لما حل بالشعر، فصار يبكى لما حل بالعمر، فواحر قلباه! ثم يعود إلى تحليل تلك التحية فى موطن آخر فيقول:

و طارق للشيب حييته‌سلام لا الراضى و لا الجاذل

أجرى على عودى ثقاف الهوى‌جرى الثقافين على الذابل

و اعدنى عقر مراحى له‌لا در در الشيب من نازل

فاليوم لا زور و لا طربة‌نام رقيبى و صحا عاذلى

أترون كيف يرى الشاعر ما صنع الشيب فى تثقيف هواه، و لكن أى تثقيف؟ لقد هذبه تهذيبا أليما فاقتلع الانابيب التى يتوقد بقوتها الصيال.

أترون هذا الميعاد

«واعدنى عقر مراحى له» و هل هناك موعد أشأم من هذا الموعد؟ انه موعد فاجع، الموعد الذى يعقر فيه مراح الشباب، فواحر قلباه! ثم؟ ثم ماذا؟

ثم يرى الشاعر لقاء الشيب أفظع من لقاء العدو فيقول:

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۸۷ ما لقائى من عدوى‌كلقائى من مشيبى

موقد نارا أضاءت‌فوق فوديّ عيوبى

و بياض هو عند البيض‌من شر ذنوبى

و هذا حق، فنحن نحارب الاعداء بعزائم الشباب، فبأى سلاح نحارب يوم يودّع الشباب.

و فى موطن آخر يعالج الشاعر هذه المعضلة فيقول:

أشوقا و ما زالت لهن قباب‌و ذكر تصاب و المشيب نقاب

و غير التصابى للكبير تعلةو غير الغوانى للبياض صحاب

و ما كل أيام الشباب مريرةو لا كل أيام الشباب عذاب

أؤمل ما لا يبلغ العمر بعضه‌كان الذى بعد المشيب شباب

و طعم لبازى الشيب لا بد مهجتى‌أسّف على رأسى و طار غراب

أيها السادة أخشى أن يطول القول إذا مضينا فى استعراض حسرات الشاعر على صباه و هو يبكى نصيبه من الغوانى، فلننتقل إلى موضوع آخر و هو جزعه من الشيب بسبب ما سيضيع من حظوظه فى المعالى، و كان الشاعر يدّخر صباه ليصيب به أعظم الاغراض من هموم الرجال، و انظروا كيف يقول:

و رب دار أولّيها مجانبةو بى إلى الدار أطراب و اشجان

إذا تلفتّ فى أطلالها ابتدرت‌للعين و القلب أمواه و نيران

كلم بقلبى أداويه و يقرفه‌طول ادكارى لمن لى منه نسيان

لا للوائم إقصار بلائمةعن العميد و لا للقلب سلوان

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۸۸ على مواعيدهم خلف إذا وعدواو فى ديونهم مطل وليّان

هم عرّضوا بوفاء العهد آونةحتى إذا عذبونى بالمنى خانوا

لا تخلدنّ إلى أرض تهون بهابالدار دار و بالجيران جيران

أقول للركب قد خوت ركائبهممن الكلال و مرّ الليل عجلان

مدوا علابيّها و استعجلوا طلباإذا رضى بالهوينا معشر هانوا

نرجو الخلود و باقينا على ظعنو الدار قاذفة بالزور مطعان

إن قلص الدهر ما أضفاه من جدةفصنعة الدهر إعطاء و حرمان

كم من غلام ترى أطماره مزقاو العرض أملس و الاحساب غران

إذا الفتى كان فى أفعاله شوهلم يغن أن قيل إن الوجه حسان

لا تطلب الغاية القصوى فتحرمهافان بعض طلاب الربح خسران

و العزم فى غير وقت العزم معجزةو الازدياد بغير العقل نقصان

و هذه الابيات من قصيد طويل، و هى تريكم انه كان يدخر الشباب عظائم الاعمال:

انظروا ايضا كيف يتوجع على ما ضاع من أمانيه فى المعالى بسبب الشيب فيقول:

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۸۹ فؤادى بنجد و الفتى حيث قلبه‌اسير و ما نجد إلىّ حبيب

و مالى فيه صبوة غير اننى‌خلعت شبابى فيه و هو رطيب

بلى، إن قلبى ربما التاح لوحةفهل ماؤه للواردين قريب

ألا هل تردّ الريح يا جوّ ضارح‌نسيمك يحلو لى لنا و يطيب

و هل تنظر العين الطليحة نظرةاليك و ما فى الماقيين غروب

و ما وجد أدماء الاهاب مروعةلاحشائها تحت الظلام وجيب

ترود طلا اودت به غفلاتهاو فى كل حىّ للمنون نصيب

بغوم على آثاره و قد اكتسى‌ظلام الدياجى غائط و سهوب

فلما أضاء الصبح لاح لعينهادم بين ايدى الضاريات صبيب

كوجدى و قد عرّى الشباب جوادهو غير لون العارضين مشيب

و لكنها الايام اما قليبهافمكد و اما برقها فخلوب

إذا ما بدأن الامر افسدن عقبهو عفّى على إحسانهن ذنوب

فلله درى يوم انفث قولةلها فى رؤوس السامعين دبيب

و للّه درى يوم اركب همةإلى كل ارض اغتدى و اؤوب

و كم مهمه جاذبت بالسير عرضهو غالبته بالعزم و هو غلوب

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۹۰ و ليل رأيت الصبح فى اخرياتهكما انسلّ من سر النجاد قضيب

سريت به او فى على كل ربوةو ليس سوى نجم علىّ رقيب

و أزرق ماء قد سلبت جمامهيعوم الشوى فى غمره و يغيب

و هاجرة فللت بالسير حدهاو لا ظل إلا ذابل و نجيب

و يوم بلا ضوء يترجم نقعهعن الروع و الاصباح فيه مريب

حبست به قلبا جريا على الردىو قد رجفت تحت الصدور قلوب

و طعنة رمح قد خرطت نجيعهاكما ماج فرغ فى الاناء ذنوب

و ضربة سيف قد تركت مبينةو حاملها عمر الزمان معيب

نظرت إلى الدنيا بعين مريضةو مالى من داء الرجال طبيب

و من كان فى شغل المنى ففراغهمثال الامانى او ردى و شعوب

فمالى طول الدهر أمشى كأننىلفضلى فى هذا الزمان غريب

إذا قلت قد علقت كفى بصاحبتعود عواد بيننا و خطوب

و هذه أبيات تفيض بالاحساس و قوة الروح، و هى تشعركم بأن الشاعر كانت له من شبابه غايات اشرف من الانس بالغوانى.

ان شاعرنا، ايها السادة، لم يبك شبابه و هو عابث، و إنما بكاه

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۹۱

لأنه كان الوسيلة إلى إدراك ما فى الدنيا من صبوات و أمجاد، و الصبوة و المجد معنيان من اشرف المعانى، و الشاعر الحق هو الذى يدرك قيمة الصبوة و قيمة المجد.

كان شاعرنا إماما فى الفتوة و فى الفروسية، فارحموه إن رأيتموه يبكى على شبابه بكاء الاطفال، فليس فى الدنيا ما يستحق ان تذال فى سبيله دموع الرجال غير الشباب.

و قديما قيل إن أبا العتاهيه أشعر الناس لأنه قال:

روائح الجنة فى الشباب أيها السادة لقد طوّفت بكم حول المناحة التى اقامها الشريف على صباه و الآن أنظر فأراكم فريقين: فريق الشباب و فريق الكهول.

أما الكهول فانى ارجو ان لا يصنعوا مثل صنيع الشريف فيقتلوا عزائمهم بكثرة النوح على الشباب، فان للّه حكمة عالية حين قضى بأن لا يحمّل نبيّه الرسالة إلا بعد الأربعين، ليعرف من لم يكن يعرف ان شباب العزائم لا يبتدىء إلا بعد الاربعين.

و أما الشبان الذين و اظبوا على هذه المحاضرات من طلبة دار المعلمين العالية و طلبة كلية الحقوق و أدباء بغداد، فان لى فى سبيلهم مع اللّه كلمة، و لى فى سبيل المجد معهم كلمة.

اما كلمتى مع اللّه تباركت أسماؤه فهى دعوة أرجو ان تستجاب.

ادعوا اللّه ان تعيشوا يا تلاميذى و يا حوارىّ حتى تشيب نواصيكم ادعو اللّه ان يبقيكم جميعا حتى تطول بلواكم بالشيب، ادعو اللّه ان تعيشوا حتى يشيب أبناؤكم و انتم اقوياء.

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۹۲

ادعو اللّه ان يمنحكم البركة فى العمر، و البركة فى العافية، فلا يدرككم الشيب إلا و لكم فى بلادكم منازل عالية تحقق بعض آمال العراق.

اما كلمتى معكم فى سبيل المجد فهى كلمة عنيفة، هى دعوتكم إلى انفاق الشباب فى سبيل المجد، لا فى سبيل الحب، لأن اكثر الحب فى زماننا متاع رخيص لا يذكى الافئدة و لا يوقظ القلوب.

تذكروا دائما يا تلاميذى و يا حوارىّ ان فى مقدور الشاب النبيل ان يخلق لنفسه عرائس من الخيال، تذكروا ان سهر الليل فى تحقيق مشكلة فلسفية، او معضلة علمية، الذ و امتع من سهر الليل بين غانية و كأس.

تذكروا يا تلاميذى و يا حوارىّ ان شهوة المجد اقوى من شهوة الحب، تذكروا ان عشق المعانى هو الذى يخلق العظماء، و المرأة نفسها لا تذكى قريحة الرجل فتصيره عظيما إلا إن كانت عظيمة فى الشمائل و الخصال.

انى اخاف عليكم سفاهة هذا الزمان، يا تلاميذى و يا حوارىّ، فان لم يكن لكم بدّ من درس الوجود فادرسوه دراسة الرجال، و ليكن موقفكم منه موقف الطبيب من العليل، و انا لا ادعوكم الى اغماض اعينكم، و إنما ادعوكم الى التخلق بالقوة و الجبروت فلا يدرككم الشيب إلا بعد ان تكونوا رفعتم قواعد الحياة العلمية و الادبية و الاقتصادية فى هذه البلاد.

و قد رأيتمونى اعطف على الشريف و هو يبكى صباه.

و إنما كان ذلك لأنى او من بأن الشريف كان رجلا سليماNormal

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۹۳

و كانت مواهبه شبيهة بالمائدة الغريبة الألوان: فكان شاعرا و كان كاتبا و كان نحويا، و كان فقيها، و كان فارسا، و كان سياسيا، كان يجمع بين الحلاوة و المرارة، و الجد و الهزل، و القلب و العقل.

و مثل هذه الشخصية القوية لا ينظر اليها رجل مثلى بغير العطف و الاعجاب.

فمن شاء منكم أن يقضى حق الشباب فأنا حارسه و راعيه، و لكن على شرط أن يقيم البراهين على أنه رجل عظيم يضر و ينفع، و يبرم و ينقض، و لا يبيت إلا و هو مثقل بهموم الرجال.

تلاميذى الأعزاء:

احترسوا، ثم احترسوا، فما توغلت فى هذه الدراسات الوجدانية لا حوّلكم إلى قوم بكائين، و إنما قضى واجب الدرس أن نفهم شاعرنا حق الفهم فننظر كيف كان يدرك ما فى الوجود من ألوان.

و ما جاز له لا يجوز لكم فى كل حين.

و ليتكم تغنمون لأنفسكم ما غنم لنفسه من القوة و الجبروت، فقد طاب له أن يلهو و يلعب، و مع ذلك لم يفارق دنياه إلا بعد أن هذّب ألوفا من التلاميذ، و بعد أن ترك ثروة شعرية و أدبية و فقهية تعزّ على من رامها و تطول.

تلاميذى الاعزاء ستحيون باذن اللّه حتى تشيب نواصيكم، و ستكون لكم فى سبيل المجد و ثبات صوادق، و سيذكر العراق أن أبناءه لم يخذلوه، و انهم استطابوا فى سبيله كل عذاب، حتى الحرمان من نعيم الشباب.

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۹۴

الشاعر الوصاف

أيها السادة نحدثكم الليلة عن الوصف فى أشعار الشريف، و نبدأ فنحكم بأنه خليق بأن يسمى (الشاعر الوصّاف) و إنما سارعنا إلى هذا الحكم لأن الشريف مظلوم من هذه الناحية: فما قال أحد من القدماء أو المحدثين بأنه كان من الوصافين، و ليس معنى هذا أنهم أنكروا عليه القدرة على الوصف و لكن لم يتفق لاحدى قصائده أن تظفر بشهرة وصفية، فالمتنبى له قصيدة مشهورة فى وصف الاسد، و البحترى له قصيدة مشهورة فى وصف إيوان كسرى، و أبو تمام له قصيدة مشهورة فى وصف الربيع، و شوقى له قصيدة مشهورة فى وصف «أنس الوجود» أشهر القصور فى التاريخ.

لم يقل أحد بأن الشريف كان من الوصافين، و تجاهل هذه الناحية يشهد بأن النقاد لم يعرفوا هذا الشاعر كما كان يجب أن يعرف.

فلنحاول نحن إنصافه و لنكشف عن عبقريته فى هذا الباب.

و نسارع فنقرر أن الشريف لم يصف الخمر، و كان وصف الخمر من من أهم الفنون عند شعراء العراق.

فما السبب فى ذلك؟

لا موجب للمداورة، فالشريف لم يكن يرى من الوقار أن يتبذل فى وصف الخمر و السقاة كما فعل غيره من الشعراء، لأنه كان يرشح نفسه لأعظم المناصب الدينية.

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۹۵

و ربما جاز أن نحكم بأنه لم ير الخمر رأى العين.

و هذا الحكم يبدو غريبا، و لكن يسهل تصوره حين نذكركم بابن الفارض الذى شغل الناس بقصائده الخمريات، فمدينة القاهرة لعهد ابن الفارض لم تكن تعرف الخمر، و البيئة التى نشأ بها ابن الفارض لم تكن تعرف إلا ان الخمر شراب حرام، و مع ذلك وصفها الشاعر و أجاد الوصف كما اتفق لأحد الشعراء العميان أن يجيد وصف الحروب. و قد رأيت فى بغداد ناسا يعرفون تخطيط القاهرة و لم يروها، و إنما تمثلوا خططها بالسماع عن طريق الجرائد و المجلات .

و ما أنكر أن العراق يكاد يكون أقدم شعب عرف الخمر فى التاريخ، و لكن الخمر كانت مع ذلك متاعا يجهله الجمهور فى العراق، و إسراف أبى نواس فى وصف الخمر هو الشاهد على انها كانت قليلة الوجود، و لولا قلتها لما أمكن أن يتهالك عليها كل ذلك التهالك و أن يفتن بها ذلك الفتون و فرنسا التى تشرب الخمر فى كل وقت و لا يكاد أهلها يعرفون طعم الماء، فرنسا هذه لم ينبغ فيها شاعر يصف الخمر على نحو ما نبغ أبو نواس، و كان ذلك لأن الناس يقل غرامهم بما يملكون.

فان كنتم فى ريب من ذلك فانظروا قول السرىّ الرفّاء شاعر الموصل و هو الذى يقول فى استهداء النبيذ:

يا من أنامله كالعارض الساريو فعله أبدا عار من العار

أما ترى الثلج قد خاطت أنامله‌ثوبا يزرّ على الدنيا بأزرار

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۹۶ نار و لكنها ليست بمبديةنورا و ماء و لكن ليس بالجارى

و الراح قد أعوزتنا فى صبيحتنابيعا و لو وزن دينار بدينار

فامنن بما شئت من راح تكون لنانارا فانا بلا راح و لا نار

فهذا الشعر يشهد بندرة الخمر فى تلك العهود.

و انظروا أيضا قول السلامىّ:

أرسلت أشكو اليكم غدوة ظمأىو ما شككت بأنى سوف أغتبق

فقد كتبت إلى أن خاننى قلمىو قد ترددت حتى ملنى الطرق

أنت امرؤ جوده غمر و نائله‌همر و وبل نداه مسبل غدق

فابعث إلىّ بصفو الراح يشبهه‌منى قريضى و منك العرف و الخلق

و قد لاحظت مثل هذه الملاحظة فى كتاب «النثر الفنى» حين تكلمت عن أبى الفرج الببغاء.

قد تقولون: هؤلاء شعراء يستجدون! و أجيب بأن الشعراء لا يستجدون إلا حين لا يجدون.

كانت الخمر فى العراق قليلة جدا، بدليل اللهفة الظاهرة فى كلام الشعراء، و ما عرفها الشريف فيما أفترض، و إن كان صرح بأنه عرفها فى هذا البيت الحزين:

و يمنعنى المدام طروق همىفما يحظى بها إلا نديمى

و هو قد وصف الخمر بالفعل، و لكنه نص فى الديوان على انه سئل

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۹۷

وصفها على لسان بعض الناس فقال:

اسقنى فاليوم نشوانو الربى صاد و ريّان

كفلت باللهو وافيةلك نايات و عيدان

جاز وفد الريح فالتطمتمنه أوراق و أغصان

كل فرع مال جانبهفكأن الاصل سكران

و كأن الغصن مكتسيامن رياض الطل عريان

كلما قبلت زهرتهاخلت ان القطر غيران

و مقيل بين أخبيةقلته و الحىّ قد كانوا

فى أصيحاب مفارشهمثم أنقاء و كثبان

عسكرت فيها السحاب كماحط بالبيداء ركبان

فارتشفنا ريق ساريةحيث كل الارض غدران

فاسقنى فالوصل يألفنىإن يوم البين قرحان

غير سمعى للملام إذاضج ساجى الصوت مرنان

رب بدر بت ألثمهصاحيا و البدر نشوان

قدت خيل اللثم أصرفهاحيث ذاك الخد ميدان

لى غدير من مقبّلهو من الصدغين بستان

و ندامى كالنجوم سطوابالمنى و الدهر جذلان

كم تخلت عن ضمائرهمثم ألباب و أذهان

خطروا و الخمر تنفضهمو ذيول القوم أردان

كل عقل ضاع من يقظفهو فى الكاسات حيران

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۹۸ إنما ضلت عقولهمحيث يعييهن وجدان

فاختلس طعن الزمان بهاإنما الايام أقران

و هى قصيدة تظهر فيها الرشاقة و خفة الروح، و لكن أين هى من خمريات الفاجر أبى نواس! و سئل مرة ثانية وصف الخمر فقال:

راح يجول شعاعهابين الضمائر و العقول

فكأنها فى كأسهاو الليل منسحب الذيول

ماء الهجير مرقرقافى سرة الظل الظليل

و هى أبيات ظريفة جدا، و قد تجمّل فيها تجمل النبلاء.

و يصح أن نذكركم بما قضينا به يوم درسنا غراميات الشريف، فقد قلنا انه وقف عند المعانى الوجدانية، و لم يشغل نفسه بوصف الجوانب الحسية إلا قليلا.

و كذلك فعل حين وصف الصهباء.

كان الشريف شاعرا وصافا، و لكن أين الشواهد؟

حدثوا انه سئل وصف فرخ حمامة فقال:

لحبّ إلىّ بالدهناء ملقىلأيدى العيس واضعة الرحال

مناخ مطلّحين تقاذفتهمغريب الحاج و الهمم العوالى

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۱۹۹ أراحوا فوق أعضاد المطاياقد افترشوا زرابىّ الرمال

فبين ممضمض بالنوم ذوقاو بين مقيّد بعرى الكلال

إلى أن روّع الظلماء فتقأغر كجلجة الرجل البجال

فقاموا يرتقون على ذراهاسلاليم المعالق و الجبال

و أرقنى دعاء الورق فيهاعلى جرح قريب الاندمال

تذكرنى بسالفة الليالىو سالفة الغزالة و الغزال

و أيام الشباب مساعفاتجمعن لنا و أيام الوصال

كأنفاس الشمول كرعت فيهاعلى ظمأ و أنفاس الشمال

أقول لها و قد رنّت مراحالبالك يا حمامة غير بالى

تباعد بيننا من قيل شاكتعلق بالغرام و قيل سالى

تريع الى درادق عاطلاتو هن بعيد آونة حوالى

لها صنع يطول على طلاهاقلائد لا تفصّل باللآلى

عوار لا تزال الدهر حتىتجملها بريط غير بال

و كل أزيرق قصرت خطاهكشيخ الحىّ طأطأ للعوالى

مراحك قبل طارقة المناياو قبل مرد عادية الليالى

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۲۰۰

و هذه القصيدة تمثل مذهب الشريف فى الوصف أصدق تمثيل، فهى فى الأصل نظمت فى وصف فرخ الحمام، و لكن فرخ الحمام مع ذلك جاء فرعا و لم يجىء أصلا، فقد شغل الشاعر نفسه بوصف مناخ العيس و حولها الركب الطليح، و شاءت له الشاعرية أن يصف ذلك المنظر أجمل وصف، فلما وصل إلى فرخ الحمام لم يشغل نفسه بوصفه إلا قليلا.

و هنا نجد الأدلة التى تساعد على الحكم بالقول الفصل، فالشريف شاعر وصاف، و لكن الوصف عنده لا يقع إلا عن طريق الاستطراد.

و قد حدثناكم منذ أشهر يوم تكلمنا عن العلا و المعالى فى قصائد الشريف أن جامع الديوان عنون إحدى قصائده بوصف الأسد، ثم أريناكم أنه ما ما وصف الأسد، و إنما وصف نفسه، أعنى أنه شبه نفسه بالأسد فساقه ذلك إلى وصف الاسد عن طريق الاستطراد.

و أنتم تذكرون أنه قال:

سيرعب القوم منى سطو ذى لبدله بعثر أعراس و ولدان

لا يطعم الطعم إلا من فريستهإن يعدم القرن يوما فهو طيان

ماشى الرفاق يراعى أين مسقطهمو السمع منتصب و القلب يقظان

إلى آخر الوصف.

و كذلك يفعل الشريف فى أكثر الاوصاف، فمن أراد أن يعرف قدرته الوصفية فليتابعه حيث استطرد، فهنالك قدرته على التصوير و التلوين.

و من شواهد ذلك قصيدته البائية فى وصف الركب، ركب

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۲۰۱

الحجيج، و ما كانت القصيدة نظمت لوصف الركب، و لكن الشاعر استطرد فقال:

ثمانون من ليل التمام نجوبهارفيقين تكسونا الدياجى ثيابها

نؤم بكعب العامرىّ نجومهاإذا ما نظرناها انتظرنا غيابها

تقوّم أيدى اليعملات وراءهو نعدل منها أين أوما رقابها

كأنا أنابيب القناة يؤمهاسنان مضى قدما فامضى كعابها

كذئب الغضا أبصرته عند مطمعإذا هبط البيداء شم ترابها

بعين ابن ليل لا تداوى من القذىيريب أقاصى ركبه ما أرابها

تراه قبوعا بين شرخى رحالهكمذروبة ضموا عليها نصابها

فمن حلة نجتابها و قبيلةنمر بها مستنبحين كلابها

و من دار أحباب نبلّ طلولهابماء الأماقى أو نحيّى جنابها

و من رفقة نجدية بدويةتفاوضنا أشجانها و اكتئابها

و نذكرها الاشواق حتى تحنّهاو تعدى بأطراف الحنين ركابها

إذا ما تحدّى الشوق يوما قلوبناعرضنا له أنفاسنا و التهابها

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۲۰۲ و ملنا على الأكوار طربى كأنمارأينا العراق أو نزلنا قبابها

نشاق إلى أوطاننا و تعوقنازيادات سير ما حسبنا حسابها

و كم ليلة بتنا نكابد هولهاو نمزق حصباها إذا الغمر هابها

و قد نصلت أنضاؤنا من ظلامهانصول بنان الخود تنضو خضابها

و هاجرة تلقى شرار وقودهاعلى الركب أنعلنا المطىّ ظرابها

إذا ماطلتنا بعد ظمأ بمائهاو عج الظوامى أوردتنا سرابها

تمنى الرفاق الورد و الريق ناضبفلا ريق إلا الشمس تلقى لعابها

ففى هذه القصيدة وصف الشاعر القافلة و وصف الدليل أجمل وصف، و كان السياق يوجب أن تكون القصيدة فى التودد إلى رفيقه فى السفر و هو ابن ابى الزمان.

أحب أيها السادة أن تذكروا هذه الحقيقة التى استكشفناها بطول الدرس، و هى ان الوصف عند الشريف يقع غالبا على طريق الاستطراد، فإن ذكرتم هذه الحقيقة لم يصعب عليكم استقراء ما عنده من جيد الاوصاف.

و قد أشرنا إلى أنه وصف الاسد عن طريق الاستطراد، فهل تظنون أن ذلك وقع مرة واحدة، لا، فهناك شاهد ثان:

بنى عامر ما العز إلا لقادرعلى السيف لا تخطو اليه المظالم

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۲۰۳ ضجيج الهوينا يغلب الخصم رأيهو أكبر سلطان الرجال الخصائم

أرى إبل العوّام تحدى على الطوىو تأكل حوذان الطريق المناسم

و تظما على الاغذاذ أشداق خيلهو تشرب من أفواههن الشكائم

يحاول أمرا يرمق الموت دونهلقد زل عنه ما تروم المراوم

أقام يرى شم النسيم غنيمةو لا بدّ يوما أن تردّ الغنائم

و تعجبه غر البروق يشيمهاسراعا إذا مرت عليها الغمائم

ولى بين أخفاف المراسيل حاجةستصحب و الأيام بيض نواعم

تحاربنى فى كل شرق و مغربو أكبر ظنى أنها لا تسالم

أقول إذا سالت مع الليل رفقةتقاذفها حتى الصباح المخارم

دعى جنبات الوادبين فدونهاأشم طويل الساعدين بوارم

إذا هم لم تقعد به عزماتهو إن ثار لا تعيا عليه المطاعم

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۲۰۴ كأن على شدقيه ثغرا وراءهذوابل من أنيابه و صوارم

فما جذب الاقران منه فريسةو لا عاد يوما أنفه و هو راغم

يرى راكب الظلماء فى مستقرهو تستن منه فى العرين الغمائم

نمرّ وراء الليل نكتمه السرىو قد فضحتنا بالبغام الرواسم

له كل يوم غارة فى عدوهتشاركه فيها النسور القشاعم

كأن المنايا إن توسد باعهتيقظ فى أنيابه و هو نائم

و ما الليث إلا من يدل بنفسهو يمضى إذا ما بادهته العظائم

و ما كل ليث يغنم القوم زادهإذا خفقت تحت الظلام الضراغم

فهذه القصيدة نظمت فى الاصل لغرض غير وصف الاسد، ثم جاء وصف الاسد عن طريق الاستطراد، و لكن اى وصف؟ يكفى انه قال:

كأن المنايا إن توسّد باعهتيقظ فى انيابه و هو نائم

و كذلك فعل فى قصيدة:

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۲۰۵ و ذى ضغن معسولة كلماتهو مسمومة تترى إلى القلب نبله

فهى قصيدة قالها فى محاربة بعض الاعداء، و لكنه استطرد إلى وصف الاسد فأجاد، و يكفى أنه قال:

قليل ادخار الزاد يعلم انهمتى ما يعاين مطعما فهو أكله

و فى مثل ما صنع فى وصف الاسد صنع فى وصف الحية:

نبهت منى يا أبا الغيداصم لا يسمع صوت الراقى

و هى قصيدة رآها جامع الديوان فى وصف الحية فعنونها بذلك، و هى حقيقة فى وصف الحية، و إن كانت وقعت على طريق التشبيه، و لكن جامع الديوان نسى ان الشريف استطرد فوصف قصائد الهجاء أخطر وصف إذ قال:

اهدفت للارعاد و الابراقنصب مسيل العارض البعّاق

ترقع عرضا منك ذا انخراق كما رفدت النعل بالطراق

حذار من مذروبة ذلاقترفع عنك جانب الرواق

هواجما مقطوعة الرباقحتى على الآذان و الاحداق

تنتزع الاصول بالأعراق‌يلجا بها الحر إلى الاباق

أعقدها مواضع الاطواق‌لها على الاعناق و سم باق

إلى آخر القصيدة، و قد وصفت فيها الاهاجى بأخطر مما وصفت به الحية.

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۲۰۶

أيها السادة ذلكم قولنا فى الوصف عند الشريف، و منه ترون ان الوصف له عنده خصائص قد تباين ما عند غيره من سائر الشعراء.

و قد يمزج بين الوصف و الرثاء كقوله فى وصف الحيرة و بكاء ملوكها السالفين من آل المنذر بن ماء السماء.

أين بانوك ايها الحيرة البيضاء و الموطئون منك الديارا

و الالى شققوا ثراك من العشب و أجروا خلالك الانهارا

المهيبون بالضيوف إذا هبّت شمالا و الموقدون النارا

كلما باخ ضوءها اقضموهابالقبيبات مندليا و غارا

ربطوا حولك الجياد و خطوالك من مركز العوالى عذارا

و حموا ارضك الحوافر حتى‌لقبوا ارضها خدود العذارى

لم يدع منك حادث الدهر إلاعبرا للعيون و استعبارا

و بقايا من دارسات طلول‌خبّرتنا عن اهلها الاخبارا

عبقات الثرى كأن عليهاالطميّين ينفضون العطارا

و قباب كأنما رفعوا منها لمسترشد الظلام منارا

عقدوا بينها و بين نجوم الافق‌من سالف الليالى جوارا

أين عقبانك الخواطف حلقن‌و أبقين عندك الاوكارا

و رجال مثل الاسود مشوا فيك تداعوا قوائما و شفارا

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۲۰۷ حبذا اهلك المحلون اهلايوم بانوا و حبذا الدار دارا

لم يكونوا إلا كركب تأنى‌برهة فى مناخه ثم سارا

و ما اظنكم تحتاجون إلى من يرشدكم إلى جوانب الدقة و الروعة فى هذا القصيد:

و قد مر بالحيرة مرة ثانية فراعه بلاؤها بالزمان و جاش صدره بهذا القصيد:

ما زلت أطّرق المنازل بالنوى‌حتى نزلت منازل النعمان

بالحيرة البيضاء حيث تقابلت‌شم العماد عريضة الاعطان

شهدت بفضل الرافعين قبابهاو يبين بالبنيان فضل البانى

ما ينفع الماضين ان بقيت لهم‌خطط معمّرة بعمر فانى

باق بها حظ العيون و انمالا حظ فيها اليوم للآذان

و عرفت بين بيوت آل محرق‌مأوى القرى و مواقد النيران

و مناط ما اعتقلوا من البيض الظباو مجرّ ما سحبوا من المرّان

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۲۰۸ و رأيت مرتبط السوابق للمهاو معاقل الآساد للذؤبان

الهاجمين على الملوك قبابهمو الضاربين معاقد التيجان

و كأن يوم الاذن يبرز منهم‌اسد الشرى و اساود الغيطان

و لقد رأيت بدير هند منزلاألما من الضراء و الحدثان

أغضى كمستمع الهوان تغيبتانصاره و خلا من الأعوان

بالى المعالم اطرقت شرفاتهإطراق منجذب القرينة عان

أو كالوفود رأوا سماط خليفةفرموا على الاعناق بالاذقان

و ذكرت مسحبها الرياط بجوّهمن قبل بيع زمانها بزمان

امقاصر الغزلان غيّرك البلىحتى غدوت مرابض الغزلان

و ملاعب الانس الجميع طوى الردىمنهم فصرت ملاعب الجنّان

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۲۰۹ من كل دار تستظل رواقهاأدماء غانية عن الجيران

و لقد تكون محلة و قرارةلأغر من ولد الملوك هجان

يطأ الفرات فناءها بعبابهو لها السلافة منه و الروقان

و وقفت أسأل بعضها عن بعضهاو تجيبنى عبر بغير لسان

قدحت زفيرى فاعتصرت مدامعىلو لم يؤل جزعى إلى السلوان

ترقا الدموع و يرعوى جزع الفتىو ينام بعد تفرق الأقران

مسكية النفحات تحسب تربهابرد الخليع معطر الأردان

و كأنما نشر التجار لطيمةجرت الرياح بها على العقيان

ماء كجيب الدرع تصقله الصّباو نقا يدرّجه النسيم الوانى

حلل الملوك رمى جذيمة بينهاو المنذرين تغاير الأزمان

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۲۱۰ طردا كدأب الدهر فى طرد الالىو إلى الحفائظ فى بنى الديان

نعق الزمان بجمعهم عن لعلعو أقض منزلهم على نجران

و كآل جفنة أزعجتهم نبوةنقلت قبابهم عن الجولان

و على المدائن جلجلت برعادهاعركا لكلكلها على الايوان

و إلى ابن ذى يزن غدت مرحولةنفضت حويّتها على غمدان

زفر الزمان عليهم فتفرقواو جلوا عن الاوطار و الاوطان

و يضيق الوقت عن تحليل هذه القصيدة النفيسة، و قد ظلت على نفاستها منسية، فلم أر اليها أية إشارة فى أى كتاب.

و بكاء الديار قديم فى الشعر العربى، و لكنه كان فى الاغلب مقصورا على ديار الاحباب. و أظهر من شرع مذهب بكاء الآثار بين القدماء هو البحترى فى القرن الثالث، و أظهر من شرع هذا المذهب بين المحدثين هو اسماعيل صبرى فى أوائل القرن الرابع عشر، و قد أشرنا فى الطبعة الثانية من كتاب (الموازنة بين الشعراء) إلى أن شوقى نقل عن صبرى هذا المذهب، فوصف الآثار المصرية و الاندلسية بقصائد سارت مسير الأمثال.

أما بعد فهل ترونني أقنعتكم بأن الشريف كان من الشعراء الوصافين؟

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۲۱۱

مراثى الشريف

أيها السادة نحن مقبلون على فن أجاد فيه الشريف و هو الرثاء و مراثى الشريف تنقسم إلى قسمين: رثاء أهل البيت، و رثاء الاصدقاء و

الرؤساء و الملوك.

أما رثاء الشريف لأهل البيت فلن أحدثكم عنه فى هذه المحاضرة لأننى كتبت عنه فصلا مطولا فى كتاب (المدائح النبوية) و قد نشرته مكتبة مصطفى الحلبى منذ ثلاث سنين، و أنا أكره الحديث المعاد، فمن شاء منكم أن يعرف كيف رثى الشريف أهل البيت فليرجع إلى ذلك الكتاب.

و أما مراثى الشريف للاصدقاء و الرؤساء و الملوك و الخلفاء فلها ألوان، و قد مرت لبعضها فى هذه المحاضرات إشارات، و ما أشرت اليه من قبل لا أعود اليه فى هذا المساء.

و أسارع فأقرر ان مراثى الشريف تفصح عن رأيه فى دنياه، و تشهد بأنه كان يشعر بأن نهايته قريبة و أن متاعه فى الحياة قليل.

و يظهر أن شوقى تأثره من هذه الناحية، مع الفرق بين الشاعرين فالشريف كان يتألم و يتضجر من سخف الحياة، و شوقى كان يجب أن يعرف ما بعد الموت، و قصائد شوقى فى هذا المعنى من الاعاجيب فى الادب العربى، و لها مذاق مرير.

و الشواهد الاتية تبين لكم ضجر الشريف من دنياه:

قال فى تعزية محمد بن الحسن بن صالح عن والدته و قد توفيت سنة ۳۷۸:

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۲۱۲ هى ما علمت فهل ترد همومهانوب أراقم لا يبلّ سليمها

أرواحنا دين و ما أنفاسناإلا قضاء و الزمان غريما

فلأى حال تستلذ نفوسنانفحات عيش لا يدوم نعيمها

يمضى الزمان و لا نحس كأنهريحح تمرّ و لا يشمّ نسيمها

لم يشفع الدهر الخؤون لمهجةفى العمر إلا عاد و هو خصيمها

و كأنما الدنيا العرورة بردةبيدى بلى و يروقنا تسهيمها

يا دهر كم أسهرت لى من ليلةقد كنت فيك أنامها و أنيمها

و الأرض دار لا يلذ نزيلهاعمر الزمان و لا يذيم مقيمها

كم باع أبّاء تفل بطونهاو أديم جبّار يقدّ أديمها

قبر على قبر لنا و أواخريلقى رميم الاولين رميمها

و قال فى رثاء بنت أحد الاصدقاء:

عجزنا عن مراغمة الحمامو داء الموت مغرى بالانام

و ما جزع الجزوع و إن تناهىبمنتصف من الداء العقام

و أين نحور عن طرق المناياو فى أيدى الردى طرف الزمام

نوائب ما أصخن إلى عتابيطول و لا خدرن على ملام

هى الأيام تأكل كل حيّو تعصف بالكرام و باللئام

و كل مفارق للعيش يلقىكما لقى الرضيع من الفطام

و كم ليد النوائب من صريعبداء السيف أو داء السقام

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۲۱۳ فمن ورد المنية عن وفاءكآخر عاثر العينين دامى

و ما يغتر بالدنيا لبيبيفرّ من الحياة إلى الحمام

خطوب لا اجمّ لها جوادىو عزم لا أحط له لثامى

رأيت الموت يبلغ كل نفسعلى بعد المسافة و المرام

سواء ان شددت له حزيمى‌زماعا أو حللت له حزامى

و قال أيضا فى رثاء بنت أحد الاصدقاء، و قد حدثناكم من قبل عن غرامه برثاء البنات و النساء:

نخطو و ما خطونا إلا إلى الاجل‌و نتقضى و كأن العمر لم يطل

و العيش يؤذننا بالموت أوله‌و نحن نرغب فى الايام و الدول

يأتى الحمام فينسى المرء منيته‌و أعضل الداء ما يلهى عن الاجل

ترخى النوائب من أعمارنا طرفافنستعز و قد أمسكن بالطول

لا تحسب العيش ذا طول فتركبه‌يا قرب ما بين عنق اليوم و الكفل

نروغ عن طلب الدنيا و تطلبنامدى الزمان بأرماح من الاجل

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۲۱۴ يقودنى الموت من دارى فأتبعه‌و قد هزمت بأطراف القنا الذبل

و المرء يطلبه حتف فيدركه‌و قد نجا من قراع البيض و الاسل

ليس الفناء بمأمون على أحدو لا البقاء بمقصور على رجل

تعزّ ما اسطعت فالدنيا مفارقة‌و العمر يعتق و المغرور فى شغل

و لا تشكّ زمانا أنت فى يده‌رهن فما لكّ بالاقدار من قبل

و قال فى رثاء تقية بنت سيف الدولة:

نغالب ثم تغلبنا الليالى‌و كم يبقى الرمىّ على النبال

و نطمع ان يملّ من التقاضى‌غريم ليس يضجر بالمطال

أتنظر كيف تسفح بالنواصى‌لياليا و تعثر بالجبال

يحط السيل ذروة كل طودرهونا بالجنادل و الرمال

هى الايام جائرة القضاياو ملحقة الاواخر بالاوالى

يمنّين الورود فإن دنوناضربن على الموارد بالحبال

نطنّب للمنون قباب حىّ‌و يحفزنا المنون إلى الرحال

و نسرح آمنين و للمناياشبا بين الاخامص و النعال

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۲۱۵ و بينا المرء يلبسها نعيماتهجّر ضاحيا بعد الظلال

و قال فى رثاء عمر بن اسحق بن المقتدر:

أيرجع ميتا رنّة و عويل‌و يشفى بأسراب الدموع غليل

شباب الفتى ليل مضل لطرقه‌و شيب الفتى عضب عليه صقيل

فما لوننا قبل المشيب بدائم‌و لا عصرنا بعد الشباب طويل

و حائل لون الشعر فى كل لمةدليل على ان البقاء يحول

نؤمل أن نروى من العيش و الردى‌شروب لأعمار الرجال اكول

نقول مقيل فى الكرى لجنوبناو هل غير احشاء القبور مقيل

دع الفكر فى حب البقاء و طولهفهمّك لا العمر القصير يطول

و لا ترج ان تعطى من العيش كثرةفكل مقام فى الزمان قليل

و من نظر الدنيا بعين حقيقةدرى ان ظلا لم يزل سيزول

و فى رثاء بعض الأصدقاء يقول:

و ما العيش إلا غمة و ارتياحةو مفترق بعد الدنوّ و ملتقى

هو الدهر يبلى جدّة بعد جدّةفيا لابسا أبلى طويلا و أخلقا

فكم من عليّ فيك حلّق و انهوىو كم من غنيّ نال منك و أملقا

و قال فى رثاء الصاحب عميد الجيوش:

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۲۱۶ و هل نحن إلا مرامى السهاميحفّزها نابل دائب

نسرّ إذا جازنا طائشو نجزع إن مسنا صائب

ففى يومنا قدر لا بد و عند غد قدر واثب

طرائد تطلبها النائباتو لا بدّ أن يدرك الطالب

و فى رثاء على بن الحسين نقيب العباسيين يقول:

تناهى بنا الآجال عن كل مدةو ما تنتهى بالطالبين المطالب

نغر بايعاد الردى و هو صادقو نطمع فى وعد المنى و هو كاذب

و فى رثاء خاله أحمد بن الحسين الناصر يقول:

لنا كل يوم رنة خلف ذاهبو مستهلك بين النوى و النوادب

و قلعة اخوان كأنا وراءهمنرامق اعجاز النجوم الغوارب

نوادع أحداث الليالى على شفامن الحرب لو سالمن من لم يحارب

و نأمل من وعد المنى غير صادقو نأمن من وعد الردى غير كاذب

و ما الناس إلا دارع مثل حاسريصاب و إلا داجن مثل سارب

إلى كم نمنى بالغرور و ننثنىبأعناقنا للمطعمات الكواذب

نراع إذا ما شيك أخمص بعضناو أقدامنا ما بين شوك العقارب

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۲۱۷ و نمسى بآمال طوال كأنماأمنا بيات الخطب دون المطالب

و فى تعزية ابى سعيد بن خلف عن ابنه يقول:

و أرى الناس وافرا و ملقّىبالرزايا و الارض دارا و قبرا

منزلى قلعة و لبث فهذاك مجازا لنا و هذا مقرّا

كل يوم نذم للدهر عهداخان فيه و نشتكى منه غدرا

قد أنيخت لنا الركائب فالحازم عبّا زادا و وطّأ ظهرا

أسمع الحاديان و استعجل الركب زماعا إلى المنون و نفرا

كم فقيد لنا طوته الليالىذقن منه حلوا و ذوّقن مرا

و كأن الأيام يدركن ثاراعندنا فيه او يقضّين نذرا

إنما المرء كالقضيب تراهيكتسى الاخضر الرطيب ليعرى

ايها السادة اتعرفون لماذا اطلت فى سرد هذه الشواهد؟

إنما أطلت لأنى رأيت جماعة منكم ينكرون فيما سلف ان اكتم الاشعار التى تشهد بأن الشريف كان يعانى علة خفية، و كانت حجتهم أن الدرس لا يعرف الكتمان، فليفهموا فى هذا المساء كيف كان يدعو إلى انتهاب الصفو من أيام الشباب، و ستعرفون فيما بعد أنه

مات فى السابعة و الاربعين، و هى ميتة مبكرة جدا، بالنسبة لرجل مثله نشأ من أسرة كان أكثرها من العماليق.

و هناك جانب محزن فى مراثى الشريف هو يأسه من وفاء الباكين، كأن يقول:

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۲۱۸ كم ذاهب أبكى النواظر مدهو مضى و طاب لمقلة تهويما

أو ثغر محزون تبسّم سلوهو العين لما يرق بعد سجومها

و كأن يقول:

من مات لم يلق من يحيا يلائمهفكن بكل مصاب غير محتفل

و كأن يقول و هو يرثى الحيرة:

و وقفت أسأل بعضها عن بعضهاو تجيبنى عبر بغير لسان

قدحت زفيرى فاعتصرت مدامعىلو لم يؤل جزعى إلى السلوان

ترقا الدموع و يرعوى جزع الفتىو ينام بعد تفرق الأقران

و هو مذهب قديم أعلنه أبو العتاهية إذ قال:

إذا ما انقضت يوما من الدهر مدتىفإن غناء الباكيات قليل

سيعرض عن ذكرى و تنسى مودتىو يحدث من بعد الخليل خليل

و يأس الشريف من الدنيا و الناس راضه على التأسى و التجلد:

صبرت عنك فلم ألفظك من شبعلكن أرى الصبر أولى بى من الجزع

و إن لى عادة فى كل نازلةأن لا تذل لها عنقى من الضرع

لذاك شجعت قلبى و هو ذو كمدو ملت بالدمع عنى و هو ذو دفع

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۲۱۹ ماض على وقعات الدهر إن طرقتغدا بحمل أذاها جد مضطلع

و حاسر يتلقى كل نائبةتدمى فيصبر فيها صبر مدرّع

ما غاض دمعى إلا بعد ما انحدرتغروبه بين منهلّ و منهمع

لو لا اندفاع دموع العين غالبةلم يعقب الصبر دمعا غير مندفع

فى اليأس منك سلوّ عنك يضمرهو قبل يومك يقوى الحزن بالطمع

و هوّن الوجد أن الموت مشتركفينا و أنا لذا الماضى من التبع

هى الثنايا إلى الآجال نطلعهافمن حثيث و من راق على ظلع

هيهات لا قارح يبقى و لا جذععلى نوائب كر الأزلم الجذع

و لكن هذا المتجلد تهتاجه اللوعة من حين إلى حين فيقول:

لقد ذهب العيش الرقيق بذاهبهو الغارب المجزول من ذروة المجد

و إنى إذا قالوا مضى لسبيلهو هيل عليه الترب من جانب اللحد

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۲۲۰ كساقطة إحدى يديه إزاءهو قد جبّها صرف الزمان من الزند

و قد رمت الايام من حيث لا أرىصميمى بالداء العنيف على عمد

فلا تعجبا أنى نحلت من الجوىفأيسر ما لاقيت ما حز فى الجلد

و لو أن رزءا غاض ماء لكانهلجفّت له خضر الغصون من الرند

و يقول:

جوائب أنباء وددت بأننى‌صممت لها ما أورق العود مسمعا

تصاممت حتى أبلغ النفس عذرهو ما نطق الناعون إلا لأسمعا

بأن أبا حسان كبت جفانهو أخمد نيران القرى يوم و دعا

أعز على عينى من العين موضعاو ألطف فى قلبى من القلب موقعا

أكن غليلى بالضلوع و لم أجدلقلبى وراء الهم مذ غاب مطلعا

و فارقنى مثل النعيم مفارقاو ودعنى مثل الشباب مودعا

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۲۲۱ غلا الوجد بى حتى كأن لم أر الردى‌يخط لجنب قبل جنبك مصرعا

فإن لم تزل نفسى عليك فإنهاستنفد أنفاسا حرارا و أدمعا

فيا لائمىّ اليوم لا صبر بعدهفطيرا بأعباء الملامة أوقعا

و يقول:

للّه نفرة وجد لست أملكهاإذا تذكرت إخوان الصفاء معى

يواصل الحزن قلبى كلما فجعت‌يدى بحبل من الأقران منقطع

ما لليالى يرنقن المجاجة من‌شربى و يوبين مصطافى و مرتبعى

عدت عوادى الردى بينى و بينكمو أنزلتك النوى عنى بمنقطع

و شتتت شملك الأيام ظالمةفشمل دمعى و لبى غير مجتمع

أخىّ لا رغبت عينى و لا أذنى‌من بعد يومك فى مرأى و مستمع

و ما هذه أشعارا، إن هى إلا أنفاس حرار أيها السادة كان الشريف من كرام الاوفياء، و مراثيه أصدق شاهد، و قد حدثتكم من قبل أنه كان يفى لاصدقائه فيرثيهم يوم الموت، و بعد أن يطول عهدهم بالموت، و نحدثكم الآن أنه صنع مثل هذا الصنيع مع بهاء

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۲۲۲

الدولة، فقد رثاه بالكافية التى سمعتموها من قبل، و بعد أن مر على موته ثمانية عشر شهرا حنّ اليه فقال:

أظن الليالى بعدكم ستريع‌فلم يبق لى من رائع فتروع

خذى عدة الصبر الجميل فانه‌لكل نزاع يا أميم نزوع

و قد كنت أبكى للأحبة قد أنى‌لقلبى سلوّ و اطمأن ولوع

و لكنما أبكى المكارم أخليت‌منازل منها للندى و ربوع

و هل أنا جاز ذلك العهد بالبكاو لو أن كحل الماقيين نجيع

إلى آخر القصيدة.

أيها السادة لم يبق إلا أن نشير إلى أورع مراثى الشريف، و أروع مراثيه اثنتان:

العينية:

منابت العشب لا حام و لا راع‌مضى الردى بطويل الرمح و الباع

و الرائية:

ألقى السلاح ربيعة بن نزارأودى الردى بقريعك المغوار

و العينية من غرائب المراثى، و الشاعر يجلجل فيها جلجلة قوية، تشهد بقدرته الفائقة على افتراع المعانى، و انظروا كيف يقول:

منابت العشب لا حام و لا راع‌مضى الردى بطويل الرمح و الباع

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۲۲۳ القائد الخبل يرعيها شكائمهاو المطعم البذل للديمومة القاع

من يستفز سيوفا من مغامدهاو من يجلل نوقا بين أنساع

يسقى أسنته حتى تقىء دماو يهدم العيس من شد و إيضاع

ما بات إلا على هم و لا اغتمضتعيناه إلا على عزم و إزماع

خطيب مجمعة تغلى شقاشقهإذا رموه بأبصار و أسماع

لما أتانى نعىّ من بلادكمعضضت كفى من غيظ على الناعى

أبدى التصامم عنه حين أسمعهعمدا و قد أبلغ الناعون أسماعى

و أما الرائية فهى من غرائب الشعر الجزل، و قد شرحها ابن جنى فى حياة الشريف، و اهتمام الاستاذ بشرح قصائد تلميذه من أطايب البر و الرعاية، و قد عرف التلميذ لاستاذه هذا الفضل فمدحه و رثاه، و كان يعبر عنه فى مؤلفاته بعبارة (قال شيخنا أبو الفتح).

و انظروا كيف ابتدأ الشاعر هذا القصيد:

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۲۲۴ ألقى السلاح ربيعة بن نزارأودى الردى بقريعك المغوار

و ترجّلى عن كل أجرد سابحميل الرقاب نواكس الأبصار

و دعى الاعنة من أكفك انهافقدت مصرّفها ليوم مغار

و تجنبى جرّ القنا فلقد مضىعنهن كبش الفيلق الجرار

و ليغد كل مغرّض من بعدهمغرى بحل معاقد الاكوار

قطع الزمان لسانك العضب الشباو هدا تخمّط فحلك الهدار

و اجتاح ذاك البحر يطفح موجهو طوى غوارب ذلك التيار

اليوم صرحت النوائب كيدهافينا و بان تحامل الاقدار

مستنزل الاسد الهزبر برمحهولّى و فالق هامة الجبار

و تعطلت وقفات كل كريهةأبدا و حط رواق كل غبار

أيها السادة قد رأيتم ألوانا من عواطف الشريف فى مراثيه، و رأيتم كيف صورت تلك المراثى فهمه لقيمة الحياة، و رأيتم كيف كان يتجلد و كيف كان يرتاع.

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۲۲۵

و ما أحسبنى فى حاجة إلى النص على قوة الشاعرية فى مراثى الشريف.

و يهمنى أن أذكركم بأن تلك المراثى جمعت خصائص الشمائل العربية أو ما كان يتصور الشريف من الشمائل العربية، و الرجوع اليها فى الديوان يفتح أمامكم بابا من فهم النفوس و القلوب و العقول، و يغريكم بالتطبع و التخلق بما كان عند أسلافنا الاقوياء من طباع و أخلاق.

ما كان الرثاء عند أسلافنا بكاء و نواحا، و إنما كان تسجيلا لخلائق الابطال، و تذكيرا بما يجب أن يتخلق به الرجال.

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۲۲۶

قصيدة الوداع

وقف الشريف على منازله قبل أن يموت بنحو عام واحد فقال:

أمل من مثانيها فهذا مقيلهاو هذى مغانى دورهم و طلولها

حرام على عينى تجاوز أرضهاو لم يرو أظماء الديار همولها

و قد خالطت ذاك الثرى نفحاتهاو جرّت على ذاك الصعيد ذيولها

حقوف رمال ما يخاف انهيالهاو أغصان بان ما يخاف ذبولها

إذا ما تراءاها اللوائم ساعةفأعذرها فيمن يحب عذولها

رضينا و لم تسمح من النيل بالرضاو لكن كثير لو علمنا قليلها

شموس قباب قد رأينا شروقهافيا ليت شعرى أين منا افولها

تعالين عن بطن العقيق تيامنايقوّمها قصد السرى و يميلها

فهل من معيرى نظرة فاريكهاشرقىّ نجد يوم زالت حمولها

كطامية التيار يجرى سفينهاأو الفلج العلياء يهفو نخيلها

و لم تر إلا ممسكا بيمينهرواجف صدر ما يبل غليلها

و مختنقا من عبرة ما تزولهو مختبطا فى لوعة ما يزولها

محا بعدكم تلك العيون بكاؤهاو غال بكم تلك الاضالع غولها

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۲۲۷ فمن ناظر لم تبق إلا دموعهو من مهجة لم يبق إلا غليلها

دعوا لى قلبا بالغرام أذيبهعليكم و عينا فى الطلول أجيلها

سقاها الرباب الجون كل غمامهيهش لها حزن الملا و سهولها

نجائب لا يودى بأخفافها السرىو إن طال بالبيد القواء ذميلها

فكم نفحة من أرضها بردت حشاو بلّ غليلا من فؤاد بليلها

منازل لا يعطى القياد مقيمهامغالبة و لا يهان نزيلها

خليلىّ قد خف الهوى و تراجعتإلى الحلم نفس لا يعز مذيلها

فلست ابن أم الخيل إن لم أمل بهاعوابس فى دار العدوّ أبيلها

إذا انجفلت من غمرة ثاب كرهاو عاد إلى مرّ المنايا جفولها

يزعفر من عض الشكيم لعابهاو يرعد من قرع العوالى خصيلها

و نحن القروم الصيد إن جاش بأسهاتغودر مرعى ذودها و مقيلها

بأيماننا بيض الغروب خفائفنغول بها هام العدا و تغولها

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۲۲۸ تفللن حتى كاد من طول وقعهابيوم الوغى يقضى عليها فلولها

قوائم قد جربن كل مجرّببضرب الطلى حتى تفانت نصولها

و أودية بين العراق و حاجربيض المواضى و العوالى نسيلها

يمدّ بدفّاع الدماء غثاؤهاو يجرى بأعناق الرجال حميلها

إذا هاشم العلياء عب عبابهاو سالت بأطناب البيوت سيولها

مدفّعة تحت الرحال ركابهامحفزة تحت اللبود خيولها

رأيت المساعى كلها و تلاحقتفروع العلا مجموعة و أصولها

إذا استبقت يوما تراخى تبيعهاو خلّى لها الشأو البعيد رسيلها

و إما أحالت للطعان رماحهاو شن عليها للقاء شليلها

فثم عوال ما ترد صدورهاو ثم جياد ما يفل رعيلها

و ثم الحماة الذائدون عن الحمىعشية لا يحمى النساء بعولها

أبى ما أبى لا تدّعون نظيرهرديف العلا من قبلكم و زميلها

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۲۲۹ هو الحامل الأعباء كلّ مطيقهاو عجّ عجيج الموقرات حمولها

طويل نجاد يجتبى فى عصابةفيفرعها مستعليا و يطولها

إذا صال قلنا أجمع الليث وثبةو إن جاد قلنا مدّ من مصر نيلها

حليم إذا التفتت عليه عشيرةتطاطا له شبانها و كهولها

و إن نعرة يوما أمالت رؤوسهاأقام على نهج الهدى يستميلها

و أنظرها حتى تعود حلومهاو أمهلها حتى تثوب عقولها

و لم يطوها بالحلم فضل زمامهافتعثر فيه عثرة لا يقيلها

فعن بأسه المرهوب يرمى عدوهاو من ماله المبذول يودى قتيلها

أكابرنا و السابقون إلى العلاألا تلك اساد و نحن شبولها

و إن أسودا كنت شبلا لبعضهالمحقوقة أن لا يذل قتيلها

و هذه القصيدة على قوتها ليست إلا زفرة شاعر مودّع، و لا سيما هذه الأبيات:

محا بعدكم تلك العيون بكاؤهاو غال بكم تلك الاضالع غولها

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۲۳۰ فمن ناظر لم تبق إلا دموعهو من مهجة لم يبق إلا غليلها

دعوا لى قلبا بالغرام أذيبهعليكم و عينا فى الطلول أجيلها

و نقل صاحب التبيان أن أبا الحسن النحوى قال: دخلت على السيد المرتضى طاب ثراه يوما و كان قد نظم أبياتا فوقف به بحر الشعر فقال:

خذ هذه الأبيات إلى أخى الرضى و قل له تممها، و هى هذه:

سرى طيف سلمى طارقا فاستفزنىسحيرا و صبحى فى الفلاة رقود

فلما انتبهنا للخيال الذى سرىإذ الارض قفر و المزار بعيد

فقلت لعينى عاودى النوم و اهجعىلعل خيالا طارقا سيعود

قال: فأخذتها و مضيت إلى السيد الرضى و أعطيته القرطاسة فلما رآها قال: علىّ بالمحبرة، و كتب:

فردت جوابا و الدموع بوادرو قد آن للشمل المشت ورود

فهيهات من ذكرى حبيب تعرضتلنا دون لقياه مهامه بيد

فأتيت بها إلى المرتضى، فلما قرأها ضرب بعمامته الأرض و بكى.

و قال: يعز علىّ أخى، يقتله الفهم بعد أسبوع. فما جاء الاسبوع إلا و جاء نعى الرضى و مضى إلى سبيله.

عبقرية الشريف الرضى، ج۲، ص: ۲۳۱

و هذه نادرة يستبعدها الناس، و لكنها طريفة، إذ تجعل موت الشريف بالشعر شبيها بحال من يخنقه أرج الازهار فيموت.

و كانت وفاته رحمه اللّه فى أوائل المحرم سنة ۴۰۶ و رثاه أخوه المرتضى فقال:

يا للرجال لفجعة جزمت يدىوددتها ذهبت علىّ براسى

ما زلت آبى وردها حتى أتتفحسوتها فى بعض ما أنا حاسى

و مطلتها زمنا فلما صممت‌لم يثنها مطلى و طول مكاسى

لا تنكروا من فيض دمعى عبرةفالدمع خير مساعد و مواس

واها لعمرك من قصير طاهرو لرب عمر طال بالأرجاس

و رثاه تلميذه مهيار بقصيدة يحفظها أكثر الادباء:

أقريش لا لفم أراك و لا يدفتواكلى غاض الندى و خلا الندى

و رثيته أنا بقصيدة طويلة جدا، هى هذا الكتاب.

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فى سَبيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علىّ بْنُ موسَى الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... َ يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فى تلخيص بحار الأنوار، للعلاّمة فيض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُيونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّيخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائميّة" الثّقافيّ بأصبَهانَ – إيرانَ: الشهيد آية الله "الشمس آباذى" – رَحِمَهُ اللهُ – كان أحداً من جَهابذة هذه المدينة، الذى قدِ اشتهَرَ بشَغَفِهِ بأهل بَيت النبىّ (صلواتُ اللهِ علَيهِم) و لاسيَّما بحضرة الإمام علىّ بن موسَى الرِّضا (عليه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرجَهُ الشَّريفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درايته، فى سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجريّة الشمسيّة (=۱۳۸۰ الهجريّة القمريّة)، مؤسَّسةً و طريقةً لم يَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَى و أحسَنِ مَوقِفٍ كلَّ يوم.

مركز "القائميّة" للتحرِّى الحاسوبىّ – بأصبَهانَ، إيرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجريّة القمريّة) تحتَ عناية سماحة آية الله الحاجّ السيّد حسن الإمامىّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّيجى الحوزات العلميّة و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، فى مجالاتٍ شتّى: دينيّة، ثقافيّة و علميّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثَقافة الثَّقَلَين (كتاب الله و اهل البيت عليهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزيز دوافع الشّباب و عموم الناس إلى التّحَرِّى الأدَقّ للمسائل الدّينيّة، تخليف المطالب النّافعة – مكانَ البَلاتيثِ المبتذلة أو الرّديئة – فى المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوتريّة)، تمهيد أرضيّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافيّةٍ على أساس معارف القرآن و أهل البيت –عليهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطّلاّب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِجِ العلوم الإسلاميّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشُّبُهات المنتشرة فى الجامعة، و...

– مِنها العَدالة الاجتماعيّة: التى يُمكِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحديثة متصاعدةً، على أنّه يُمكِن تسريعُ إبراز المَرافِق و التسهيلاتِ– فى آكناف البلد – و نشرِ الثّقافةِ الاسلاميّة و الإيرانيّة – فى أنحاء العالَم – مِن جِهةٍ اُخرَى.

– من الأنشطة الواسعة للمركز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ كتبٍ، كتيبة، نشرة شهريّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقيقيّة و مكتبية، قابلة للتشغيل فى الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثّلاثيّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّكة و... الأماكن الدينيّة، السياحيّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتى "القائميّة" www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضيّة، الخَطابات و... للعرض فى القنوات القمريّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمىّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعيّة، الاخلاقيّة و الاعتقاديّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسيم النظام التلقائيّ و اليدويّ للبلوتوث، ويب كشك، و الرّسائل القصيرة SMS

ح) التعاون الفخريّ مع عشراتِ مراكزَ طبيعيّة و اعتباريّة، منها بيوت الآيات العِظام، الحوزات العلميّة، الجوامع، الأماكن الدينيّة كمسجد جَمكرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفيذ مشروع" ما قبلَ المدرسة "الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِكين فى الجلسة

ى) إقامة دورات تعليميّة عموميّة و دورات تربية المربّى (حضوراً و افتراضاً) طيلة السَّنَة

المكتب الرّئيسيّ: إيران/أصبهان/ شارع"مسجد سيّد/ "ما بينَ شارع"پنج رَمَضان "ومُفترَق"وفائى/"بناية"القائميّة"

تاريخ التأسيس: ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجرية القمريّة)

رقم التسجيل: ۲۳۷۳

الهويّة الوطنيّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكترونى: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتى: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاكس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مكتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التّجاريّة و المَبيعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمين ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

الميزانيّة الحاليّة لهذا المركز، شَعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنِيَت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنّها لا تُوافِي الحجمَ المتزايد و المتّسِعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثّقافيّة؛ لهذا فقد ترجَّى هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّى بالقائميّة) و مع ذلك، يرجو مِن جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفّقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم – فى حدّ التّمكّن لكلّ احدٍ منهم – إيّانا فى هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالى؛ و اللهُ وليّ التوفيق.

مرکز القائمیة للبحوث والتخریبات الکمبیوتریة
اصبهان
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹